

زواج تحت التهديد

أحلام سعد

رواية: زواج تحت التهديد
(دراما اجتماعية بنظرة ساخرة)
المؤلف: أحلام سعد
تدقيق لغوي: آية النزهي
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: مروة فتحي
رقم الإيداع: 2019 / 25718
الترقيم الدولي: 9-4-85607-978/977
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي



بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com

تليفون : 01110161117

العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة

صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي

<https://www.facebook.com/alhalapublishing>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

زواج تحت التهديد

(دراما اجتماعية بنظرة ساخرة)

أحلام سعد

إهداء

تلك الرواية ليست لكِ أولك: تلك الرواية لمن أعطى نفسه حق
التدخل في حياتكما...
أمها المجتمع اللطيف من فضلك...
«أخرج أنفك التي حشرتها في حياتي الخاصة».

شكر خاص

إلى الجميلة/ نهى طلبة، الجندي المجهول في الرواية.
أدامك الله في حياتي.
إلى مجموعة/ شخابيط وردية معكم بدأت بكم أستمر
شكرًا لإيمانكم بقلبي ودعمكم المتواصل.

تلك الرواية من وحي الخيال، ومن رحم الواقع؛ فنالت درجة
الجنون مع مرتبة الشرف.

(نحن نعيش أوج عصر التفاهة، حيث عقد الزواج أهم
من الحب، مراسيم الدفن أهم من الميت، اللباس أهم
من الجسد، وقدّاس الأحد أهم من الله)

—إدوارد غاليانو—

نصائح ذهبية لمن تريد الزواج
إذا اقتربت مناسبة عائلية اتبعي الآتي:
قومي بشراء فستاناً أنيقاً يُخفي عيوب جسمك
اذهبي إلى أفضل مركز تجميل ولا تبخلي
اتبعي نظاماً غذائياً قارصاً قبلها بوقت كافٍ
مارسي الرقص الشرقي كل يوم لتتقنيه
ويفضل مشاهدة برنامج (هزي يا نواعم)
وإذا لم تفلح أي من وسائلك تلك
فلتفعلي مثلما فعلت أنا
لماذا تنظرين نحوي هكذا!
أخبرتكَ أنه كان آخر حل
وآخر... أمل.

والنبرة بدأت تأخذ منحني دراما أمينة رزق أو عماد حمدي في فيلم الخطايا.

«إنت مش ابني إنت لقيط، لقيط.»

خرجت من شرودها على كلماتها:

– أنا مش عايشالك العمر كله.

سألها بقلق:

– فيه إيه يا ماما؟

وأجابتها بتأثر:

– إنتي متخرجة بقالك سنين والعرسان بدأت رجلها تخف.

ثم أضافت بنبرة مسيطرة:

– معدش ينفع الدلع بتاعك.

واعترضت ريم ذاكرتها وتساءلت متى تدللت وخاصة فيما يخص

«العرسان»!

هل كان عليها أن تتزوج كمال المزواج، أم كريم البخيل، أو ربما نادر ثقيل الدم والذي بعدها رفضته تقدم للزواج من ابنة خالتها ووافقت، لا لا هي تدللت عندما جاءها الحانوتي يطلب رقم هاتف أبيها بعد زيارتهم الأخيرة لجدهم بالمقابر وكان رد فعلها أنها ضحكت وركبت سيارة الأجرة مع أمها ومهجة دون أن تمنحه جوابًا سوى السخرية من الموقف ككل!

– كلمهم كانوا عاهات يا ماما.

وجدتها تتجاهلها وتلك الجدية التي على ملامحها أخافتها:

– المهارده هنروح مشوار.

وما كان من ريم إلا أن كتفت يديها حول جسدها بوضع حاجم، والنبرة حلت محلها الهمسة والخوف عندما يسكن الهمسة يستغل

ضعفها ويسكنها تمامًا:

– مشوار فين؟

كانت طوال الجلسة متمسرة الحواس جامدة الأحاسيس، وكأنها ليست طرفًا بالموضوع!

فقط مجرد مُستمِعة، أم أن الأمر مزحة وستنتهي بعد قليل؟! ليته كذلك. استعادت جزءًا من وعيها المفقود على صوت والدته المصون تقول بتباهٍ وفخر لا يتناسب مع الموقف أبدًا:

– احنا مش عاوزينها غير بشنطة هدومها.

واكتمل الموقف تمامًا عندما ابتسمت أمها مرددة:

– الكلام ده مع باباها لما تزورنا ان شاء الله.

حينها انفجرت ضاحكة ولم تعلم لم، ولكن الأمر كان يستلزم ذلك حتمًا بالتأكيد.

لكنها أمها فتبدلت ملامحها الساخرة لأخرى لائمة وقالت لها:

– ماما تعالي عاوزاكي في كلمتين برة الكافية.

– بعدين مش وقته.

قاطعتها بإصرار:

– لو مطلعتيش أنا هاخذ بعضي واروح.

تفوهت أمها بعدها رسمت ابتسامة على ثغرها:

– بعد اذنك يا أم مهند ثواني وراجعين.

وجرت ابنتها خلفها كالخروف يوم الأضحية لتسألها بجدة:

– عاوزة ايه؟

– ماما إنتي هتخليهم يقابلوا بابا بجد؟!!

- ليه هو إنتي مش مو افقة؟!
وخرج سؤالها بدهشة مماثلة في المقدار ولكنها مضادة في الاتجاه:
– ليه هو إنتي مو افقة?!
واستطردت باستنكار:
– ماما ده أحول!
قالت أمها بصوت منخفض؛ فهي كانت تعلم من زميلتها بالعمل
ولهذا مهدت لها بالصباح.
وبرأيها كلها أمور هينة أمام الوظيفة، الأصل والنسب وأمام شيخ
العنوسة والأزمة الاقتصادية والشباب «الغلبان».
– مش أحول.
– لأ أحول، طول القعدة وهو باصص في حنة تانية.
استسلمت لتقول بهدوء يحاول أن يحتوي الموقف:
– ماشي أحول بس مش أوي.
ابتلعت ريم الكلمة وأردفت:
– سيبك من الحول ده كمان ابن أمه.
أخبرتها أمها بعدم صبر:
– و إنتي لحقتي تعرفيه يا مفترية!
– مامته هي اللي مستلمة الكلام وهو قاعد كومبارس.
– بيتكسف، بيتكسف، كلهم كده في أول مرة.
شعرت ريم بأن وجنتها على وشك الانفجار وقالت بحسرة:
– هو أنا أصوم أصوم و أفطر على ده!
قاطعتها بعد أن ضغطت على ذراعها بقوة:
– بقولك إيه إنتي مش كل مرة عمليي الموال ده أنا خلاص

زهقت منك.

تخلصت ريم من قبضة أمها بصعوبة وذهبت لتجلس أمام عريسها المصون باستسلام دون أن تنظر نحوه؛ عدم رؤيته أفضل، قالت والدة العريس بلؤم:

– خيرا أم ريم!

أجابها الأخرى بعد أن افترشت ابتسامة سمجة:

– لا أبدًا.

واستطردت عنادًا بابتها:

– ما لك يا عريس ساكت ليه!

فأجابها ويا ليتته ما فعل:

– لا مفيس (مفيش) لسه ما خدتس (ما خدتش) على ييم (ريم)

لتصاب أمها بفقدان بالنطق وريم بنوبة من الضحك كادت توقف قلبها بلا رجعة، وبالأخير تماسكت نفسها لتخبره:

– إحنا معندناش بنات للجواز.

وبطريق عودتها للمنزل كانت شاردة، لا تعلم ماهية الشعور الذي يكتسحها، شيء صامت وغير مفهوم، نضجت! ربما.

وهذا الموقف الأخير أشعرها بالنقص على الرغم من اعتراف أمها بأنها أخطأت، ولكن بالذهاب للنهايات نيحت عن البدايات، شرارة الشعلة وسبب التحول، وهي بعد عشرة أشهر أدركت مدى التحول؛ فريم الفتاة ذات الأربعة وعشرين عامًا أجبرت أكثر رجل أربعها بحياتها على الزواج منها.

سيف الدين عمران... أو كما كانت تلقيه «الكائن الصفيق».

الفصل الأول

(عزيزي صاحب النصيب، منك لله)

سألت إيش الإييم جالوا البنات نعمات

ام صبعين رطاب والباقي بلح امهات

يوم ندهت علينا بيدها الناعمات

جلت نعمين تلاثة واربع خمس نعمات

مذياح يصح بغرفتها بأغنية لمنير، لحظة جنون تنتابها كل ليلة
عيد بعد انتهاء الأعمال المنزلية الشاقة المؤبدة وبعد أخذ «الدش
المتين».

رقص، انطلاق...

ثم توقفت أمام المرأة تتأمل ملامحها بلحظة رضا، عيون عسلية
وربما تلك ما تميزها، فم وأنف متناسقان، جسد لا بأس به لولا هذا
البروز الصغير والذي اعتبرته بتلك اللحظة «انتفاخ قولون»، وأما عن
الشعر «احم احم» فالحمد لله على نعمة الحجاب والبروتين والكرياتين
وخلافه.

– قمر والنبي قمر.

همست لنفسها قبل أن تقبل صورتها بالمرآة وبعدها ذهبت لأخيها
رامي والوحيد الذي بإمكانها أن تجده مستيقظاً في هذا الوقت من الليل.

– رامي، أنا هنام وقول لماما متصحنيش على الصلاة.

ورامي أخوها ذو العشر سنوات باختصار عبارة عن «شبر ونص»،
وجه مستدير وسمنة بسيطة مع عوينات ارتداها بسبب «البلاي
ستيشن» ولسان «شبرين ونص»!

الفارق بينهما أربعة عشر عامًا تقريبًا، وخلال تلك الفترة كانت أمها

قد أنجبت توأمًا توفيا بعد الولادة مباشرة، ومع هذا الفارق الكبير إلا أنه لم يلقها بـ «أبلة» أو يناديها بـ «حضرتك» بل يتعامل بطريقة أكثر تهذيبيًا.

– يابني رد عليا مش بكلمك.

التفت نحوها بعدما ضغط على زر إيقاف اللعبة.

– وطي صوتك عشان ريكا نايمة.

كانت ستصرخ «عaaaaaaaaا» تلك القطة السيامي لها وضع واحترام بالمنزل أكثر منها، ولكنها لم تفعل حتى لا تزعج «البرنسيمة» وكتمت ما بداخلها وتوجهت مباشرة لفراشها ووسادتها العزيزة.

وفي تمام الساعة الخامسة والنصف وجدت أمها توقظها بحنان الأم بيوم العيد.

– حبيبة ماما اصحي، كل سنة وإنتي طيبة.

والمساجد بدأت تصدح بتكبيرات العيد.

«الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر».

وهي مع الملائكة وكل ما تشعر به هو أنين عضلاتها المتعبسة؛ بسبب حملة تنظيف المنزل المعتادة.

بعدها بدأ صوت أمها يعلو ليتجه رويدًا رويدًا للمستوى الطبيعي الحاد:

– يلايا زفتة هنتأخر.

فتحت ريم عينها ببطء، تحاول أن ترى أمها ولكن هميات، لا ترى سوى مجموعة أشباح ولسانها يحاورها لا إراديًا.

– عاوزة أنام.

قالت أمها بتأفف:

– هو إنتي كل سنة تروقي الشقة في آخر لحظة وتيجي تقولي مش
رايحة الصلاة!

وأكملت:

– قومي يلا يا بنتي يمكن ربنا يفتحها في وشها ونخلص منك.
أخيراً بدأت في استعادة وعيها...

تعلم أن أمها تريد أن تصطحبها للصلاة كما كانت تفعل بصلوات
التراويح علماً تجد حماتها المنتظرة التي سترها وتعجب بها، ثم تأتي
مرحلة «عريس الغفلة» وبالنسبة إليها المرار.

ولكن ليس هذا الغريب، الغريب هو إصرار أمها على نفس الطقوس
كل عام ولمدة عشرة أعوام، وبالنتيجة لم ينجح أحد أي «لم تأت حماها
العزيزة وبالتالي لم تتزوج ولهذا ما زالت تذهب لصلاة العيد!»
ولفي بينا يا دنيا.

– سيبيني بس ساعتين عشان أكون فايقة في الفرح بليل.
– لأ.

وخرجت منها بمعنى أنه لا نقاش، انتهى.

وأكملت هي نومها بصلاة العيد.

دخلت ريم للقاعة مع العروس والابتسامة ملأت شديها فالفرحة
فرحتان؛ فرحة العيد وزفاف منال.

ووصايا أمها الأخيرة ترن بأذنيها:

– ما تحطيش ميكب أوفر خليكي رقيقة، وفي نفس الوقت
يكون ملفت كده، وماتنسيش تظبطي مشيتك وإنتي داخلة القاعة

وترفعي راسك لفوق، وماترقصيش بدلع ياريم خليكي رقيقة عشان ما يقولوش عنك بتعملي كده عشان تلاقي عريس، وخدي بالك لتتكعبي بالكعب العالي وتقعي تبقى فضيحة، وحسك عينك تاكلي أي حاجة في الفرح، والأهم بقى خليكي مركزة مع الفيديو، وفي نفس الوقت يكون بيبصورك يعني اعملي نفسك مش واخدة بالك.

اتجهت نحو العروس تساعدها بالجلوس على المنصة المخصصة لهما، منال هي ابنة خالتها شيرين توأم والدتها هناء.

ولكن هناء وشيرين تختلفان اختلاف جوهرى بالطباع؛ فشيرين هادئة وقليلة الكلام كنسمة الصيف على عكس هناء والددة ريم كزعابيب أمشير، ولكن في النهاية تجتمعان على شيء واحد كأى أم شرقية وهو رؤية بناتهن بالفستان الأبيض مع صاحب النصيب.

والبداية كانت مع منال وحتى لو كانت ستتزوج من نادر الذي سبق ورفضته هي لتعيش التوأم فترة من التوتر سرعان ما انتهت بتحضيرات الزفاف.

واليوم هي هانئة البال وفرحتها بمن تعتبرها أختها الكبرى شبيهة بفرحة العيد.
سعادة وكفى.

حضن ودعوة من القلب وقرصة بركبتها.

وتجاهل لهمسة أمها بأذنيها.

«يا هبلة مش كان زمانك العروسة».

وعدم اهتمام لابتسامة أم العريس الصفراء التي تحدثت قبل لسانها: «عقبال ما ربنا يكرمك».

وقرار الاحتفاظ بهدوء الأعصاب مع الجملة التي تعتبرها قمة الاستفزاز حتى أكثر من مذيعي التوك شو.

«هاه مفيش حاجة جديدة ياريم في السكة؟!»
وصوت آخر يهزأ وكانت ابنة خالتها الصغرى وشقيقة العروس:
– غالباً الطريق زحمة يا طنط ادعيه يوصل.
وحينها نطقت ضاحكة:
– عقبالك يا محسن.

والأخيرة دخلت لمنتصف حلبة الرقص فهي لم تستطع مقاومة
أغنية «آه لو لعبت يا زهر» ثم جذبت ريم إليها:
– بعد الشر، عقبالك إنتي.

واشتعل حفل الزفاف فريم ومهجة «دويتو» مميز ومتناغم للغاية
بحفلات الزفاف أو بالأحرى كما يلقبون أنفسهم «عوالم الفرح».

...5، 4، 3، 2، 1

وقفت منال بوضع الاستعداد العكسي لرمي باقة الزهور خاصتها
لصاحبة النصيب والعروس المنتظرة، نظرت إلى الباقة نظرة أخيرة
بسعادة، وقبل أن تلقيا أوقفها نادر من الطرف الآخر والذي كان
يتحدث إليها عبر الميكروفون.

– أنا حابب أقولك كلمتين.

والتفتت نحوه بترقب فأكمل متعمقاً بعينها:

– الورد الأبيض ده أنا مجمعه عشانك يا حبيبتي وكل وردة فيهم
بتحكي حكاية.

الأفحوان: أيقونة الإخلاص وده وعدي ليكي.

القرنفل: بيسموه ورد الجمال وإنتي آية الجمال.

الفرجس: وردة عظيمة وكبيرة زيك في نظري.

الأوركيد: زهرة الحسن يا ست الحسن والجمال.

والأخرى دمعت عينها، أي أنثى يمنحها زوجها كل هذا الحب بليلة الزفاف أمام الجميع ستلجمها الفرحة وتجمدها السعادة، وتذكرت قبل أربعة أشهر تقريبًا عندما تقدم نادر لخطبتها بعدما رفضته ريم، لا تنكر لقد شعرت بالضيق وربما الحيرة، فأى رجل هذا الذي يتقبل أن يتزوج من ابنة خالة رافضته!

ولكنها لم تمتلك أي فرصة للرفض فلتحتار مثلما تشاء، ولكن بالنهاية قرارها محسوم.

هي أنثى قاربت على الثلاثين، كل من بعمرها تزوج ولديه «قرطة عيال»، لا تمتلك جمال مهجة الذي يسمح لها بالدلال، فهي فتاة عادية حد الشفافية.

ببساطة أنثى غير مرئية.

وحتى ريم ما زالت بعمر الرابعة والعشرين ولديها رفاهية الاختيار، لم تعش إحساس الخوف من الوحدة والذي يزداد كلما زاد الصقيع، لم تعاصر الضغط الواقع على أي فتاة، تأخرت بالزواج من وجهة نظر مجتمعها اللطيف جدًا، لم تمر على أذنها كلمة مثل التي أخبرتها بها أمها حينها:

– يامنال إنتي خلاص 29 سنة يعني يدوبك تلحقي تجيبلك عيلين!

والتي بتر بعدها أي حديث ممكن.

وكان خوفها الأكبر يكمن بأنه اختارها خصيصًا بسبب كل ما سبق! وافقت، نعم، ولكنها عايشت فترة خوف من المجهول قاسية للغاية، وبجلسة مصارحة أخبرته عن كل ما بداخلها كونها خطيبته:

– متزعلش مني يا نادر بس أنا بجد خايفة، كل ما افكر انت ليه تتقدملي أنا بالذات بعد ريم أخاف، كل ما تكون عندنا في البيت

أقول يا ترى لو جت ريم دلوقت هفضل خايفة أشوف نظرتك لها ولا
هتشجع وأبصلك!

وأضافت بدموع:

– ومش عارفة هقدر استمر كده ازاي.

حينها أمسك وجهها بتملك واحتواء لينهي توترها بجملته واحدة:

– أول ما شفتك قولت إنتي نصي الثاني اللي بدور عليه.

والآن أمام الجميع ودون خجل يشرح لهم قصة حب نبتت من أرض
الخوف!

اتجهت نحوه وتركت الفتيات خلفها، وبنفس النبوة المليئة بدموع
الفرح، والمشبعة بامتنان أنثى لم تشعر بكرامتها سوى بعد أن اقترن
اسمها بجانب اسمه بوثيقة زواج، أمسكت المايكروفون وأخبرته موزعة
نظراتها بينه وبين صبايا الحفل:

– آسفة يا بنات مش هقدر أفرط في البوكيه.

وأضافت بضحكة خافتة خجولة:

– خلاص بقى حتة مني.

ثم احتضنته بعدها مخبرة إياه:

– ربنا يخليك ليا.

هرج ومرج.

تصفيفات حارة.

مصمصة شفاة.

نظرات سعيدة وأخرى «تشعر بالحقد»، وفتيات يرددن «أنا عاوزة

من ده يا حزومبل».

ومن وسط كل هذا كانت مهجة وريم تتابعان المشهد الرائع.
الأولى لم تقتنع بالأداء؛ وربما لأنها لا تطيق هذا النادر، والثانية
خائفة من الحرب التي ستندشب بمنزلها بمجرد عودتها إليه.

– ينفع آيات عندكم النهارده؟

أجابتها مهجة على الفور ضاحكة:

– جبانة.

وبررت ريم:

– إنتي مش متخيلة بعد اللي عمله جوز اختك ده انا هيحصل

فيا إيه!

ضحكت مهجة ضحكة عالية أثارت انتباه الحضور، ولكنها كالعادة
لا تبالى بكلمة «حضور»:

– أعتقد خالتو هتبلغ عنك مباحث مكافحة الإرهاب!

لكزتها ريم بقوة:

– بتهزري.

– أعملك إيه إنتي اللي أوفر.

وأضافت مشيرة برأسها باتجاه العريس:

– ونادرده قمة الأوفر، مش بيتزلي من زور.

نظرت ريم نحوهما وأقرت:

– بس منال مبسوفة، أنا عمري ماشوفتها كده.

– ربنا يستر.

وكان ردها الذي تفاجأت به ريم:

– فيه إيه يا بومة هتخوفيني ليه؟! شكله بيحيا.

ومن داخلها كانت تردد «صدق اللي سماكي محسن!»

وهي ليست محسن لأنها مذكر، بل العكس هي واثقة من أنوثتها
حد عدم المبالاة بها؛ فلقد ورثت جمال جدتها الهادئ الشبيهه ببطلات
الأفلام الأبيض والأسود ذات العيون السواء والشعر القصير والملامح
الدقيقة.

وهي ليست محسن بسبب دراجتها «الروز».

هي محسن؛ لأنها لا تقتنع بأهمية الجنس الذكوري على الكرة
الأرضية، بل العكس لا ترى سوى أنهم كائنات مسببة للإزعاج!
هي الأرملة السوداء التي لا تحبذ الأذى، ولكنها قد تختاره بلحظة
إجبار.

وحينها داهم حديثهما رجل كان ينظر نحو مهجة بذهول ولسانه
يردد:

– يا لهوي! الله بجد.

والقلوب الحمراء تتقاذف من عينيه قفزاً.

ابتسمت مهجة مخبرة إياه بود بينما ريم كانت فاغرة فمها على
اتساعه:

– أنور، إيه المفاجأة الحلوة دي!

مد الأخير يديه بعدما قام بمسح قطرات عرقه ولا يفهم لمّ منذ
أن لمجها بتلك الطلة الأنثوية الرائعة شعر بأن حرارة الجو قد تعدت
الخمسين درجة.

– ألف مبروك يا أستاذة و... عقبالك.

وأنور هو زميل العمل، تفهم نظراته العاشقة، ولكنها لا تستطيع
أن تراه سوى موظف الأمن الذي يقوم بحراسة البنك الذي تعمل هي
فيه كصرافة.

ومع كل ارتباكة تراها على ملامحه كل صباح تتعاطف هي معه،

وتشعر بالأبوة وليست الأمومة!

وكأنه طفلها الصغير المتعثر بحبال الهوى «الدايبة».

فهي محسن وليست مهجة.

عدوة الحب الكبرى وكارهة صنف الرجال بأكمله.

ولنكن محقين جميعهم عدا أبيها المتوفي وعدا «أونكل حسان» زوج

خالتها و... عداه.

نعم لقد استثنته من القاعدة، وليس من أجل المشاعر، بل من

أجل شعور بالشفقة تحول إلى رغبة بالحماية!

وربما لأن أمثال أنور نادري الوجود مثل السكر والزيت أيام الغلاء.

– الله يبارك فيك يا أنور.

وهو في داخله يردد:

«يا دين النبي، كنتي مخيبة الجمال ده فين!»

كانت مهجة تعرفه إلى ريم وهو شارد، ولا يرى غيرها، وكلما يشرد بها

يحمر وجهه عوضاً عنها!

وريم تهمس بأذنيها:

– يا لهوي ده ضايع خالص.

وتشعر نحوه بالأسف ثم تصطحبه إلى العروسين ليقوم بواجب

التهنئة.

ومع كل نظرة يقتنصها هو نحوها وتهرب هي منها يوخزها ضميرها.

«ما كان يجب أن يعشقمها هذا الرجل تحديداً».

ومن داخلها صوت آخر يقرر بأنها ستؤذيه أجلاً أو عاجلاً.

فهي الأرملة السوداء، ولن تتنازل عن اللقب مهما كان.

أرادت الهروب، ولكن هيهات.
المكان محاصر وهي وحيدة.
أبها تحجج بتوصيل شقيقته حتى منزلها، وأخبرهم أنه ربما يبديت
لديها.

ورامي قد دخل لغرفته منذ ولوجهم وأغلق عليه الباب.
وهي بدأت تستمع لموسيقا تصويرية حادة ترن الأرجاء فانسحبت
هاربة لغرفتها كي تبدل ثوبها.

وبعد نصف ساعة نادتها أمها.
وشيء ما يردد برأسها «جالك الموت يا تارك الصلاة».
ووجدت أمها جالسة على مقعد ملتصق بسيرها، وتقمصت دور
عبلة كامل في مسلسل «لن أعيش بجلباب أبي» وخاصة بذلك الوشاح
الذي عقصته فوق رأسها.

– ماما إنتي سنانك بتوجعك؟

والأخيرة أخبرتها بحنق:

– مصدعة، دماغي هتنفجرايه حرام؟!

وقالت ريم كجرو مذعور:

– براحتك يا ماما صدعي براحتك.

وأمها تشعر بأن هناك كلاب مسعورة تتقاذف أمام عينيها؛ سألتها:

– هو إنتي كنتي رفضتي نادرليه؟

– مكنش فيه قبول.

تقدمت برأسها للأمام وعيناها تراقب ملامحها:

– مكنش فيه إيه سمعيني ثاني!

ستبكي، حتمًا ستبكي، الدموع متجمعة بعينيها، ولكن حتى هذا

مرتعدة من فعله، ولسانها يسب في صمت صاحب النصيب الذي بسبب تأخير تركها تحيا كل هذا العذاب.

– كل شيء قسمة ونصيب.

استعازت أمها بالله من الشيطان الرجيم وبدأت تتحدث ببعض الهدوء.

– ماشي، بس يا ريت نتعلم من غلطاتنا.

وانتظرت حتى أومأت برأسها ثم سألتها:

– هومين اللي كان مع محسن ده؟

قالت سريعاً:

– ده زميلها في الشغل.

شردت للحظة والحقيقة أن اليوم مهجة كانت تشعل رأسها أكثر من نادر الذي أضاعته ابنتها بلحظة غياب.

فمهجة اليوم كانت خاطفة للأنظار أكثر من ابنتها، هي تتمنى لها الخير بكل تأكيد، ولكن ابنتها أولى.

وبلحظة حاسمة قررت:

– من بكرة لازم تنزلي تشتغلي وتشوفي ناس جديدة.

الفصل الثاني

(حاسس بمصيبة جايلي، يا لطيف يا لطيف)

مر شهران تقريبًا على شروعها بالبحث عن وظيفة ولكن دون فائدة؛ فهي خريجة كلية الآداب قسم الفلسفة، وكما يقولون «الفلسفة مبتأكلش عيش» فماذا هي بفاعلة!

والوظيفة جاءت عن طريق أمها، تلك السيدة اللولبية وحلالة المشاكل؛ فلقد علمت مصادفة أن أحد الأقارب أصبح يعمل «HR» لدى شركة توزيع أدوية شهيرة؛ فقامت باستغلال سلطاتها، بل وأقنعتة أنه قد وُلد على يديها وعليه أن يرد الجميل وإلا سيصبح عاقًا لها، وقد فعل والمقابلة غدًا!

وإن كانت صورية كما أخبرها «أونكل بهاء» قريبها البعيد، ولكن القلق من التغيير هو صفة واقعية لبني آدم لا يمكن الحياد عنها، فقط التظاهر بعكس ذلك.

وفي الصباح استيقظت باكراً للغاية، تستعد لمقابلة العمل، وقد قررت مسبقاً أنها لن ترتدي زيّاً رسمياً لا يشبهها، ارتدت أجدد طقم ملابس لديها وكان عبارة عن كنزة «أوف وايت» على سروال من الجينز و «الكوتشي البينك» الذي تجمعهما قصة حب وتفاهم بينما شفتيها تبتهل:

– استريا رب.

وعند خروجها من المنزل فوجئت بقطعة أخيها أمام باب شقتهم، ولم تكن وحيدة كان معها «ميشو» قط الجيران الجديد!
– كنتي بايئة فين طول الليل؟! أه يا سهلة يا سافلة يا رخيصة.

وأردفت بعدما أشارت لها بالدخول:

– اتفضلي ادخلي.

و «ريكا» لم تقبل التحرك، بل ظلت منتظرة حتى دخل هو للشقة قبلها، والغريب أنها شعرت بأنها تتصرف بخجل وكأنها إنسانة، بل تشعر! وحينها رأت صورة حية من أمها النائمة بغرفتها تتجسد أمامها وتخبرها بلوم:

– شوفتي حتى القطة عندها بوي فريند و إنتي لسه يا ريم.

وصلت متأخرة قليلاً؛ بسبب بعد المسافة ففي البداية استقلت «التوكتوك» وبعدها المترو.

ولكن لا يهم، عشر دقائق لن يتوقف عليها الكون.

اتجهت مباشرة نحو موظفة الاستقبال وأخبرتها:

– عندي انترفيو الساعة عشرة.

والسكرتيرة المشغولة قليلة الكلام أعطتها عدة أوراق ملأهم هي، وانتظرت عدة دقائق حتى قامت بالمناداة عليها، ثم ذهبت خلفها نحو غرفة صاحب المقابلة والذي كان يدعو «أ. سيف الدين عمران» مدير المشتريات كما قرأت على اللافتة الصغيرة الذهبية المثبتة على باب غرفته.

– مساء الخير.

وقال مصححاً لها دون أن ينظر نحوها:

– صباح يا أستاذة، صباح الخير.

بينما يديه الأخرى كانت ممسكة بهاتف المكتب الأرضي ويبدو أنه كان مستمعاً؛ فلم تخرج من شفثيه أي كلمة مجيبة حتى الآن.

أما عن عينيه فهي كانت تتأمل سيرتها الذاتية، وبقلمه يصنع دوائر فارغة حول عدة كلمات لم تفهم هي بعد ما المقصود منها.

تعجبت!

كيف لشخص ما أن ينجح بالتركيز بأكثر من شيء بنفس الوقت!
ألم يقولوا أن «صاحب بالين كداب؟!»

وهو يتصفح أوراقها ويتحدث بالهاتف، ويصحح لها كلمات نطقها بنفس ذات الوقت، بينما هي إن قامت أثناء فقرة الطهي بغسيل الأطباق لا بد وأن يحترق أو ينسكب.

وبعدها تساءلت هل من الممكن يومًا أن يحولها العمل لآلة كهذا الرجل؟
رجل؟!!

ربما أدركت للتو أنها تجلس وحيدة مع رجل بغرفة مغلقة!
رجل خمري البشرة وصاحب عيون بنية داكنة للغاية حتى وكأنها تبدو أقرب للسواد، مبالغ بأناقته بحلته السوداء بهذا القميص الأبيض ذي الياقة المثنية بشياكة ورابطة العنق البنفسجية وصاحب الساعة «الأورجينال» والحذاء اللامع.

وطردت من رأسها كل تلك الأفكار ورددت في نفسها.
«ده شغل يا ريم، اتعودي».

وكان هذا صوت الضمير والتربية والأخلاق.
انتهت أنه قد أنهى مكالمته أخيرًا لتبدأ معدتها بالتقلص!
سألها بعدما قلب أوراقها دفعة واحدة وأشار لها بهم:
— إيه ده؟!!

ما هذا المجنون؟! بالتأكيد ليسوا قراطيس طَعْمِيَّةُ.

– إنتي جاية تقدمي على وظيفة إيه؟!

وحينها لا إرادياً تذكرت المسرحية الشهيرة.

«إنتي جاية تشتغلي إيه، سواقه».

ولكن المزاح غير مقبول في تلك اللحظة؛ فنظرته غير المفهوم سبب ضيقها منها كافية لجعل أسنانها تصطك عازفة سيمفونية خوف ورهبة.

قالت بعد فترة لملمت فيها نفسها، ولكنها لم تنجح بالتحكم في ارتعاش صوتها:

– أنا ممكن اشتغل أي حاجة حضرتك.

وهز رأسه بتعجب نافٍ، ولسانه يتحدث إليها بينما يديه تلتقط ملف بجانبه:

– تفتكري الفلسفة ممكن تشغلك إيه عندنا؟! وحتى مفيش أي خبرة.

وأكمل زاعقاً بسكرتيرة الشركة والتي حضرت بعدما استمعت لجرس الإنذار:

– إيه يا إيناس هو مش المفروض سيادتك بتتابعي السيفيات قبل ما تدخلها!

وقالت مبررة:

– مسترهباء بيحاول يكلم حضرتك وإنت مش بترد وهي يعني...

قاطعها بعد أن نظر لهاتفه وقد قرر أنه لن يجيب:

– روعي إنتي شوفي شغلك.

وأردف بعدما تحدث معها بكامل تركيزه وأخيراً:

– شوفي يا آنسة، من غير حساسيات أو إحراج أو محسوبيات، أنا

التيم اللي بيشتغل معايا لازم يكون مميزودي حاجة أنا مش هتنازل عنها عشان أرضي أي حد حتى لو كان أبويا.

وأضاف بعدما أعاد أوراقها إليها بابتسامة سمجة مغتازة من تلك التي تريد العمل مع سيف الدين عمران عن طريق الوساطة!

– ال cv بتاعك في المكان ده في رأيي ممكن يؤهلك للنضافة متزعليش مني ولو أستاذ بهاء شايف حاجة ثانية براحته بس بعيد عني.

وقح!

أقل وصف تملكه لهذا الأرعن وبعده الكثير من السباب، من يظن نفسه حتى يتحدث معها بتلك الطريقة الجارحة؟!

صرخت به وكانت صرختها رد إهانة:

– بس ده ظلم.

نظر لها من خلف أوراقه مستفهمًا فأردفت:

– حضرتك حكمت عليا بسبب واسطة ببساطة لولاها مكنتش هكون قدامك دلوقت بعد ما جربت الطرق التقليدية، وماشي ده حقك، بس إنك تتعامل معايا على إني متأخرة عقليًا وكإني مش هنجح من غير واسطة وتعتبره أمرو وقع ده منتهى الإجحاف الصراحة.

ظلم وإجحاف الاثنين بجملته واحدة!

لا داعي للتصفيق برفاو ريم.

كانت سترحل حاملة أوراقها ولكنه استوقفها أمرًا:

– استني.

وكانت لهجته لا تعجبها ولكنها مررتها بمبدأ

«لو كان ليك عند... حاجة قوله يا سيدي».

– معاكي شهرين تحت التدريب، هنشوف هتقدري تستحملي الشغل معايا كام يوم.

ابتسمت بسعادة فسألته:

– يعني أفهم من كده إني...

قاطعها وضيقة منها لم يتغير:

– خدي بالك لإن حتى مسئولين النضافة في الشركة عندهم CV مُشرف عن كده. وكانت كلمته الأخيرة قبل أن يخرج هو تاركًا إياها وحيدة بالمكتب:

– واعملي حسابك مفيش مرواح من النهارده إلا في مواعيد الشغل يا آنسة...

وأكملت له بخفوت:

– ريم.

وملامحها تحمل شعار «أنا اللي جبت ده كله لنفسى».

بعد ساعة من العمل أتنه طالبة الإذن!

تعجب!

المدللة التي أخبرته عن ظلمه لها منذ قليل لم تتحمل ساعة عمل! هل أخبرها السيد بهاء قريبها أنها بإمكانها التصرف كيفما تشاء وكأنها «تكية المرحوم»!

سألها بعدما ثبت نظراته نحوها:

– إذًا، من أول ساعة!

وهي اقتربت منه بخجل وقالت:

– أنا محرجة من حضرتك والله بس ماما اتصلت وعاوزاني

ضروري، حصل ظرف طارئ.

وهو استوقفته الكلمة فكررها بسخرية:

– ماما؟!!

وأكمل وما زال التهمك واضحًا:

– طب أنا بقول خليكي مع ماما علطول.

وكانت ستستمع لنصيحته وترحل غاضبة، ولكنها توقفت عندما أدركت أن تركها العمل لن يؤثر في هذا الصفيق بالتأكيد، وسيؤكد ظنه بها كونها «فتاة واسطة».

– زي ما حضرتك تشوف.

عقد حاجبيه وعاد للنظر لحاسوبه فعادة «المجانين بنعيم» وهو لديه ما هو أهم منها.

وبعد ساعة أخرى أتته، ولكن تلك المرة باكية وغاضبة:

– عمتوماتت خلاص ارتاحت.

وتلك المرة تركته ورحلت دون انتظار الإذن.

عادت من العمل واستوقفها الروائح التي طلت عليها من المطبخ مع صوت أم كلثوم الخارج من المذياع، تحركت ببطء كي تراقب ما يحدث وأذهلها الوضع، أمها تشرع بكل المأكولات التي تعشقها وبمزاج رائق؛ حتى البييتزا والتشيز كيك لم تنسهم.

سألها بتعجب وشك:

– هو فيه إيه يا ماما النهارده هاه! بيتزا وكمان أم كلثوم!

ردت أمها بحنو غريب عجيب مريب:

– أصلك لما بترجعي من الشغل يا روحي بتبقى روحك في مناخيرك

فقلت اعملك الأكل اللي بتحببه.

وأردفت:

– كمان النهارده اختك وجوزها هيتغدوا معنا ويقضوا اليوم.

واستجوبتها مهجة بعد أن «اتكت ع السين»:

– أختي وجوزها وبس.

واعترفت أمها لها بعدما علمت أنه لا مناص:

– وصاحب نادر ومامته.

استنكرت قائلة وكأنها تهذي:

– صاحبه! وصاحبه هيحي ليه هو احنا بيتنا بقا تكية وبعدين

يعني مش كفاية عليا إني مستحمله سي نادر ده كمان هيجيلنا

صحابه!

قالت أمها بنفاد صبر:

– مهجة إنتي هتستبيلي! بصي من غير ما اتعصب، هتروحي زي

الشاطرة تجهزي هتلبسي إيه بليل ويا ريت بلاش بنظلون الصيادين

العجيب بتاعك ده، البسي فستان وخليكي بنوتة النهارده بس.

تقمصت مهجة دور «اللمبي» والحقيقة كانت تسخر:

– حاضريا مامي.

ورحلت من أمامها وفي نيتها أن تتقمص دور بطلة فيلم سهرة

البارحة «Gone girl» وتنتقم من هذا النادر.

«ماشى يا نادر وربنا لأورك».

وبعد ساعة وبمجرد أن شرعوا بتناول الطعام تحدث نادر وكأنهم

بصدد اجتماع رئاسي! كم يعشق الصعود على خشبة المسرح هذا

الرجل!

– أنا ومنال عندنا خير حلو.

نظرت مهجة إلى وجنتي منال اللاتي تلونا بالأحمر؛ ففهمت من قبل حتى أن يكمل حديثه.

– منال حامل في الشهر الثاني.

اتجهت الأم والأخت لمنال كي يحتضنوها بفرحة، ومعروفة أن فرحة الطفل الأول بالعائلة مختلفة.

استمعت لنادر يقول بتباهٍ:

– الدكتوراة بتقول الحمل حصل تقريبًا ليلة الفرح.

لكزته منال باستنكار:

– نادر!

بينما مهجة قالت للمتباهِ بقدراته بينما تجز على أسنانها:

– مبروك.

وتهضت من الطاولة ولكنها استمعت لمنال تخبره بهمس غاضب:

– أخرجت البنت.

– يا ستي ما هي مسيرها تتجوز.

فأجابته مهجة داخلها:

– تتجوزك عقربة يا بعيد.

وأغلقت عليها غرفتها متحججة بكونها عروس تستعد، بينما هي كانت تشاهد فيلمها الشرير للمرة الثانية باستمتاع.

وفي المساء والسهرة قررت أن تكون فتاة جيدة مطيعة، ارتدت ثوبًا أسود اللون من الشيفون، والدانتيل وصل لبعد الركبة بمسافة جيدة وتحتة جوارب سوداء شفافة، وتركت شعرها القصير كما هو فقط

ثبتت مقدمته بربطة رأس سوداء أيضاً هذا بالطبع غير حذائها الأسود.

– مالك مسوداها كده ليه؟

وأخبرتها مهجة بعصبية:

– أهوده اللي عندي وإلا والله...

أشارت لها أمها بكلتا يديها؛ كي تخمد ثورتها الكامنة حتى الآن:

– حلو جميل قمر، أصلاً الأسود هياكل منك حته ربنا يهديكي.

وأضافت بابتسامة:

– هروح أجهز صينية الكيك والحاجة الساقعة.

ففي مؤكداً لن تطلب منها كأي عروس بأن تخرج هي بالصينية وتقدم الكؤوس للضيوف بخجل؛ فابنتها ليست فتاة طبيعية على الإطلاق وهي تعلم و«ربنا يعدي اليوم على خير».

وخرجت مستسلمة أو تظاهرت بذلك، وكالعادة بتلك المواقف أخذت «أم العريس» «أم العروسة» بمكان آخر كي تخبرها بعض الأسرار حتى ينفرد العروسين بوقت مستقطع ومستحق بين الشوطين.

– عاملة إيه؟

قطع صمت الصالون، واقترب من المقعد المجاور للأريكة التي كانت جالسة هي عليها؛ ليتفوه بهذا السؤال العبقري!
ولوت شفيتها، وكانت ستخبره بأنها «عاملة جمعية» ولكن اكتفت بابتسامة مرببة تجاهلها هو.

– ماما قالت عليكي وبصراحة أما شوفتك في فرح نادر مستحملتش و...

قاطعته غاضبة:

– افندم!

وأكملت بشبه أمر:

– يا ريت تنقي ألفاظك شوية لو سمحت.

ارتبك من هجومها وأخذ يفكر ما الذي قاله كي يزعجها لهذا الحد، ولكنه اعتذر، والرقيقات ناعمات الملامح أمثالها يستحقن الاعتذار ولو كان دون وجه حق.

– أنا مقصدتش حاجة.

اللعنة، هو يسير نحو حتفه مؤكداً حتى يفتح حديثه معها باسم «نادر» والحقيقة أنه لا داعي للحديث من البداية؛ فبرأيها كونه من طرف نادر هذا كافٍ لرفضه حتى من قبل رؤيته.

– إنت اسمك إيه؟

هي تدير الحديث وهذا لا يعجبه، بل وشعر أن هناك سخرية تختفي خلف قناعها المتباسم، ولكنه يريد لها وسيفعل أي شيء كي يتزوجها، وبعدها يستمتع بمعاقبها على كل هذا الدلال.

بنظرة تحمل معنى «صبرك عليا يا حلوة» أجابها:

– حسام.

ونطقها بهدوء يوازي نظراته التي كانت تراقب تصرفاتها.

ولكن عفواً يا عزيزي العرض سيبدأ للتو.

التقطت مطواة كانت خافية إياها خلف جواربها، وفتحتها بحركة مباغتة، ثم كانت وكأنها تقوم ببرد أظافرها بها!

رأت الخوف والصدمة في عينه فقالت له بطلب أو أمر لا فارق في الواقع:

– قبل أي حاجة لازم نتفق على شوية حاجات.

وأردفت:

— أنا بحب أخذ وضعي في البيت...

— بمعنى؟!

— يعني مثلاً أرجع من الشغل ألاقي الأكل جاهز وسخن، لازم سخن لو برد مكلوش.

وأضافت والنبرة كانت بقمة الاستمتاع:

— وكوباية الشاي تجيني لحد الأوضة بعد الأكل علطول.

وكانه هناك إضافة بعد ما قالته، ولكنها أردفت:

— وبعدين بنام ساعتين العصرية ومحبش أي حد يزعجني مهما كان.

وهو سألها بنبرة مترددة بين الخوف والغضب:

— هو مين الراجل ومين الست!

حركت رأسها بمعنى «لا أعلم» وضمت شفيتها لتناسب التعبير.

— والله أنا عارفة كويس إني ست.

وكانت تلك القشة التي قصمت «ظهر الحمار» فلقد نهض بعصبية وأخذ أمه بيده بينما هي هربت راكضة نحو غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح، وحمدًا لله أنها قد لحقت وأنقذت حياتها من موت محقق على يد أمها.

الفصل الثالث

(في بيتنا خناقة...)

انتهيت لصوت رنين هاتفها ولم تجب؛ فالرقم مجهول والغرض من المكالمة معروف وسهل تخمينه. كلمات مواسية وواجب عزاء! حالتها مزرية، وعيونها باكية حتى إنها قذفت مديرها بكلمات لائمة لا تدرك مدى عواقبها ورحلت.

حسنًا هي كانت في الطفولة تعتبرها الساحرة الشريرة خاصتها؛ بسبب بخلها الزائد عن الحد المقبول، وحتى إنها كانت لا تنام عندما تبيت لديهم بغرفتها سوى على التلفاز، وكأنها «دراكولا» التي ستمتص دماءها في الظلام، وعندما تستيقظ كانت العمة تنهها.

«بتناموا على التليفزيون يا ولاد إحسان، مش حرام الدلع والتبذير ده، الله يرحم جدك مات وهو نفسه يدوق العيش الفينو».

وهي كانت تجيبها بصوت خفيض بالكاد يسمع:

– سيبي جدو في حاله.

ولكنها بالنهاية تشاركها اللقب والدماء؛ فهي أخت أبيها الصغرى، وبالكاد أتمت الأربعين ربيعًا الشهر الماضي، ما زالت شابة، تركت خلفها طفلين بعمر التاسعة والسابعة، ومع الأسف يتيمان ليصبحا الآن دون أم أيضًا!

مسحت دموعها مفكرة بوضع أبيها؛ فهي يجب أن تكن قوية لأجله؛ فعمتها «حنان» هي شقيقته الوحيدة المتبقية على قيد الحياة بعد وفاة عمها منذ عامين، والجد والجددة قد رحلا عن حياتها منذ طفولتها.

حمدت ربها أن المستشفى القابعة به عمها المرحومة قريب من مكان عملها؛ فلم يتخط الأمر عشر دقائق بسيارة الأجرة حتى كانت

بجوار أبيها المكوم وأبناء عمتها اليتامى «حسن وحسين».

احتضنت أبيها متمتمة بدعوات الصبر والسلوان، ثم تأملت حال الطفلين غير المدركين لأي شيء مما يحدث حولهما، بينما عيونهما كانت حائرة؛ تستفسر، تخاف وتشرد، وبعدها تسأل عن أمانهما برؤية أمهما. وحمدًا لله أمها قد أنهت وصلة العذاب بعد خمس دقائق فقط بقرار الرحيل مع جارة العمه للمنزل ومعها الطفلان؛ رافة بحالهما، وكي تبدأ بالتجهيز لاستقبال العزاء.

وجدت أبيها يخبرها بدهول واضح:

– كانت كويسة، كنت لسه عندها امبارح، عيالها نادوا الجيران أما وقعت وجابوها هنا، كلموني وجيت جري بس مع الأسف ملحقتش، اتأخرت عليها.

ذهبت هي لتحضن أبيها، وبعدها ربت هو على كتفها متفوهًا:

– أنا هروح أخلص الإجراءات عشان نلحق ندفنها في نور ربنا، خليكي معاها لحد ما أجي.

أمسكت بيديه بمؤازرة، وعيناها تؤكد أنها «قد الحمل» و «سبع رجالة في بعض»، ولكن بمجرد رحيله أدركت فداحة الكارثة!

هي وجثة عمته بغرفة طوارئ بمشفى غريب الأطوار، خالٍ تقريبًا من المرضى، ويقولون إنها مشفى تخصصي!

دخلت لغرفة الطوارئ وفوجئت أنهم لم يقوموا بتغطية وجهها بعد؛ فنزعت ملاءة من سرير جانبي وتكفلت هي بالمهمة بأصابع مرتجفة بالطبع ولسانها يردد:

– بقى دي مستشفى خاص، حتى في دي قررتي توفري يا عمتو.

وجلست مقابلها لعدة دقائق كانت هي ترتل خلالهما الآيات القرآنية، ثم فجأة اخترق صمت المكان شهقة، كانت واحدة ولم تتكرر.

تعجبت ورفضت رأسها وطردت الأفكار الشريرة، ولكن وكأنها الآن تتوهم بأن يد عمتها قد تحركت من مكانها!

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

كان هذا من لفظته من فمها قبل أن تتحرك بحذر نحو الجثة، رفعت الملاءة مهدوء انقلب بلحظة عندما أمسكت الأخيرة بيديها بقوة بينما كانت تلفظ اسمها.

– ريم.

وبالطبع كانت تود الصراخ، ولكن صوتها انحسر، بكت، شهقت بحدة وانتفض جسدها، ولا تعلم لم شعرت بأنها بمنزلها وقد انقطعت الكهرباء، والآن تعيش هي قصة رعب من تأليف عقلها الباطن بالرغم من أنهم بمنتصف النهار تقريبًا.

قالت بخفوت:

– عمومتاؤنيش أنا بحبك والله إنني متعرفيش.

وما زالت تتحدث، وكانت تكذب، ولكن بتلك اللحظات لن يلومها أحد:

– ماما كمان بتحبك قوي.

وتجاهلت ما سبق، وقررت أن تستخدم آخر قارب نجاة:

– طب سيبك مني أنا وماما، عشان خاطر بابا هومش هيستحمل أنه يجريالي حاجة.

ثم وضعت يديها على أذنيها كرد فعل طبيعي لحماية نفسها من خطر لا تعلم حدوده، ولم تخرج من حالة ذهولها إلا على صوتها الذي لفظ ببطء وبحلق جاف:

– نادي حد يلحقني، عاوزاني أموت يا بنت هناء عشان تورثوني. وبتلك اللحظة توقفت دموعها لتتقمص دور عبلة كامل وجملتها

الشهيرة.

«يخربيتك إنتي مموتيش؟!»

وركضت بعدها للخارج باحثة عن أي شخص بتلك «المخروبة» التي لاحظت خلوها من الممرضات والأطباء؛ فقد كان هناك اثنان من المرضى بصالة الاستقبال يبحثان عن طاقم المشفى، وقررت تعقبهما حتى وصلت لطبيب نائم في غرفته وبجانبه بقايا بيتزا مدمرة.

أيقظته وجرته خلفها الطوارئ، وفوجئت بأن عمته عادت إلى سباتها من جديد!

– كانت فايقة من شوية والله.

وكانت تبرر ونظراته لها توجي بفقدان عقلها وعيناه تخبرها «ربنا يصبرك» وهي أرادت أن تقسم له أنها تحدثت معها ولكنها لم تلحق؛ فقدت الوعي.

في بيتنا «خناقة».

والموضوع بدأ بعودته من الخارج باكراً على غير العادة لينقطع تجمع الأسرة الكريمة حول المسلسل العالمي «سلسال الدم» ذلك المسلسل الذي لا ينتهي ولا يفنى، بل يستحدث من عدم، ليبدأ مسلسل من نوع آخر تنفيذ وإخراج الست «الحاجة»، أمه العزيزة،

وبمجرد أن دلف للمنزل ولمح تجمعهم العائلي حول التلفاز أخبرهم بابتسامة ودودة:

– مساء الخير!

تقدمت نحوه «توتة» أو بسنت شقيقته الصغيرة ذات السبع السنوات والنظارة الطبية ذات الرباط البرتقالي، والسنة المكسورة التي تسببت بتدمير مخارج الحروف خاصة مع نطق اسمه:

– إيه اللي جابك بدري بث (بس) يا أبيه ثيف (سيف)؟
وهو حملها وسألها بهمس بعدما قربها من أذنيه، وكانت عيناه
تراقب ملامح أمه التي لم تعجبه بالمرّة:

– حصل إيه يا رويتر؟

وهي حصلت على لقب «رويتر» المنزل ليس بسبب ملامحها التي
كانت تشبه فتاة فيلم الحفيد، ولا لأنها كونها الأخت رقم سبعة لسيف،
وتفاصيل منزلهم شبيهة بمنزل حسين أو «عبد المنعم مدبولي بالفيلم»،
ولكن لأنها ناقلة أخبار درجة أولى، ولا تفوتها فائتة بالمنزل، بل ولديها
أخبار حصريّة لا تفصح عنها إلا بعد أن تقبض ثمن ذلك.

– يوووووه ده حثل (حصل) بلاوي، حاول تهرب يا معلم.

وهو كررها بعدما أنزلها من فوق ذراعه ليوقفها على الأرضية:

– معلم! فيه بنت ناس محترمين تقول لأبيه بتاعها يا معلم!

ولوت هي شفقتها بمعنى «لقد حذرتك» وفعلت الأصول والواجب،
ومع ذلك لم يتجاهل كلماتها؛ فتلك العفريته الصغيرة لا تقول أي شيء
بلا معنى وهذا معروف عنها.

تحرك بخفة نحو غرفته، ولكن لم يلحق؛ نادته أمه بعدما قامت
بخفض صوت التلفاز.

– أنا وبابا عاوزينك يا سيف.

وقال الأب مستنكرًا:

– هي اللي عاوزاك.

وأردف بعدما نظر لها:

– متدخلنيش بينك وبين ابنك.

ونظرت هي له نظرة لائمة وهو كان ضائعًا بين تلك النظرات

ليسألها بالنهاية:

– هو حصل إيه مش فاهم؟

وتدخلت الرويتر:

– أصل صحبتك (ثحبتك) ياثمين (ياسمين) الفرعة جت تألت
(سألت) عليك و...

وزعقت بها أمها:

– إنتي يا بنت مش قولتلك مليون مرة متدخليش في كلام الكبار،
خشي جوة مسمعش صوتك.

وأشارت لباقي القطيع:

– خشوا ناموا إنتو كمان وراكم صحيان بدري.

وقالت شقيقته الوسطى ميادة «الثانوية العامة» مستغلية فرصة
انشغال أمها بقصة أخيها وهكذا لن تجادلها:

– أنا ورايا مذاكرة ومش هغسل المواعين، حد غيري يغسلها.

وركض البقية بتهرب واضح وادعاء الرغبة بالنوم بالرغم من أن
الساعة كانت التاسعة مساءً تقريبًا، والسهرة لا تحلو سوى مع «الفيس
بوك» والإنترنت، ولو كانت بظروف مختلفة كانت زعقت بهم وبدأت
الأسطوانة المعروفة.

«عندي سبع بنات وبقف على رجلي طول اليوم، أه ياني يا حظي».

ولكنها تجاهلت حتى تنفرد بابنها «البكري».

غادروا الصالون جميعًا عدا تلك الصغيرة التي لن تتخلى عن عاداتها
بمراقبة الحديث الدائر عن بُعد ومن خلف الحائط

– خير يا ست الكل.

وقالها بابتسامة وحنو وطريقة متقنة يحاول بها امتصاص غضبها
الذي لا يعلم حدوده بعد:

– عندي ليك عروسة إنما إيه أدب و...
والتتمة معروفة. أشار لها بيديه، وابتسامة أحمد حلي الشهيرة
بفيلم «ألف مبروك».

– أيوة أيوة هو ده.

اقتربت منه ولكزته بذراعه بعنف:

– بطل هزار أنا بتكلم بجد.

أخبرها ببرود:

– وأنا مش هتجوز دلوقت.

نهضت وقالت بعنف بعدما جرت على أسنانها:

– ليه مش عاوز تتجوز! شقتك موجودة من وانت عندك عشر
سنين وما شاء الله بتشتغل وليك مركزك في شركتك ومعاك عربية،
قولي ناقصك إيه فهمني!

واستكملت عندما وجدته لا يجيب وكان عدم رضائه عن كلامها
واضحًا:

– إنت عندك 28 سنة يا سيف، اللي زيك عندهم قرطة عيال.

ضحك ثم قام بدغدغتها مازحًا:

– إيه يا هدهد، قرطة عيال إيه بس هو الشباب لاقى يتجوز، ده
شوية وهيمدوا فترة المراهقة لحد 35.

نهزته بغیظ:

– إنت يا واد بطل شغل الملاوعة ده، ربح قلبي يابني عاوزة أشوف
أحفادي قبل ما أموت.

واقترب منها سيف ليجاورها، بينما حاوط ذراعها بكفيه:

– بعد الشر عليكي يا ست الكل، إهي إيمان قربت تتجوز وبكرة

تشوفي ولي العهد.

وقالت له بعيون دامعة:

– بس أنا عاوزه افرح بيك، إنت البكري وأول فرحة ياواد.
ونظرت لزوجها مطالبة إياه بالتدخل، ولكن هيمات؛ الأخير كان
بعالم آخر يتابع برنامجه الكروي في صمت.

«اللهم طولك يا روح».

هذا ما قالت له لنفسها وبعدها تهتدت وكان هو يتساءل:

– أنا مش فاهم هو حصل إيه جديد النهارده! حلمتي بيا بليل
وقررتي تلبي النداء، ولا ده احتفال بياني رجعت بدري شوية؟!
وكان لا يفهم حقًا، ولا يعلم ماذا يحدث، ولكن الإجابة عند توتة،
وسينالها منها بعد أن تنتهي فقرة التحقيق.

أخبرها:

– حاضر، بس أما أجوز اخواتي البنات الأول واطمن عليهم.

نهضت أمه بغضب وقالت له:

– هتستني السبع بنات يا سيف! ودول على ما تجوزهم بقا تكون
طلعت ع المعاش!

وأردفت بحنق:

– كده يا سيف بتتريق على أمك.

وأخبرته قبل أن ترحل:

– روح حضر العشا لنفسك، أنا مش هعملك حاجة.

ناداها:

– ليه بس كده، طب حتة بيضة، سندوتش جبنة، يا دودواستي
بس أنا جعان يخربيت اللي يزعلك.

وصفقت الباب خلفها غير مبالياً لها. نظر لأبيه مستفهماً عن سبب
عصبيتها، فأخبره بحكمة أبوية:

– ريجها يا سيف، أعصابها تعبانة من البيت ومشاكل البنات
ودراستهم وكل حاجة فوق دماغها.

قال سيف بعد أن أغلق التلفاز:

– ما تروح تصالحها يا حاج طيب عشان متنامش زعلانة.

غمز له بعينه ثم تحرك بعد أن وضع المنشفة على كتفه:

– ماشي يا عم الحنين.

ثم اقترب سيف ليمس بالقرب منه:

– بقولك يا حاج، لو محتاج حبة زرقا حمرا قول ماتتكسفش
إنت عارف أنا اللي بوردهم للشباب.

ضربه أبوه على ظهره ناهراً إياه:

– بس يا واد يا قليل الأدب، الحاجات دي تديها للشباب الغلبان
اللي زيك.

وضحك وكانت ضحكته من قلبه.

– ماشي يا وحش.

وكان أبوه قد اقترب من غرفة نومه، فقال له سيف محذراً قبل أن
يدلف إليها:

– بقولك يا حاج بلاش تصالحها قوى، كفاية الكتيبة اللي جوة.

وما كان من أبيه إلا أن قام بقذفه بالحُف، وتفادها هو بمهارة قبل
أن يرحل لغرفته.

– أبيه «ثيف»، أبيه «ثيف» أنا عبات (هبات) معاك.

كان حينها يشرع في تغيير ملابسها والتفت نحوها، ووجدتها قد احتلت سريرته بالفعل.

سألها مُقلداً إياها:

– وعتباتي معايا ليه إن شاء الله؟

وارتدى سرواله وجلس مقابلها فمناحته ساندويتشاً:

– عملتلك ثاندويتش (ساندويتش) جبنة أهو على الله يطمر.

تناوله منها وشرع بقضمه، بينما يخبرها بامتنان:

– والله يا توتة إنتي أحسن واحدة في البيت كله.

وأردف بعدما قام برفع أحد حاجبيه:

– بس برده مش هتباتي معايا.

– يا ثيف.

ونطقها بتوسل بعدما كانت قد نامت بالفعل على وسادته، وبعدها

تبدل الدلال لخوف:

– إنت هتتجوز وتثيبي (تسيبي)؟

وجاورها هو بالفراش بعدما أضاء شاشة هاتفه فنزعت منه بحنق

ووضعت يديها بخصرها:

– مش بتكلم معاك أنا!

– هو إنتي مراتي، إيه الجوده؟

بعثر شعرها وكان يردد:

– متخافيش يا توتة لو اتجوزت هاخذك معايا، أنا هكتبك في

القايمة أساساً.

ضحكت الصغيرة بطريقة أشعلت السعادة بصدره وبعدها ضمها.

تلك الفتاة ليست شقيقته فحسب، بل هي ابنته الروحية منذ أن كان

أول من حملها ليلة ميلادها، وهي رغماً عن شقاوتها إلا أنها تلتصق به كظله، ولا تجد الأمان سوى بوجوده.

بمنتصف الليالي تسلل إلى غرفته متحججة بالزحام بغرفتي أختها، ولكنها بالحقيقة لا تنام هانئة ومرتاحة إلا بعد أن يضمها بحنانه معها المعتاد. سألتها:

– قوليلي بقا يا توتة حصل إيه النهارده الصبح؟

نهضت من بين أحضانه بحماس:

– ثحيت (صحيت) الثبح(الصبح) لقيت ثحبتك(صحبتك) يا ثمين (ياسمين) الفرعة على الباب وكانت زي ما تكون معيطة وبتثأل (وبتسأل) عنك.

وأردفت:

– إنت اتغرغرت بيها ولا إيه؟

نظر لها مطولاً بعدها سألتها:

– اتغرغرت، فيه طفلة تقول اتغرغرت، كملي يا رويتر وبعدين.

مدت له يدها:

– ببلاش كده!

– ابقى ضيفيم على الحساب وانجزي.

قالت بعدما أغمضت عينها بطفولية وسبحان الله أنها أحياناً تكون طفلة بريئة طبيعية:

– وبعدين ماما قالت لبابا يا خوفي ياخذ المثلوعة (المسلوعة) دي ويتأفر (يسافر) معاها وقالتله إنها مش هتظمن إلا لما تجوزك واحدة هي تعرفها وتحت كوعها.

سخر منها:

– كوعها! إنتي متأكدة إنها قالت كده؟

نطقت بعدما فكرت لهنيمة:

– مش فاكرة يا ثيف.

– طب طمنمها وقوليلها إني مش هسافر معاها ولا مع غيرها، بس

مش هوصيكي قولمها بطريقتك كإنك قررتيني و أنا اعترفت وكده.

غمزت له بعينها:

– متخافش هظبطها لك.

وشرد بالعام الماضي واختنق صدره، باليوم الذي ضحى بفرصة عمره خوفاً على أمه، حينها لم يودع طموحه وأحلامه بتلك الليلة، بل ودع نفسه، والآن بات كطير حبيس قفص رتيب مدى الحياة. لا حرية، لا طموح، لا نجاح. فقط جسد يتعايش، وروح تتناسى، ووقت يمر تحت مقصلة الزحام والعمل، ولكن في النهاية ومهما فعل لا ينسى أنه بليلة باردة قد فقد نفسه كي يكسب رضاها، وهذا يكفيه بالوقت الحالي. ظل يتقلب في الفراش متأففاً من تلك الصغيرة التي التصقت به، وبالنهاية احتضنها وغفا معها.

الفصل الرابع

(كدبة سبتمبر)

طرقت الباب وملامحها تناقض ما تقوله بداخلها من كلمات تخص شجاعة وهمية لا وجود لها على أرض الواقع؛ فالكلمات دون أفعال حروف فارغة هشة سهلة المحو، مهمشة كالكلمات المخطوطة بالقلم الرصاص.

– أنا آسفة على الغياب حضرتك، بجد غصب عني و...

وقالتها برأس منكس وباستعطاف بالغ، كيف تفسر له اندفاعها ورحيلها دون إذن في الساعة الأولى لها بالعمل لتفاجأ بعدها أن عمته حية، وما أصابها كان مجرد غيبوبة سكر أساء الطبيب المهمل تشخيصها، مؤكداً لن يصدقها وسيظن أنها اختلفت تلك القصة تهريراً من العمل، يالله، ستبكي أمامه خوفاً وإحراجاً، وما شاء الله عنه يبدو أمامها كلوح الثلج لم يتأثر باعتذارها، بل وينظر نحوها بثبات، وكأنه يخبرها بأن كلامها لا يروق له وليس على هواه. رباه إنها تظلم قطعة الثلج بهذا التشبيه فحتى الثلج يذوب احتراماً لحضرة الشمس، ولكن هذا الرجل «أعوذ بالله؛ عديم القلب والإحساس والإنسانية والكل كليفة» وتعلم أنه لن يهدأ سوى بعدما يقوم بطردها ويتخلص منها؛ حتى يُثبت نظريته فيها كونها فتاة عديمة المسؤولية. انتهت فترة الصمت، وتبدلت نظرته لأخرى ساخرة، وابتسامته غير المريحة أثارت الشكوك في قلبها وتأكد حدسها مع نطقه لأحرف الجملة ببطء:

– حمد الله على السلامة.

«يا راجل... وأنا كده صدقتك!»

ولاحقته هي بالقول معذرة ومبررة لموقفها السخيف، وما باليد حيلة؛ فهي اكتشفت أنها معنويًا بحاجة لتلك الوظيفة ولهذا لا بد أن

تتحمله:

– أنا عارفة إنني غلطت ومحتاجة فرصة أخيرة.

نهض سيف من مقعده أخيراً ليخبرها بألية متوقعة منه:

– اعتقد إننا كنا اتفقنا على فرصة واحدة وخذتها فعلاً يوم ما شغلتك.

واغتاطت. ما زال ينقص منها، ويتحدث وكأنه تكرم عليها بالوظيفة، وكأنها عالة لا نفع منها ولا فائدة. هل يراها معاقة ذهنية مثلاً!
«أصلها كانت شركة السيد الوالد».

نطقها داخلها بهمس وبمنتهى الغيظ، وأرادت أن ترحل ولا تعلم لم لا تفعل، وبالنسبة إليه لو فعلت لن يعترض ويمنعها، بل والسبب الوحيد لاستمرارها بالعمل حتى تلك اللحظة هو عدم رحيلها وتحملها لكل ما يتفوه به بشأنها رغم قسوته. وربما هو شعور خفي بالذنب تجاهها؛ ففي اليوم الذي رحلت به من الشركة باكية مخبرة إياه بوفاة عمته هو استاء من نفسه؛ لأنه منعها من توديع شخص عزيز عليها بلحظاته الأخيرة بالدنيا.

حسناً هو معروف كونه مديراً قاسي الطباع، ولكنه ليس شيطاناً منزوع الوجدان.

– فاضلك فرصة، آخر فرصة.

تهللت أساريرها وتجمدت لهنيهة؛ فهي وقتما تفرح ووقتما تغضب تتوه منها الكلمات، وتتلعثم كالأطفال حديثي التكلم. أخبرته قبل أن تخرج من مكتبه بامتنان:

– ميرسي لحضرتك.

وهو أجاها بينما كان يبحث عن ملف ما بأحد أدراج مكتبه:

– العفو، والبقاء لله.

تلجمت وخافت أن تخبره بالحقيقة فلا يصدقها ويغضب، والنتيجة هربت.

«يا جبانة، مش كنتي اعترفتيلي!»

هذا ما قالت له لنفسها موبخة، ولكن اعترافها له ليس بالشيء السهل، بل مستحيل، ويحمل مجازفة كبيرة.
«واعترفتها كذبة سبتمبر».

بأي مؤسسة عمل حينما تجد المدير تجد «العصفورة».

ومصطلح العصفورة هو شيء يرمز لكائن يتمتع بأذنين ملصق بهما مكبرات صوت تمكنه من الاستماع لأخبار زملاء، ونقلها لسيادة المدير بحرفية، ولا مانع من عدة تعديلات وإضافات تحافظ على مرتبته؛ كونه أذنه وذراعه اليمين بغيابه وحضوره لا فارق.

ربما يكون الكائن العصفورة على شكل رجل يردد شعارات تمجد بسيادة المدير.

«طويل العمر يطول عمره يزهزه عصره وينصره على مين يعاديه هاي هي».

وهناك نوع آخر يعمل في الظل بنفاق مزدوج الاتجاه، ينقل الأخبار في السر وفي العلن، يعلن كرهه للإدارة، بل ويدعم حقوق العاملين، وهناك نوع فريد يمثلها، ينقل الأخبار رغبة في التقرب، يعلن الولاء وينتظر بأن يقابله مشاعر وحب، وحتى إن كان لا يطاوعها بما تقدمه وبما تشتهي؛ فهي لا تملك سوى أن تقدم وتقدم، وتنتظر على أمل أن يمنحها ما هو أكبر من «الصحوية».

الحب والاستقرار والأسرة.

هي حتى إلى الآن لا تفهم أنه صديق لها ولفتيات غيرها فقط

بالمعنى المعنوي لا الجسدي، يحتوي ويساند وينسى دوامته مع نعومة تصرفاتهم ولن ينكر جمالهن، ومهما ووسوس إليه الشيطان بالمزيد من الغرق لا يستطيع والسبب ببساطة.

«أخواته البنات».

ولو استمعت الشياطين لأفكارها الساذجة المراهقة لهزأت منها بضحكات متقطعة شريرة، فأدوار الرومانسية لا تليق بسيف الدين عمران، بل هو فيما يخص النساء يليق بدور شرير يشبه عادل أدهم بجملته الشهيرة «أهلاً يا قطة» عكس هذا الرجل الذي يتبدل قناعه مرة بالعمل، وأخرى بالمنزل مع عائلته وكأنه 3*1!

المدير الجاد والأخ المسؤول والصديق الوقح!

— وحشتني.

والجملة تتطلب اقتراب، غنج ودلال وعضة شفاه يسيل لأجلها لعاب، ولكن كما توقعت لم يتأثر، بل بدأ الغضب يسكن ملامحه وتمثل بعقدة حاجبيه الساخرة منها.

أشار لها بالابتعاد ناهراً إياها:

— حسناء، روجي على مكتبك دلوقت ولينا كلام بعدين.

اشارت له بكلتا يديها كي يهدأ:

— أنا أسفة سحبتها ياسي...

وقبل أن تكمل بترها بشبه زعيق:

— يا أستاذ سيف، هنا أنا مديرك وبس.

وهي لولا أنها خمرية اللون لظهر له خجلها، وتخضب وجنتها بحمرة الخجل والتي تشعر بسخونتهما البالغة، وربما لأنها تلك المرة التي ينهرها بذلك الأسلوب، أو ربما هي التي مؤخراً أصبحت حساسة بطريقة زائدة؛ فسيف معاملته مع الكل ثابتة، معروفة ولا تتغير، هي موظفة بالشركة

منذ ثلاثة أشهر وعلاقتهم خارج العمل بالكاد أكملت الشهر، والمفترض أنها تحفظ طباعه فلماذا قد حملت الأمور أكبر من قدرها الآن!

ربما لأنها غارت، والمرأة حينما تغار يتلبسها مارد غبي مكسور الجناح، قليل الحيلة يتخبط بالطرقات حتى يصلها لمرحلة الندم، وقد غارت منها بالرغم من أنها بجانبها فتاة فارغة الأنوثة، ولكن ابتسامتها التي كانت على شفقتها منذ خروجها من مكتبه، وحديثها عن كرم أخلاق المدير وطيب خلقه وأشياء من هذا القبيل أثارت غيرتها ومخاوفها؛ فقد كانت وكأنها تتحدث عن آخر، ليس هذا الرجل الذي يوبخ ويجازي ويقيّل، أو كما أخبرتها إحدى الموظفات:

«إنني بتتكلمي عن مستر سيف بتاعنا! يابنتي ده خنيق».

ولكنها لم تقتنع وابتسامتها كانت بمكانة إشعال ذاتي لعواصفها حتى إنها جاءت إليه لتستفسر وتفتش عن أي شيء يخص خيانتها لها، وحتى لو كان هو لم يعدها سوى بالصدّاقة، ولكنها تتصرف كعاشقة، والغيرة في اختبار العشق سؤال إجباري.

وعجبي.

— أنا توقعت إنك هترفدها.

تعجب، الموضوع برمته ليس بباله من الأساس، واضطرت للتوضيح بأنها تقصد «ريم» الموظفة الجديدة، وبرأيها الشخصي كانت تراه يراوغ، وسبحان الله على تفكير النساء وكأنهم مدار الحياة، وهو ليس لديه وقت فراغ يمكنه من التفكير بتلك التفاهات والصغائر.

— من امتي بتتدخلي في حاجات متخصصكيش!

وقبل أن توضح وتبرر قاطعها مشيراً لها بالخروج:

— روجي شوفي شغلك.

وهل تملك تصرف سوى أن تومئ برأسها بطاعة!

– تمام حضرتك.

ولكن ذلك لم يمنعها من إخباره قبل أن تغادر مكتبه بالمعلومة التي علمتها حديثاً عندما اعترفت تلك الريم لنوال بحكاية عدم موت عمته والتشخيص الخاطئ، والأخيرة نصحتها ألا تفتح تلك السيرة مع أي مخلوق وتندسأه نهائياً حتى لا تخسر وظيفتها، ولن تفعل، وهي ستقوم بالمهمة عوضاً عنها.

– أنا بس حبيت أقولك إن عمته مماتش ولا حاجة وكل ده عملته
عشان تزوغ مش أكثر.
وأردفت بخبث:

– وأنا ميرضنيش إن كل الموظفين يتكلموا إن على آخر الزمن
جت بنت جديدة واشتغلت حضرتك.

وهربت قبل أن تختبر غضبه بشكل مختلف تلك المرة!

تخيل منذ اللحظة الأولى التي علم بها عن حمل زوجته بولي العهد أنها لن تتوقف عن «زلط» الطعام كما عاصر ذلك مع شقيقته، قام بضبط أحواله المادية على هذا الوضع وكأنه «سيستم عام».

ملاً البراد بالأطعمة بل وقرر أنه سيشارك زوجته بتحضيرها في حال تطلب الأمر، وهي باتت تحبه أكثر وليس من فراغ، ولكن منذ أسبوع قد داهمها وحم غريب الأطوار، وتمثل في رغبتها الشديدة بشم البنزين، وكان ذلك سببه هو مرور نادر على المحطة بطريق عودتهما من منزل والدته لتتمتع هي بعدة دقائق من الانتشاء. تلك الرائحة الغريبة مرت على أنفها وكأنها غوتشي أو هيوجو. تعجبت من حالها؛ فهي لم تكن من مدمني رائحة البنزين من قبل ولكنه الوحم ماذا تفعل! ونادر لا يعجبه هذا الطلب الغريب، ويخاف على أذية الطفل، وأحياناً ينهرها، ومرات

يجارها بوعود لن تنفذ علماً تنسى، وهي لا تنسى، بل أنها باتت عصبية بدرجة لا تحتل، ولم يختبرها هو من قبل فمناج معروفة بالرقعة وهدهو الطباع.

حتى إنها مؤخراً تستخدم «العض» في التعبير عن غضبها، ورغباتها المكبوتة بسببه، ونتج عن هذا علامات كثيرة بذراعه وكأنه تزوج من فأرة، ويا فرحتك يا مهجة.

لو علمت أن نادر يعيش حالة من «المرمطة» ستوزع كنوساً من الشربات على خلق الله احتفالاً بالمناسبة. صرخ بها بنهاية المطاف وبنفاد صبر:

- لا، إنتي تروحي تقعدي عند ماما لحد ما تهدي شوية يا حبيبتي. فلم يجد حلاً سوى أن يرسلها لمنزل أبيها حتى تمر فترة الوحم، ولأنه لا يستطيع السيطرة عليها، وحسبي الله ونعم الوكيل.

الفصل الخامس

(عرض مُغري، ومع الأسف)

أه يا حلويا مسليّني

يللي بنار الهجر كاويني

املى المُدام يا جميل واسقيني

من كثر شوقي عليك ما بنام

والأغنية لم تصدح من مذياع أو من هاتف، بل كان صوتها، هي «نوال» زميلة ريم بالمكتب؛ تلك المرأة الثلاثينية ذات الملابس الفضفاضة والخمار الواسع، وسبحان الله تمتلك هي صوتًا شجيًا مؤثرًا يناقض هيئتها البسيطة.

كانت تدندن بخفوت بتلك الأغنية، بينما يدها تعمل وتسجل واردات «الطليبة» الأخيرة على حاسوب مكتبها، وكانت ريم تتابعها بابتسامة فصوتها حمل الدفاء والحنين للأجواء رغمًا عن خوفه.

وحينها دخل «عم خالد» لغرفة مكتبهم حاملاً لهما الفول والطعمية الساخنة والمخلل والباذنجان المقلي، وياله من فطور ملوكي مُدمر لحلم رشاقة أي كائن مؤنث.

نهضت نوال من أمام المكتب، وشرعت بعمل الشاي لها ولريم، وكان مزاجها الرائق هذا نابع من فرحتها لموافقة ريم مشاركتها رغباتها اليومية المكبوتة بالفطور والشاي وخلافه، فحسنا بعيدة كل البعد عن تلك الأمور، وحتى إنها تهرب من المكتب وقت الفطور؛ لأن رائحة الباذنجان تزعجها، بل وتخمن بأنها تسخر منها داخلها مرددة «سووفاج، بيئة قوي».

وربما بسبب أنها كانت تشعر بوحدة شديدة منذ استقالة عزة

صديقتها السابقة من العمل، والآن ريم تخطو كي تحل محلها ويبدو أنها ستأخذ نفس محلها في قلبها.

شرعت ريم بعمل الساندويتشات، بينما نوال كان قد جهزت الشاي المتين وناولتها إياه ولسانها يردد بقية الأغنية:

حَبِيتْ جميل يا ريتي ظلُّه

حاز الجمال والحسن كلُّه

لَمَّا رأيت ملك فؤادي

صَبَّرت قلبي وحملت ذلُّه

وتفوهت ريم بتلقائية، ولم يكن صوتها مماثل لتلك النوال، بل كان أكثر نعومة، فلطالما كانت تحب الأغنية وتدندنها بفقرة غسيل الأطباق اليومية، وفي غرفتها أوقات «الروقان»:

ومن الشباك لارميك حالي

ومن الشباك لارميك حالي يا عيني

من كتر شوقي عليك ما بنام

وأعادت المقطع، وتلك المرة كانت أكثر انسجامًا بينما تلتهم ساندويتش الطعمية الساخنة بتلذذ قبل أن يدخل هادم اللذات ويقتحم جلستهما:

– يا ريتك كنّي رميتي نفسك.

وتفاجأت وتوقفت قطعة الطعمية ببلعومها وكادت تقتلها، وهو كان نطقها بمعنى «إنّي هتشوفي أيام سودة، اصبري عليا» ولكن المفاجأة قد عطلت حواسها عن ملاحظة أي شيء سوى حرجها البالغ منه ومن الجميع. تخطاها ووجه كلامه لنوال:

– ايه يا نوال، عشان لقيتي ونيس جديد هنرجع لجو موظفين الحكومة ده، مش قلت الأكل في ساعة البريك وبس.

أخبرته نوال برأس منكس:

– أصل البريك الساعة واحدة زي ما حضرتك عارف و...

بتر جملتها بقوله بهدوء ساخر:

– افطري في بيتكم يا نوال ولا تحي نسيب شغلنا ونقعد ننظملك

اليوم.

قالت بخجل:

– آسفة يا مستر آخر مرة.

وأجابها بحزم:

– لازم تبقى آخر مرة لإني المرة الجاية هخصم بالخمس أيام.

وحينها دخلت حسناء للمكتب، ومن وجوهها فهمت أنها وصلة توبيخ، وهذا أشعرها بالظفر لفترة قصيرة سرعان ما انتهت بسبب قوله:

– نوال كنتي طلبتي مني إمبراح إذن.

وافقته بقولها:

– أيوة وحضرتك رفضته وقولتلي بعد ما تخلص دوشة الطلبيات

الجديدة ابقى خوديه.

نظر نحو حسناء ومن بعدها ريم ونطق أوامره:

– خديه، علمي ريم طريقة الجرد وسيبها وحسنا تسجل

الطلبيات مكانك.

فُغر فاه حسناء:

– بس أنا عندي شغلي ده غير إن ريم استحالة تقدر تعمل الجرد

لوحدها وهي لسه جديدة وبتتدرب أول يوم.

وبخها سيف بال «ذوق»:

– كل واحد يتكلم عن نفسه.

والتفت نحو المصدومة والتي كانت متشبثة بساندويتشها بين أصابعها، بينما عيناها تبرز خارج مقلتها تتابع ما يحدث حولها بنصف وعي وكأنها طرف مُشاهد غير مُشارك.

– ولا إنتي مش قد الشغل معنا!

– هاه!

وخرجت منها بكل غباء العالم وحماقته، وهي مؤكِّدًا حمقاء لأنها تعلم أنه يقوم «بتطشيمها»، ولا تقوى على مصارحته، بل ترغب في تحديه حتى آخر قطرة وربنا ينتقم منك يا «سيف يا ابن اونكل عمران» ومنك يا «اونكل بهاء» في ساعة واحدة.

وكان ما زال يملي أوامره، ولا تعلم كيف يستطيع هذا الرجل أن يتقلب مزاجه بمعدل مرة بالساعة! فلقد كانت تمدح بكرم أخلاقه ولطفه منذ نصف ساعة فقط، ويا حسرتاه على فرحتها التي لم تكتمل مرة بالعمر.

– طول شهرين التدريب ممنوع الغلط، ممنوع الدلع، ممنوع الغياب والإذن مهما كان السبب.

وكانت تسبه بعقلها الباطل وتتمنى رحيله من أمامها حتى تلتقط أنفاسها، ولكنه لا يفعل، وكأنه يهوى تعذيبها بسبب وبدون سبب، وقبل أن يرحل ويمنحها فرصة سبه جهراً بقولها يا «صفيق» أسوة بفيلم عمر وسلمى، فاجأها هو بمشهد آخر بعد أن اقتنص قطعة من ساندويتشها بفمه، لقد كان يقصد بفعلة تلقين حسناءه درساً يقبع بمخيلتها قبل أن تتدخل فيما لا يُعنها إلا أنه جاء على رأس المسكينة كالعادة، فرغم أنه لم يلامس أصابعها إلا أنها شعرت بالوقاحة أو التحرش؛ فاقترابه منها برأيها كان زائداً عن الحد. باختصار لا تفهم ماهية مشاعرها الحالية تجاه تصرفه، ولكنها باتت غاضبة حد الرغبة بالقتل والشنق والتعذيب والسفك، وقبل أن يرحل أشار لها ناحية الساندويتش مردداً:

هقولك تسجليه ع الكمبيوتر ازاى.

ونوال تتحدث كي تطمئنها بينما هي لا تشعر سوى «بالحوسة»
والرغبة بالبكاء؛ فاشفقت عليها وأخبرتها:

– طيب خلاص أنا هساعدك بس خليها سر، طالما حسناء
خدت الشغل اللي معايا أنا هبدأ معاكي الجرد وهاجي بكرة بدري
أقفله معاكي.

واحتضنتها ريم بتلك اللحظة، ولسانها كان على وشك نطق كل
كلمات الشحاذين، ولكنها اكتفت بقولها:

«ربنا يخليكي بجد».

ولولا الملامة لكانت أخبرتها بالمزيد:

«ربنا يحبب فيكي خلقه».

«ربنا يوفقلك ولاد الحلال».

«ربنا ينتقم منك يا صفيق».

استقلت دراجتها «الروز» والعزيزة على قلبها ولم تعطِ تعليقات
الشباب التافهة أي أهمية كما اعتادت. تحركت وسط العربات بخفة
حتى وصلت لحديقة واسعة تمارس هي داخلها رياضتها المفضلة بين
الخضرة وزقزقة العصافير، واستنشقت نسيم الصباح بكل ما تملك
من قوة، وساعدها هذا مع الهدوء النسبي للمكان في هذا الوقت الباكر
من اليوم على القليل من استرخاء الأعصاب. ظلت تدور وتدور بين
النخيل والأشجار بسرعة وأحياناً ببطء، وبالنسبة لمهجة منذ الصغر
ركوب الدراجات يماثل نفسياً شعور شخص آخر أثناء امتطائه للخيل.
انطلاق، تحرر، عتق و... سلام نفسي.

بمجرد أن عادت للمنزل وجدتها ولم تصدق، منال بمنزلهم ومعها

حقيقية سفر. وكان يبدو أنها قد وصلت للتو حتى إنها بمرحلة التقاط أنفاسها المقطوعة من الدرج، وتسلم على والدتها، اقتربت منها تستفهم، وعقلها توقف على مشهد لطالما كانت تخشى حدوثه.

هذا الكائن نادر أزعج شقيقتها بشكل أو بآخر، وهي من ستقف بوجهه وتحاسبه.

«مهديك، زعلك، خانك».

والتتمة كانت بشهقة:

– متقوليش ضربك!

وكانت وكأنها وحدها بالمكان تتحدث وتجيّب نفسها غير مبالية برد فعل المدهوشة من تصرفها:

– وربنا لو عملها لزعله.

«حيلك يا سبع الرجال».

وخرجت من فم نادر فقد كان جالساً بغرفة الصالون وهي لم تدرك بعد. قالها ونظر لذراعيه متأملاً أماكن العضّات ثم أردف بحذر:

– انتو عيلة مستذئبة ولا إيه؟

والأخيرة شعرت بالقليل من الحرج وتفاجأت بوجوده بالمنزل، وحاولت أمها حل الموقف بعد أن لكزت ذراع نادر بقوة جعلته يتأوه، ثم أخبرته متصنعة الابتسامة:

– مهجة بس بتهزرمعاك.

وأمسك هو ذراعه «المتمرمط من العيلة» وأجابه بخفوت:

– مهجة تعمل اللي هي عاوزاه أساساً، أي حاجة من طرف منال

على قلبي زي العسل.

«يا سم، دمك يلطش».

ورغم أنها لم تنطق بالجملة إلا أنها ظهرت جلية على تعابير وجهها فقرر أن يُقصر الشر و «يخزي الشيطان وياخذ بعضه ويروح من سكات» فها هو قد أوصل الأمانة لأصحابها.

ومهجة شرانية، نمرة تختفي خلف ملامح قطة وبشكل ما يهابها. ذهبت لتودع زوجها وأعدت على مسامعه بعض النصائح، قال لها أن تعود معه وهي وافقت؛ فضحك وأخبرها أن تدخل الشقة، قالت له بصدق وعفوية:

– أنا بحبك قوي يا نادر.

ثم احتضنته وكأنه سيهاجر فقال لها بعد أن منحها قبلة على وجنتها.

– وأنا بحبك قوي يا منال.

وبمجرد أن دخلت وجدت مهجة تقف في انتظارها وتخبرها بأسى، وكأنها أختها الكبرى المجروحة البائسة المطلقة الشريفة هي وأطفالها، وعليها أن تنقل لها خبرتها بالحياة.

– إنتي طيبة قوي يا منال، صدقيني لو فكريزعلك مش هسيبه.

تجاهلتها الأخيرة ورددت بينما ترحل بعيدًا عنها:

– نادر أحسن راجل في الدنيا إنتي بس ابلعيه يا محسن وهو

هيعدي.

اقتربت منها مهجة وتحديث بجدية:

– تعرفي أنا قلقانة عليكي علطول!

ربتت هي على كتفها مطمئنة إياها:

– أنا عمري ما كنت سعيدة زي دلوقت متخافيش.

وأردفت بابتسامة:

— ده أنا بهدلته معايا بسبب وحيي الغريب.
ضحكت مهجة، وتذكرت يوم أخبرتها عن الوحوم وعن عدم سيطرتها
بعصبيتها ووصولها لمرحلة العض:

— يستاهل والله.

ولوت منال شفتمها مرددة:

— سعد زغلول قالها، مفيش فايده.

«وقد يأتيك البلاء على هيئة عريس جديد مامي مو افقة عليه».
وهي الآن بحالة حرب، تكون أو لا تكون، حتى ولو كان «الزن على
الودان أمر على السحر» لقد علمت من والدتها أن هناك عريسًا آخر
تقدم لخطبتها، وأنها منذ أن عادت وهي لا تفعل سوى العمل على
إقناعها بعرض كل مميزاته، وحتى إنها على وشك أن تدعي بأنها قد ربتته،
وربما وُلد على يديها.

— مهندس اسمه أحمد وعنده شقة ومو افق على كل طلباتك
وكمان عينيه زرقا.

ومنال لا تدعها ككل مرة، تنصحها بألا تتسرع، تتعرف إليه
وتتقرب منه، استغفر الله مهجة تتقرب وتتزوج وتنجب! كان كلامها
بالنسبة إليها محض جنون. اضطرت بالأخير لتصنع النوم المبكر هروبًا،
وربما لملمة شتات نفسها التي بعثروها بأحلامًا فارغة، وتركت الفراش
في الحادية عشر مساءً عندما شعرت بجوع مفاجئ. تسلمت هروبًا نحو
المطبخ، ولكنها وجدت أمها تقف أمام الفرن وتضع به صينية كيك،
وعندما رأتها أمها قررت مشاقتها وشرعت بغناء إعلان تليفزيوني قديم.

أه يا جميل يا مهنيني

يا ابو عيون زرقا يا عيني

نارك ولعة خلاني يا فريش
افتح الفرن و اقول يا سلام

وشعرت بالشبع، بل والتعبير الأدق «نفسها اتسدت»، خرجت من المطبخ غاضبة وتوجهت نحو منال القابعة بالصالون، ولكن بمجرد دخولها كانت «إيبي سمير غانم» تغني بنهاية فيلم «زنقة ستات».

«انزل بقا يا احماذ يا احماذ، اطلع بقا يا احماذ».

العالم كله يتآمر على مهجة، وبدأت منال بالغناء هي الأخرى وابتسامتها أثارت غيظها أكثر فحذفتها بحاوية المناديل ووبختها:

– إنتي كمان يا منال عليا.

شعرت منال بالشفقة عليها فقد كان وجهها احمرَّ غضبًا بالفعل. أشارت لها كي تأتي وتقع بجانبها، والحقيقة هي تنفذ نصيحة الست الوالدة التي طالبتها بالزن فوق رأسها حتى تلين.

جلست مهجة بجانبها ببعض اليأس وبشعور بالغ بال«تديس» حتى لو كانت لن توافق، ولكن الضغط الممارس عليها كافٍ لأن يخنقها.

– نفسي أعرف إنتي مقفلة دماغك الحجردي ليه؟

ونطقتها بعدما طرقت بأصابعها رأسها ثم أردفت:

– على فكرة أنا شايفاه حد كويس ومحترم، كيوت وديسنت كده.

– ديسنت!

والاستنكار كان واجب لابد منه، والتأكيد كان من طرفها:

– أه وعسول وأمور وعافل ودماغه كبيرة.

التفت نحوها مهجة وسألتها بعد أن رفعت أحد حاجبيها:

– على فكرة ماما قالت أنه قعد خمس دقائق بس يعني ملحقتيش

تعرفني كل المعلومات العظيمة دي.

وكانت سترحل، ولكن منال أوقفتها مستنفدة آخر خطة تملكها:
- متزعليش ماما يا مهجة، هي نفسها تفرح بيكي، عاوزه تقهرهم
عليكي!

وهزت رأسها بمعنى «لا» ولن «أخضع أبداً» و «مش هتنازل عن
السنجلة مهما يكون».

وقررت النوم، ولكن لم تستطع بالطبع، باتت تنظر للوضع على أنه
أزمة دولية وتقتضي حلاً جذرياً، تلك المرة ليست ككل مرة يأتيها فيها
عريس، اقتناع أمها به مبالغ فيه وهي لا تجد ثغرة تستطيع رفضه عن
طريقها بقوة وأريحية، وظلت تفكر حتى خرجت بتلك الخطة الجهنمية،
ولا بديل تملكه ولا حول لها ولا قوة أمام هذا العريس اللقطة «اللي
مفهوش غلطة» فلا يفل الحديد إلا الحديد.

وفي الصباح استقلت سيارة أجرة على غير العادة حتى العمل،
ولكن رأسها منتفخ حد عدم تحمل ذبابة تمر أمام وجهها، وبذلك الحالة
لن تتحمل معاناة المواصلات اليومية،

تشعر بالورطة، وما يقلقها أنها تخاف الاستسلام بالنهاية. الخضوع
لرغبة الأم ولفطرة الطبيعة التي هي مهما تنصلت وكابرت جزء لا يتجزء
منها.

مر يوم العمل دون أن تعيه حقاً؛ فلقد كان كامل تركيزها مع فكرة
البارحة والخطة البديلة، وهذا الرجل الذي بشكل ما يُعد بنظرها خلاص
الأزمة. كانت تراقبه كلما مر وكلما عاد، حتى إنه لاحظ وقام بإلقاء تحية
الصباح عليها عدة مرات بينما هي شاردة ولا تنطق.

تفكر وتفكر وتفكر. تتراجع لثوان، ثم تتذكر أنه لا بديل فتعود
لنفس النقطة.

هي تعلم أنه حتى لو قامت برفض هذا الأحمـد فسيأتي غيره وهي قد
كلت؛ فمـنـذ زواج منال وهي تعيش حالة من التوتر مع أمها بالغة بالفعل
وكأنها قد فرغت لها بعدما زوجت شقيقتها، والمشكلة أن أمها تراها
مجنونة، ومن جهة أخرى هي لن تتنازل عن مبادئها والحرب مستمرة،
وعادت تكرر لنفسها أنه لا بديل.

انتظرت نهاية الدوام حتى استطاعت الانفراد به وأخبرته دون
مقدمات:

– أنور، اتقدم واخطبني وأنا هديك ألف جنيه في الشهر.

الفصل السادس

(يا شحاتين الغرام، لله)

شحات ومد أديه وكسر خطره حرام...

حذفه الهوا هنا ليه!

طالب تحنوا عليه يا محسنين الغرام.

ولم تمنحه النظرة التي تمنهاها دهرًا، بل أعطته عرضًا واضحًا.

– أنور، اتقدم واخطبني وأنا هديك ألف جنيه في الشهر.

والحالمون حق الطمع، ورغم وضوح العرض إلا أن عقله الباطل حذف نصف الجملة. وهي لمحت أمله والأمل حق مكتسب يجب أن تمحيه من الوجود.

– نتخطب لمدة سنة، أكون هاجرت أو على الأقل ظبطت أموري هنا.

تاھت بحزنه القابع بين مقلتيه، ولكنها تماسكت؛ فالضرورات تبيح المحظورات.

وهي تحتاجه كما يحتاج البنك موظفيه أيام الأحد من كل أسبوع وما باليد حيلة.

– أنا عارفة إنك بتحبني يا أنور ومن زمان.

وأضافت بثبات:

– والحب ده عمره ما هيكونله مقابل من ناحيتي.

لقد نوت، ستنحرجه، بل ستقوم بسلخه وشويه وبعدها تأكله بنهم.

وبررت لنفسها بأنها هكذا لا تخدعه وتستغل حبه.

مجرد عرض وطلب و «بين البائع والشاري يفتح الله».
والمبلغ هائل، ستدفع نصف راتبها تقريبًا كي تتخلص من عرسان
الندامة وأمها تم السخيفات المتسلطات.

ستشتري راحة رأسها لمدة عام مقابل ألف جنمًا.
كله فداء الحرية والهروب من القفص الذي تعتقد أنه بات
بلاستيكيًا بعد الارتفاع الأخير في أسعار الذهب.

– أنور أنا محتاجك، هتسييني؟

والآن سقطت دموع التماسيح خاصتها كمهارات للمشهد، ضرورة
حتمية لجلب تعاطفه وبالتالي نجاح خطتها.

– هتتخلي عني يا أنور؟

والهروب من فقاعة ضغطها عليه كان ضروريًا.

المزيد من الأوكسجين...

شهيق، زفير، شهيق...

ليصطدم دون وعي بزميل بالمهنة يبدو أنه قد استمع لحديثه أثناء
عودته من أحد المكاتب:

– أنا لو منك أقبل.

والأخير أردف:

– عرض ما يتفوتش يعني.

وكلامه أثار عصبيته، هو ليس بصديقه حتى كي يتدخل بشؤونه
ويقوم بنصيحته، حتى إنه طوال الشهر الذي كان مدة عمله لم يتحدث
معه مثل الخلق والناس.

صمت دهرًا وكان يجب أن يصمت للأبد، أخبره بحنق:

– حلیم اللي سمعته ما يطلعش برة.

وهو ضحك مطولاً ثم قال بسخرية منه:

- تدفع كام؟ مميم نقول 500 جنيه في الشهر من اللي هتدفعه وملك أستاذة مهجة؟

أقرب منه أنور بينما يتطلع حوله:

- ههشششش، اللي سمعته ده تنساه خالص.

أخرج حليم سيجارة وأشعلها ثم نفث دخانه ليردد بالنهاية:

- متخافش، مش هبوظلك المصلحة أنا مش واطي قوي كده.

ترك السيارة وفضل السير؛ فالمشي السريع مفيد لنزع حالة الفوضى التي يشعر بها.

هو الآن يتذكر مشاعره وقت التخرج، وفرحته كونه الثالث على ترتيب دفعة كلية التجارة شعبة المحاسبة جامعة القاهرة لعام 2010.

لم يستفد من تفوقه سوى رسالة شكر وجهها له عميد الكلية يوم حفلة التخرج خاصتهم مرفقة بشهادة تقدير ويا حلولي.

عاش رحلة البحث عن وظيفة، وتنقل من وظيفة لأخرى، وبكل مرة يفقد بها شيئاً آخر منه، من سيف.

عامل بمصنع باليومية، كاشير بمحل مأكولات شهير، مندوب تسويق لشركة توريد مغمورة.

ولم يعمل لأنه بحاجة للمال فوظيفة أبيه وميراث جده كافيان لسد احتياجات المنزل وبييض، ولكنه كان بحاجة للبحث عن نفسه والتي كان يفقدها أكثر برحلة بحثه.

وبعد عام ونصف من التخبط جاءته وظيفة عن طريق أحد أصدقائه بشركة توزيع أدوية معروفة، بدأها بموظف وطور نفسه واجتهد وثبت أقدامه حتى أصبح مديراً للمشتريات،

لكنه الآن كأني شخص يعيش تحت أنياب القطاع الخاص الذي يُجيد استنزاف طاقة موظفيه حتى آخر قطرة، ولكن الحمد لله تلك المرة يقتضي راتبًا مقابل استنزافه.

وطوال تلك السنوات كان حُلْم السفر يزدهر في عينيه أكثر. ففي عالم موازٍ شرط أن يكون خارج حدود الجمهورية سيجد التقدير.

سيجد الراحة النفسية.

سيجد نفسه التائهة!

ويوم جاءته الفرصة بشركة منافسة سعودية مقابل راتب يُعد تقريبًا أربع أضعاف راتبه الحالي تمسك بها، وشعر أن حلمه على وشك التنفيذ.

جهز أوراقه وحاول إقناع نفسه أن اعتراض أمه على سفره وضع طبيعي وعادي، وأقر بأنها ستعتاد غيابه يومًا ما ككل الأمهات.

ولكن يوم السفر فاجأته باختبار وداع، أزمة قلبية مفاجئة من فرط حزنها على فراقه، شعور بالذنب بأنه كان سيخسرهما مقابل طموحه!

والنتيجة تشييع جنازة حلمه حتى إشعار آخر.

ومنذ ذلك اليوم هو يعيش حالة من اللامبالاة أو بالأحرى تصنعها. يدفن حياته صباحًا بالعمل ومساءً مع أصدقائه وحتى أوقات متأخرة من الليل.

ينفس عن إحباطه بأرجيلة فهو ليس من هواة السجائر، ولكن الأرجيلة متعددة النكهات تقوم بالغرض المطلوب منها وأكثر.

والآن حسناء جالسة مقابله كالبلهاء لا تفهم بعد أن هاتفها وطلب منها أن تأتيه بالمكان المعهود أو «الكوفي شوب»:

– سيف هو إنت جاييني عشان تفضل ساكت!

وهو بعد أن نفث دخان أرجيلته بتلذذ أخبرها ببطء:

– اتكلمي إنتي.

وباتت تثرثر كعادتها في مواضيع تافهة، وهذا جميل؛ فهو الآن بحاجة للكثير والكثير من التفاهات.

ولكنه كان معها بنصف تركيز وهي مصرة على أن تناديه:

– سيف!

وأردفت بحنق من هذا المتجاهل:

– إنت مش معايا خالص.

ولحظتها ترك بضعة أموال ورحل من المكان تاركًا الثرثرة وحيدة!

غضب عارم في المنزل وأمها تخانق «دبان وشها» والسبب معلوم.

«عريس مهجة ابنة خالتها!»

شجار نشب بين أبيها وأمها لمدة ربع ساعة فقط قبل أن يرحل

«متقيًا شرها» بعد أن اتهمته بالبرود فيما يخص مستقبل ابنته.

بينما وكل هذا أخيها «اللذوذ» لم يغادر غرفته حتى.

ترى هو على قيد الحياة!

هل قامت داعش بخطفه؟ هل هدده أحدهم؟

دخلت غرفته كي تطمئن عليه، وكان كما توقعت أمام «اللاب توب».

– يا بني كفاية بلاي ستيشن هتدمر نفسك.

وعندما لم يجيها قررت أن ترحل لغرفتها، وفي طريقها نادتها أمها

بطريقة المعهودة، وحينها همست داخلها بخفوت «استر يا لبي بتستر».

طرقت غرفتها برأس منكس وبأدب بالغ وطاعة، وليسبب واحد أن

تعنتها وتتركها تنام بأقرب وقت ممكن.

– تعالي اقعدي يا ريم.

هي تريد أن تنفرد بها فقط انتظرت الوقت المناسب حتى إنها
افتعلت الشجار مع أبيها حتى تخرج طاقتها المكبوتة.

فالوضع الآن برأيها بمنتهى الخطورة!

– عرفتي إن محسن اتقدم لها عريس!

– اه وهي مش مو افقة.

ولن توافق تعلمها أكثر من نفسها وحتى إنها البارحة سألتها عندما
روت لها قصة العريس على الهاتف.

– إنتي مش نفسك تتجوزي يا محسن! تبقي إنسانة طبيعية كده
ومعاكي بغل و اتنين قرود يتنططوا حواليني.

والإجابة كانت كما توقعت:

– تُو.

وأضافت بجملة دوّمًا تسمعها من المتزوجات أصدقائها:

– وهما اللي اتجوزوا كانوا عملوا إيه؟!

وكانت ريم شاردة بوردية رغم رمادية الأخيرة:

– بصي هو أكيد أنا مش عاجبي حوار العرسان ده بس أنا نفسي

استقر وأحب و أتحب ويبقى عندي نونو صغرن كده ألعب بيه.

والسخرية وسط الحالمية قمة الفصلان:

– مش عاوزه dvd؟

وأكملت:

– يا بنتي نص الرجالة بقوا خاينين والباقي باردين، ولو عدلين

وكويسين هيكونوا متسلطين، بصي هو لازم هتلاقي خازوق كده.

خرجت من شرودها وقالت داخلها: «مستحيل تو افق».

ولكن أمها كان لديها رأياً آخر:

– هتو افق، ده مهندس وعنيه زرقا وخالتك طيارة بيه طير.

وأردفت أمها ساخرة:

– شوفتي، محسن بتتحرك بس خطوتين تجيب عريس.

وسألتهما:

– و إنتي بقى؟

– أنا! أنا إيه؟

ونطقتهما باستغراب جعل أمها تقفز على الجملة التي تليها ببعض

اللؤم:

– إنتي بقيتي بتتأخري في الشغل ليه؟

وهي اعترفت بعد أن تذكرت «الحوسة» وحالة «النفخ» وشفقت

على حالها:

– عندي مدير رخم وشكله كده بيكره أونكل بهاء، كلفني بشغل

كثير أوي يا ماما تخيلي وأنا لسه بتدرب.

وسألتهما أمها في لحظتها على عجلة:

– وعنده أد إيه مدير ك ده. لابس دبلة! متجوز، خاطب، فاضي.

وهي تسمرت لثوان وبعدها أقرت أن مديرها الصفيق:

«سنجل».

زويل في البحث العلمي وعلوم الذرة. نظرت ريم للساعة، ثم قالت بتوسل:
- ماما أنا هتأخر كده.

- اسكتي.

وشهقت عندما وصلت لغايتها:

- حلوده.

وكان عبارة عن فستان أرجواني قطني مزركش، حسناً هو جيد
وابن حلال ويصلح للارتداء نهائياً، ولكن ليس بالعمل!

- يا ماما، إزاي ها...

- اسكتي.

وبعدها أمرتها:

- البسي الكورسيه اللي اشتريته لفرح بنت خالتك عشان تداري
كرشك ده.

وفتحت فمها على اتساعه وبأصابعها لامست فضيحتها، وقبل أن
تعترض للمرة الثالثة قاطعتها أمها بنفس الكلمة:

- اسكتي.

«إيه تعذيب الكفارده».

وكان هذا اعتراضها غير المسموع بالطبع؛ فهي لن تتجرأ على
المجاهرة به والطيب أحسن. فعلت مثلما أمرت، وقبل أن ترتدي حجابها
وجدت أمها تضع أمامها الكحل وملع الشفاه.

- كل يوم تلبسي حاجة بناتي وتحطي حاجة خفيفة متأفوريش
عشان متبقيش زي عروسة المولد.

- حاضر.

- أنا هفضل أعلم فيكي لحد امتي بس!

لم تعلق ريم وارتدت قناع البرود وقناع آخر اسمه «عدي يا ليلة»،
بعدها انتهت من ضبط وشاحها نهضت ثم تساءلت:

– حلوكده يا ماما؟

والتفحص ما زال مستمرًا بل ويتوغل ويتوغل.

– ابقى فكريني نروح لدكتور جلدية عشان الحباية اللي طلعت
في وشك دي.

اعترضت ريم وقد فاض الكيل حَقًّا:

– هو أنا فرحي بكرة ولا حاجة!

لوت أمها شفتيها:

– يختي قالولي ايش حايشك عن الرقص، قال قصر الأكمام.

ابتلعت ريم كلمات أمها الجارحة واتهامها بالتقصير، ووضعت
على وجهها تعبير «ربنا يسامحك» ثم تساءلت بينما كانت أمها تنثر رذاذ
العطر على ملابسها:

– ممكن امشي بقا؟

وأمرتها أمها بابتساماة:

– ما تنسيش اللي اتكلمنا فيه امبارح.

– حاضر.

– ريم البسي الجزمة السودا أم كعب عالي.

– لا، كله إلا دي.

والإجابة معروفة:

– اسكتي.

وأكملت حديثها وكانت تعلم أنها ستفعل:

– ريم ماتنسيش اللي قولتلك عليه تنفذيته بالحرف.

وهي هزت رأسها موافقة مرددة نصائح أمها بحذافيرها:
– لو كلمني أبص في الأرض على طول، وأكون رقيقة وصوتي
واطي وأنا بتكلم، ولوزعقلي أعيط.
ورحلت أخيراً بعدما منحتها أمها ابتسامه فرحة بها وكلها أمل وتفاؤل
وسبحان الله.

«صباح الفل».

«صباح الورد».

«صباح الجمال».

وقبله على وجنة أمها مستحقة والتي أخبرتها بتعجب:
– مزاجك رايق يا محسن، خير يا رب.
وكانت رائحة الببال بسبب رسالة أنور التي جاءت البارحة وكان
تحوى باختصار:

«أنا مو افق عشانك وبس».

أغلقت مهجة عينها وفتحها عدة مرات وتصنعت الخجل قائلة
بخفوت:

– أصل الصراحة يا ماما يعني...

– هاه.

– واحد زميلي في الشغل هيتقدملي وأنا مو افقة عليه.

واستنكار لا بد منه:

– زميلك وكان فين زميلك من زمان! مهجة إنتي بتسرحي بيا صح!

وهي لوت شفيتها:

– مفيش ثقة!

واكتفت أمها بقولها:

– مفيش.

وأضافت بعد فترة صمت:

– بصراحة مش مصدقاي.

وهي نكست رأسها بحرج:

– يا ماما متحرجنيش بقا.

وأمها كادت تصرخ بوجهها.

– إنتي كده بتخليني أشك أكثر.

سبحان الله مهجة تتفوه عن أشياء تخص الخجل!

«على ماما».

ولكنها اكتفت برفعة حاجها المميز فقالت مهجة في حينها:

– طب والله العظيم يا ماما واحد زميلي هيجي يقابلك بكرة أو

بعده بالكثير.

وما دامت مهجة أقسمت فقد انتهى، وحينها حان وقت الأسئلة:

– زميلك ده عنده كام سنة، شغال إيه، عنده شقة! فهميني.

وهو نظرت لساعة الحائط وتظاهرت بالاستعجال:

– هو هيجي يقابلك وتشوفيه وتعرفي كل اللي إنتي عاوزه.

وكانت قد قررت إخفاء شهادته وطبيعة عمله عنها حتى تتخلص من

«أبو عيون زرقا» أولاً؛ فهي لن تجازف وتخبرها، فترفض أمها، وتحاول

إقناعها بـ «السمج».

وبعد رحيل مهجة للعمل ظلت تفكر أمها بالأمر، وفي النهاية قررت

محادثة العريس والاعتذار له، ودخلها يملأه الأسف والكثير والكثير من

الأسى؛ فهو عريس مثالي لأي فتاة، وقد تمنته لابنتها عن حق، ولكن ما

دام هناك آخر يميل له قلب ابنتها لا يجوز.
انتهى.

وما بين نظرة وأخرى ابتسامه مبادرة منها و «انشكاح» منه، كوب شاي منحها إياه، وشكر وامتنان منها تلفظت به. انتهى الدوام؛ انتهى قبل أن تلحق أن تتحدث معه عن تفاصيل الخطبة، وقبل أن تخبره عن مدى امتنانها له؛ لوقوفه جانبها في تلك الأزمة، فحقيقة لولاه ربما كانت تستيقظ بالغد وتجد نفسها حرم «أبو عيون زرقا على سن ورمح». وهو رجل، تبًا وسحقًا. سألت زميله بالبوابة:

— أنور مشي؟

وهو أوما برأسه:

— لسه ماشي من ربع ساعة.

هاتفته عدة مرات ولم يجب، وبعدها قررت الرحيل، ولكن تذكرت أن أمها ستقف على رأسها حتى تستعلم عن الموضوع برمته بينما هي لا تعلم أي شيء؛ لا تعرف متى سيأتي ليتقدم لخطبتها ولا ما الذي سيخبر أهله به. لم يتفقا سوى على موافقته فقط. عادت برحلتها اليومية ومعاناة المواصلات حتى المنزل ولكن لم تصعد، هربت.

استقلت دراجتها الروز وانطلقت وساعدها بذلك أنها كانت تحمل «الشنطة الكروس». ظلت تتجول بدراجتها حتى ابتعدت عن منطقتها؛ خوفًا من أن تجلب لنفسها عريس غفلة آخر، وبعد وقت قصير استمعت لصوت هاتفها فتوقفت وأجابت وكان أنور:

— مهجة عاوز أشوفك ضروري.

— وأنا كمان.

— تقدرني تنزلي؟

– أنا برة أصلاً.

– أنا قريب من مركز شباب الجزيرة أشوفك هناك؟

– نص ساعة وأكون عندك.

وركضت بدراجتها بأقصى ما فيها حتى تصل بالموعد والفرحة لا تسعها ليس للقاءه، ولكن لأنها ستعلم إجابات الأسئلة التي ستسألها أمها بمجرد أن تراها، وستتخلص من الكائن الأحماذ.

دخلت للنادي بينما تراقب المكان بعينها باحثة عنه، وتوقفت في النهاية وأخرجت هاتفها لتتصل به، ولكن قبل أن تفعل لمحتة من بعيد يشير إليها. صفت الدراجة بجانب الطاولة التي كان يجلس عليها وهو اتجه نحوها ليفاجئها بأنه ليس بمفرده!

– ماما عاوزه تتعرف عليكي.

وهي كررت بنبرة مصدومة:

– ماما!

ثم لامته بصوت خفيض حتى لا تسمعها السيدة:

– مقولتليش ليه يا أنور عشان أعمل حسابي!

وإجابته كانت صادمة أكثر من وجود أمه نفسه:

– ماما قالتلي خليها مفاجأة أحسن.

«ماما تاني!»

حاولت طرد الأفكار الشريرة خاصتها، وتقدمت معه خطواتين نحو السيدة، وحيثها بابتسامة بينما هو كان يعرفها إليها:

– ماما دي مهجة اللي حكنتك عنها.

وهي صمتت لهنيهة ثم قالت بدهشة أو استنكار لا فارق.

– العروسة! يقطعني أما لقيتها داخله علينا بالعجلة فكرتها

بتاعت اللبن.

«ممممممممممم، أمه شكلها حيزونة».

وحاول أنور تلطيف الأجواء؛ فمهجة كانت مثبتة نظرتها لفترة طويلة، وردود أفعالها غير مضمونة أو متوقعة.

– بتاعت اللبن إيه بس يا ماما! دي أستاذة مهجة.

ووقع بشر أعماله؛ فلقد كادت أمه تقوم بوصلة ربح فقط كي تعلق على تلك الجملة.

– أستاذة! قال أستاذة قال، فيه حد يقول للي ناوي يخطبها استاذة بدل ما تقولها لك هي.

– غلطة لسان يا ماما، عديها معلش.

وأما عن مهجة فقد اكتشفت بالمشاهدة وأن تحصي كم مرة يقول بها «ماما» في الثانية، وبكل مرة كانت تشعر أن جسدها يقشعر، ونفسها يضيق حتى أرادت في النهاية أن تصم أذنيها بكلتا يديها؛ كي لا تستمع لما تراه هراء، ولكن

«إن كان ليك عند... قوله يا سيدي».

وبعد نصف ساعة انتهت المقابلة، غادرت لمنزلها ودخلت غرفتها مباشرة متحججة بالإرهاق، ثم بدلت ملابسها وأطفأت الأنوار، ولكن فارقتها القدرة على النوم؛ فلقد كان عقلها متوقفاً على ملخص اللقاء وكلمات أنور التي فهمت منها شخصيته كونه «ابن أمه».

«ماما قالتلي خليها مفاجأة أحسن».

«ماما بتحب البرتقان بالجزر».

«غلطة لسان يا ماما، عديها معلش».

«ماما كان نفسها أكون دكتور بس مجبتش مجموع».

«ماما اللي قدمتلي على شغل البنك، أصلها تعرف مدام حسنية

اللي شغالة في الحسابات».

«ماما بتشجع الأهل زي».

واشتعلت في عيونها دمة حسرة؛ فهذا الرجل الذي بنت له قصورًا
بخيالها كونه عاشق ولهان متيم يكون في النهاية عديم الشخصية،
وجهاز التحكم الخاص به بقبضة السيدة والدته!

والآن تبتسم ساخرة من نفسها، وهي الحمقاء كانت تخاف عليه من
نفسها، من أن تجرحه أو تؤذيه!
«حق».

وكما توقعت داهم هاتفها رسالة نصية منه كان محتواها:

– أنا أسف يا أستاذة ماما مش مو افقة على الخطوبة.

وسبب رفضها هي تعلمه جيدًا وقرآته بعينها منذ أن لمحتها وهي
تدخل عليهما بالدراجة، حتى إنها تعلم بأن اللقاء كان تحصيل حاصل،
ولكنها كانت تأمل بأن يفي بوعده، ويستطيع إقناع أمه بأي شكل، ولكن
فلتنتصر الأم، وتسقط كل مخططاتها هي، وتتهار أحلامها هي، وتنام
باكية هي، وتسود نظرتها أكثر وأكثر بالرجال، حتى في النهاية تقمصت
دور حنان ترك بفيلم حب البنات.

«كلهم مصطفى أبو حجر، لا أبو مين، ده كلهم طلوعوا مصطفى
أم حجر».

وكانت تلك آخر ما تفوهت قبل أن تسقط في دائرة النوم، أو فقدان
الإدراك كلاهما سيان.

وفي الصباح التالي كان يتهرب منها كلما تلتقي الأعين وهي أقسمت
الأتركه وشأنه.

«وربنا ما هسيبك يا أنور».

انتظرت حتى اقتراب نهاية الدوام وذهبت إليه قبل أن يرحل ويهرب:
- بعد ما الساعة تيجي 4 عاوزاك تكون قدامي في المكتب
مفهوم؟

وهو أطاعها وفعل وتوقف أمامها بكل خجل فسألته:

- هو كان كلام عيال يا أنور؟

واكتفي بقوله وما زال لا يستطيع رفع وجهه ومواجهتها:

- آسف يا أستاذة غصب عني.

ورحل!

هكذا ببساطة!

وماذا عن الورطة التي تورطت بها! وعن أمها التي تستعد للخطبة
من الآن؟ تحضر وتستعد وتساءل عن العريس المترقب، وميعاد حضوره
للمنزل عدة مرات خلال الساعة! وماذا عن فرحتها؟ وكيف تسرقها منها
بأنانية؟ سقطت في بئر لا قرار لها ولا نهاية، والأسئلة تزداد برأسها لا
تتوقف، وقبل أن تصل لمرحلة الجنون داهمها صوت لرجل لا تعرف
سوى اسمه ألا وهو «حليم» أو «عبد الحليم».

- أنا ممكن أخطبك بداله وبنفس الاتفاق، بس كاش.

الفصل الثامن

(استمارة 6)

يا للصدمة!

يا للوقاحة!

يا للفضيحة!

– إنت اتجننت!

وابتلعت ريقها لتتغلب على صدمتها وهي لا تعلم على ماذا تبدي دهشتها، هل على معرفته بالأمر أم على عرضه الأكثر من صريح، ونبرته التي تعدت حدودها ووصلت للوقاحة!

– إنت بتتكلم معايا كده ازاي!

وهي ليست في حالة تسمح لها بالانقضاض على رقبتها وقرقشتمها حتى تنتشي وتهدأ؛ فصدمتها بأنور ما زالت تخدر أطرافها، ألم يكتفي بما فعله بها ليأتي الآن يُفشي سرها ويفضحها أمام الآخرين!

«وربنا ما هسيبك يا أنور».

ولا تعلم إن كانت قد تفوهت بأفكارها جهراً أم أنه هو الذي استطاع قراءتها كونه «نبيه ما شاء الله عليه» فلقد أخبرها:

– متظلمهوش أنا سمعت بالصدفة وأنا معدي من جنب المكتب.

وأضاف بابتسامة ساخرة أغاظتها أكثر:

– ده حتى موصيني معرفش أي حد باللي سمعته...

أخبرته بعصبية:

– اللي سمعته ده أحسن لك تنساه خالص.

وخرجت من الغرفة التي يقطن بها مكتبها ليتبعها هو، وكانت حركتها سريعة وكأن الغضب قد امتلأ داخلها حد ألا ترى أو تسمع أو تتكلم، فاضطر أن يوقفها من ذراعها في النهاية لتبرق عيونها من الدهشة بسبب جرأته الزائدة:

– أحسن لي بس معتقدتش إنه أحسن لك.

وأردف بابتسامة أخرى:

– منتظر دك النهائي بكرة.

ووقتما جاء «بكرة» كانت هي مستيقظة بمزاج شيطاني حد أن تقوم بحريق ثانٍ للقاهرة المحروسة، وتفكر أن تبدأ بهذا البنك، من جهة أمها قد وضعت الموضوع برأسها، ولن تتنازل وهي تعلم ذلك حق المعرفة، ومن جهة أخرى هذا الذي قد عرض عليها استكمال اللعبة، وعلى حد قوله «المبلغ كاش» ومع الأسف العرض مغرٍ جداً رغم خطورته.

كانت طوال الليل تقلب الموضوع برمته داخل رأسها، تفكر في حلليم كونه شخصاً مُستغلاً، ولا يمكن الوثوق به بأي شكل كان، ثم تعود لتتروى وترى الوضع من زاوية أخرى؛ فعرضه سيحل لها مشكلتها الأساسية، وسيمنحها راحة البال، ويجنبها الخلافات التي باتت لا تنتهي مع أمها العنيدة بشأن الزواج والعrsان والتي لن تمرر لها هذا الموضوع، وربما تحادث «أبو عيون زرقا» مرة أخرى نكاية بها.

فكرت بأن عرض هذا الحلليم أفضل لها من عرضها الذي قدمته لزميله أنور فهذا؛ الرجل وضع أمامها حسبة عقلانية (1+1=2) ولا دخل للعواطف والمشاعر هنا أو أي شهامة مزعومة، ولكن مجرد أن تصل لتلك النقطة تعود للبداية من جديد، وتشعر بأنها مخاطرة كبيرة؛ فالرجل طريقتة بطلب المال كانت وقحة بأقل تعبير، وشخص مثله من الممكن أن يضعها بمشاكل لا حصر لها بالمستقبل؛ فالطمع لا دين له،

ومن طلب ألف يطلب المزيد.

التقطت نفساً من أعماقها، حسناً أيها العقل، مهلاً، اترك لها مساحة كي تفكر، وأنت أيها القلب فلتهدأ وكفكاف كل هذا التردد. ماذا سيحدث لو واجهت أمها بحقيقة أنه لا عريس ولن يكون، وبأنها لن تتزوج ولن تراها بيت العدل مثلما تحلم وتتأمل هي كل يوم؟!

وإجابتها على أفكارها كانت «يا لطيف» فأقل رد فعل تخيلته من أمها هو أن تقاطعها، وحتى إنها من الممكن أن تصاب بجلطة دماغية؛ فزواج مهجّة بالنسبة إليها كان من أولوياتها آخر فترة، حتى إنها لم تهتم بحفيدها الأول المستقبلي، وابنتها التي تقطن لديها كما يجب؛ بسبب انشغالها بها، وكيفية إقناعها بالزواج بأي شكل، فكيف هي بكل ببساطة تهدم تلال أمانها! حتى إنها قد حاولت البارحة التلميح لها، ولكنها تراجعت في اللحظات الأخيرة عندما أدركت أن هذا الأمر خاصة لن يمر أبداً مرور الكرام.

هي منذ فترة تسايها وتتنازل، وتقابل العرسان كي ترضيها، ومع ذلك الوضع بينهما بات بقمة التوتر؛ فماذا سيحدث لو أخبرتها مباشرة أنها لن تتزوج نهائياً! ماذا تفعل!

فكرتها عن الزواج النابعة من تجارب المحيطين بها ليست مغرية بالمرّة، لا ترى العريس المتقدم إلا في صورة موظف بالشهر العقاري يحمل بطيخة وملامحه أشبه «برمضان أبو العلمين حمودة»، يجلس طيلة النهار أمامها بـ «الفانلة الحملات» ولا يتحمل ضجيج الأولاد، ويتذمر طوال الوقت وهي تتمنى رحيله عنها بأي شكل لرفقة أصدقائه؛ حتى يرتاح رأسها.

لا تستمع لصوته سوى وهو يخبرها عن فشلها بالمطبخ، وعندما يتغنى بأكل السيدة المحروسة «أمه»، ولا تشهد اهتمامه سوى وهي تسأله عن مصروف المنزل وكأنه لدغه ثعبان ما، لا ترى حنيتها إلا دقائق ينال

بها غرضه، وأحياناً وقت ولادة أطفاله، وبعدها يهرب من «زهنم» لغرفة أخرى كي يستطيع النوم بكل أريحية. لا يقتنع بصلة الرحم إلا لو كانت الزيارة لأمه، وعندما تطلب هي زيارة أمها يتذمر مردداً نفس الأسطوانة.

«هو كل يوم والثاني ماما ماما».

عندما تحاول اقناعه بالذهاب لرحلة صيفية مكافأة للأولاد على نجاحهم يخبرها:

«عادي نجحوا لنفسهم وسقطوا لنفسهم».

ويضيف بجملة شهيرة له:

«وبعدين مش كفاية الفلوس اللي صرفتها عليهم السنة أه يا ولاد

ال...».

وعندما تخبره أنها سوف تذهب للمصيف «ببلاش» مع أختها وأمها وبقية العائلة، وتطلب منه الذهاب معهم بغرض التغيير يقول بعنجهية:

«مليش أنا في الصداق ده لو عاوزين رووحو انتو».

لا يمسك يدها سوى لو رأى مقطورة تقترب منها ويقرر أن ينقذها، وربما لا يفعل حتى يتمكن من الزواج من زميلته بالمكتب صاحبة الشعر «الأصفر أوكسجين» ولن ترى منه أي مساعدة بالمنزل؛ لأن أمه قد أفهمته أنه «راجل» «اسم النبي حارسه وصاينه» لا يليق به أن يمسك مكنسة، أو يغسل «طبقاً».

إذا قرر أن يتقمص دور الشهامة، وأن يذهب للسوق عوضاً عنها يأتي بنصف الأغراض فقط، وتضطر هي الذهاب من جديد، وإذا طلبت منه أي طلب كان يفعله على مضض ومن «غير نفس» هذا إن فعل.

تلك باختصار الحياة الرائعة التي في انتظارها، وهي تتدلل عليها والتي أجمع عليها أصدقائها وجيرانها ومعارفها ومواقع التواصل الاجتماعي، وكل من نال لقب متزوج أو لم ينله بعد.

من بين أفكارها العديدة أكملت دوامها بالكاد بعد أن تناولت ثلاثة أكواب من القهوة، نهضت تحمل أغراضها وبعينها تراقب البوابة، لمحت أنور وتمنت أن تذهب إليه وتضربه على مؤخرة رأسه أو بالمعنى الدارج «تديله قفا» حتى ينتهي غيظها، ولكنها تناست أمره عندما لمحت الآخر الذي يرتشف الشاي بتلذذ وينظر أمامه كعادته بصمت.

وحقيقة تلك هي طباعه؛ فمنذ قدومه للعمل وهو قليل الحديث مع كل المحيطين وكأنه يعيش حالة روحانية من التأمل، وكأنه شعر بمراقبتها له ففاجأة، ودون مقدمات التفت نحوها ليسقط هاتفها من يديها من ارتباكها؛ فلقد كانت التفاتته مفاجأة لها. انحنى كي تحضر هاتفها ومجرد أن رفعت وجهها وجدته أمامها يقف ويتساءل:

– كنتي عاوزاني في حاجة!

قالت غاضبة:

– وهعوزك في ايه إن شاء الله؟

أخبرها:

– أبدأ شوفتك و اقفة وبتبصي ناحيتي و افتكرت...

بترت حديثه قائلة:

– لا متفتكرش وبعدين هو فيه إنت بتر اقبني!

لم يجب فقالت له باستنكار:

– مبرتش ليه؟

وهو اقترب خطوتين للأمام وأجابهما بتحدٍ:

– لو قلتلك لأ مش بر اقبك ولا حاجة هتزعلي!

– لأ طبعا ولا يفرق معايا.

وإجابته كانت بديهية:

– عشان كده بالطبيط مردتش.

زفرت بحدّة وظهر غيظها منه، ما هذا البني آدم «تلاجة 14 قدم!»

يا ربي.

كانت سترحل، ولكنّه أوقفها بقوله:

– مردتيش عليا.

وأكمل:

– اعتبر عدم ردك رفض!

سألته:

– هو إنت مهتم بالموضوع قوي كده ليه؟

ضحك لوهلة وهذا أزداد من استفزازها ثم برر:

– عشان دي مصلحة كويسة طبعًا هكون مهتم.

قالت بعصبية:

– وأنا ازاي أثق فيك وإنت بتتكلم بالمنطق ده!

وأردفت:

– وإيش ضمني بعد ما أو افق ترجع تبتزني وتطلب فلوس تانية!

أخبرها بوضوح:

– بصي أنا جدودي صعايدة وورثت منهم إن كلمتي زي السيف

يعني من الناحية دي اطمني.

علقت ساخرة:

– يا سلام! وجدودك مقالولكش إنك مينفعش تاخذ فلوس من

واحدة ست!

وإجابته كانت أبسط مما تتخيل:

– ده اتفاق، بيزنس يعني مفهوش لا عواطف ولا شهامة مش ده

المفروض ولا أنا فهمت غلط!

صمتت لهنيمة ثم قالت:

– عندك حق بسحب آخر جملة.

وأضافت بعدما حسمت قرارها:

– تمام أنا هو افق بس عندي شروط.

ترقبت ملامحه كلامها فقالت:

– أولاً مفيش مليم زيادة عن ألف جنيه كل شهر.

– ثانياً الاتفاق ده حتى محدش غيرنا هيعرفه ولا حتى أنور، إحنا

هنتخطب زي أي اتنين ما بيتخطبوا.

– ثالثاً إنت هتبلغ أهلك بالخطوبة وهيجوا البيت ويقابلوا ماما

ووقت ما الاتفاق يخلص هنبلغهم إننا متفقناش وخلص.

– رابعاً الاتفاق هينتهي وقت ما أنا أكون عاوزه ده وساعتها كل

واحد يروح لحال سبيله.

سألها:

– خلصتي؟

وأجابته بصوت واثق مرتفع النبرة:

– آه خلصت.

أخبرها بدوره:

– خامساً بقا.

وأوضح:

– ده اتفاق ومن حقي أحط شروط أنا كمان بصفتي الطرف

التاني.

تنهدت لتخبره بعدم بصبر:

— قول.

اقترب منها خطوة أخرى، وأخبرها بنبرة مختلفة حاسمة ولأول مرة تستمع إليها منه:

— أوعي تفكري تقلي مي قدام أي حد، ساعتها هيكون اتفاقنا لاغي ومن غير مبررات كمان.

استدعاء صباحي لا تفهم سببه، أخبرتها «إيناس» أن حضرة المدير يريد لها بغرفته حالاً ولوهلة سعدت، بل وتراقص قلبها طرباً، وشعرت أن عصافير الكناريا تزقزق الآن من حولها بسعادة.

قلبي؟ هل طرق الحب قلبها فعلاً أم أنها عاشت الدور الذي أخرجته لها أمها حتى صدقته في النهاية، وباتت تضعه في خانة الحب والعشق والأمني، أم أنها قد عشقته فعلاً منذ الوهلة الأولى يوم وبخها أمام سكرتيرته؟ وربما أنها قد علمت بأنها واقعة في حبه يوم أدركت أنها ستحتمل تصرفاته وتعنيفه لها مهما فعل؛ فمجرد فكرة أنها تبتعد عنه كانت أكثر قسوة ومرارة من لسانه السليط.

طرقت الباب بخجل، ووجدته يشير لها بحنق وغضب واضح أن تدخل! دب الرعب في كل جسدها، ما الذي حدث حتى جعله غاضباً هكذا! ترى هل شعر بالخطة التي رسمتها مع أمها؟ هل علم بشكل ما بشأن حلم البارحة خاصتها، والقبلة التي منحها إياها في زفافهما والتي جعلتها خجلة منه الآن، ولم تخبر أي شخص عنه؟ أم طريقة ملبسها المختلفة قد فضحتها أمامه بالفعل، وهي الآن ستكون أمامه فتاة تريد أن توقعه بشباكها وتنصب له فخاً!

هي من داخلها ما كانت ستفعل، فقط تطاوع أمها؛ لأنه لا حل لها منذ أن ولدت سوى أن تقول لها «نعم وحاضر» ولكنها في الحقيقة ما كانت ستفعل أي شيء من هذا؛ لأنها تدرك أنها لن تنجح.

تعلم بأنها ليست من طرازه المفضل؛ فتصرفات حسناء ونظراتها

له كفيلة بأن تفهمها بأن هناك شيئاً خاصاً بينهما.

وحسناً مختلفة، شكلاً وموضوعاً تليق بأن تكون بطلة حكاية على عكسها هي التي مهما فعلت ستندرج تحت بند «فتاة عادية جداً» مثل كل الفتيات التي نلتقيهن في الشوارع والمواصلات. قد فهمت في النهاية أن أحلامها الفارغة لا بد وأن تجعلها تسقط في نهايتها فلا داعي لها من الأساس، ولن تكون حمقاء لهذا الحد.

– مستر سيف هو حصل إيه؟

– حصل كثير.

وقال بعدما طرق على يديه بالمكتب:

– إنتي عاملة مصيبة.

ونكست رأسها ليس عملاً بأولى نصائح أمها، ولكنها نكستها خوفاً منه. شعرت أنها تود الآن بأن تبتلعها الأرض حتى ترتاح، ماذا فعلت حتى يصبح غاضباً هكذا، ما الخطأ الفادح الذي ارتكبته وتنتظر عقوبة فادحة منه بشأنه! هل تسببت بحماقتها بخسارة فادحة للشركة، والآن ربما ستسجن بسببها!

«عيني عليكي وعلى شبابك ياريم».

– أنا مش فاهمة، هو فيه إيه حضرتك؟

وقالتها بخفوت ورقة كما كانت النصيحة التالية تماماً، ولكنها قد فعلتها من شعورها البالغ بالجرح من هذا الخطأ الذي لا تعلم ماهيته بعد، وربما سيتسبب في انتهاء مشوارها العملي للأبد. أشار لها بيده ولسانه يردد بحنق شديد منها:

– ارفعي وشك و إنتي بتتكلمي هو أنا بكلم عيلة صغيرة!

ورفعت رأسها بترقب شديد حذر، وعيناها قد تالأت فيهما بعض الدموع، وهو رغم أنه قد لاحظ دموعها إلا أنه لم يكتف وشرع بتوبيخها:

– أنا من الأول قلتلك لومش قد الشغل متشتغليش.
وأكمل:

– بس تصدقي أنا اللي غلطان من الأول.
قالت ببطء وبخوف:

– طب أنا مش فاهمة أنا عملت إيه.

وهو توقف عن دورانه الغاضب وأخذ ورقة مطوية ووضعها أمام نصب عينها وقد تعرفتها، هذا هو الجرد الذي قامت بتسجيله على الحاسوب، وقد ساعدتها فيه نوال في الخفاء. أشار لها نحو أحد الأصناف، ثم صنع دائرة بقلمه حول صنف آخر يليه في القائمة وقال زاعقًا:

– حضرتك بدلتى الصنفين وإنتي بتسجلي وطبعًا فيه فرق كبير بينهم واحد محتاجين منه كمية لأنه شاحح وواحد متوفر عندنا ومش بيتباع.

وأكمل:

– متخيلة الكارثة ولا لسه موصلتش.
وقالت متلعثمة:

– أنا... أنا...

وقاطعها هو بقوله:

– أنا لأول مرة أخذ جزاء من خمس سنين شغل وكان بسببك.
وكرر:

– بسببك إنتي.

وأضاف وكأنه لم يكتف:

– مستر بهاء كان مفهمك إنك هتقعدي على مكتب وتشريني شاي

وقهوة وفي الآخر تقبضي آخر الشهر!

وقالت نافية:

– أكيد لأ.

وقالتها بشجاعة، بنفي اتهاماته التي رأتها بشعة، لم يتعامل معها وكأنها فتاة مدللة لا أمل فيها بالعمل بأي شكل كان، وبتر هو رغبته بالدفاع بقوله:

– أنا أسف، مش هقدر أجازف واتحمل أي أخطاء تاني.

وقد فهمت أنه قد منحها «استمارة 6» وقد فصلها عن العمل لتبكي هي دموعًا حقيقية مائة في المائة، وليست مزيفة كما طلبت أمها، دموعًا تلقائية ولا تتوقف.

الفصل التاسع

(مكتوبلي أنا الهم ومرسوم الوجع)

– ماما أنا اترفدت خلاص.

والمعنى في بطن الشاعر.

«يا رب تكوني ارتاحتي دلوقت».

وجلست على مكتبها آملة في استجماع شتات نفسها؛ كي تقوم بالوداع الأخير ببسالة، ولكن لم تستطع؛ فدموعها اللعينة لا تتوقف، وقد نفذ مخزون المناديل بحقيبتها هي وزملائها جميعهم. قالت لها نوال:

– كفاية يا ريم شركات المناديل قربت تعمل أرباح على جسك.

وريم لا تتحدث، تبكي، تهدأ حدة بكائها وتعود لذروتها من جديد، حتى إنه مرت نصف ساعة وهي ما زالت على هذا المنوال، وأخبرتها حسناء بتعاطف لحظي فاجأها شخصيًا:

– تحبي أكلمهولك يمكن أقنعه!

وتدخلت نوال في الحال:

– بلاش إنتي أرجوكي.

ففي المرات القليلة التي قررت نوال الاعتماد عليها بالتوسط لدي حضرة المدير نالت فشلاً ذريعاً وعن استحقاق، وكأنها تستفزه لا تقوم بإقناعه، صممت نوال مفكرة ثم أخبرتها:

– هو إنتي مكلمتيش مستر بهاء ليه يتصرف هاه!

وريم لوت شفقتها أساساً هذا البهاء، وكونها من طرفه هو أس البلاء، وهو ما يحفز الصفيق ضدها ليعاملها بهذا الاستبداد، وعلى ذكر الشخص لم يمر ثلاث دقائق إلا وكان قد حضر مستر بهاء متبخترًا، وعندما توقف أمام ريم سألهما بأريحية:

– خالتي هناء كلمتني وعلى كلمة واحدة الحق ريم وإنتي عارفة
مقدرش ارفضلها طلب.

وأردف:

– أنا جعان هو إنتو فطرتوا ولا نبعث عم خالد يجيب.

وشهقت نوال:

– فطار إيه يا مستردي البونية هتتفلق من كتر العياط.

– آه ماشي.

واتجه نحو ريم ليجلس مقابلها مستفهمًا:

– هو إنتي عملي إيه؟

غطت ريم وجهها بخجل وقالت تزامنًا مع تجدد سيلان دموعها:

– لخبطت في الجرد.

فعقد حاجبيه متعجبًا:

– وإيه المشكلة عادي.

وأردفت ريم موضحة بعدما عضت على شفثيها السفلى من شدة

إحراجها من الموقف ككل:

– أصله... أصله اتخصم لمسترسيف فيها خمس أيام.

وحينها قال بهاء:

– كده بقت مشكلة، طالما وصلت للإدارة العليا بقت مشكلة.

أسند إحدى قدميه على الأخرى، ثم قام بإشعال سيجارة ليتحدث

بعدها بكل أريحية و «إنت جايب البرود ده منين يا شيخ»:

– المشكلة إنك مع سيف وده يعني قمة الرخامة ومش هيعملي

أي اعتبار.

قالت نوال بشيء من الحدة:

– حضرتك ممكن تحاول يعني.

وهو قال مبتسماً:

– سيف علطول ماشي بدماغه.

أقرت ريم موافقة، وكادت تصرخ «نعم، إنه لوغد صفيق» ولكنها صمتت رغم أن ملامحها تحمل من الغيظ ما هو أكثر بكثير. حسناً هي أخطأت وتعلم، ولكن أيستحق الأمر فصلها نهائياً عن العمل!

«أيها الظالم المفتري ليا رب اسمه الكريم وحسي الله ونعم الوكيل».

وفي حالة استسلام «أونكل بهاء» الواضحة وضوح الشمس سيبقى الوضع على ما هو عليه، وعلى المتضرر الرحيل بسلام، وقد قررت الآن، ولا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب على الأرضيات.

نهضت فجأة ومسحت دموعها وقالت بشموخ امرأة طلقها زوجها الظالم المستبد منذ خمس دقائق وأربع ثوان وربع:

– أنا همشي أشوفكم على خير.

ولم تتحمل نوال الجملة ولا استسلام هذا «التيس» المسعى مستر بهاء والذي لم يحاول حتى التحدث معه ولو على سبيل التجربة وينال شرف المحاولة؛ فقالت لريم بنبرة عسكري مرور يقف بالإشارة وقت الذروة:

– استني اقعدي هنا متمشيش، أنا جايالك.

ووجهتها معروفة، غرفة المدير الذي تراه هي أيضاً الآن ظالم ومستبد. طرقت الباب ودخلت من دون أن تنتظر إذنه وأخبرته:

– أنا اللي عملت الجرد الأخير، غلطتي ولازم أتحملها.

ولم تنتبه من اندفاعها بالاعتراف بأنه كان يتحدث إلى الهاتف إلا بعد أن أشار لها بالقعود لياتيها بعد عدة دقائق قد بدأ خلالها مفعول

حبوب الشجاعة خاصتها على النفاذ. سألتها بحدة رغم أنه قد استمع لما
قالتة وادعته بالفعل، ولكن في الإعادة إفادة:

– كنتي بتقولي حاجة يا نوال!

وحينها تذكرت حاجتها للعمل، مصاريف مدارس أطفالها والتي
تحملتها بعد إصرارها على عدم إلحاقهم بمدارس حكومية، الجمعية
التي اشتركت فيها مع جارتها أم طارق كيف ستدفعها من بعد الآن! حسناً
هي تحب ريم، ولكن عائلتها التي ستشرد بسبب عواطفها ما ذنبها! وبكت
هي الأخرى، وهو انتفخ رأسه ما بال النساء يعشقن البكاء هكذا!

– بتعيطي ليه إنتي كمان!

وتنهذ واستغفر الله واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال
بعدهما استعاذ بعد الهدوء:

– كنتي عايزة تشيلي موضوع الجرد مكانها ليه؟

وناولها كوب ماء، وهي التقطت أنفاسها من وسط البكاء محدثة
إياه:

– عشان أنا المفروض اللي كنت أراجع وراها، وأنا المفروض
راجعت بس معرفش فانت عليا ازاي.

وظلت تثرثر وتثرثر وتثرثر، وازداد بكاؤها وانتفخ رأسه، وأراد إنهاء
هذا الحوار بأي شكل وصورة فسألها:

– يعني عاوزه إيه دلوقت برده!

قالت بتوسل:

– متطردهاش يا مستردي لهلوبة وشاطرة وبتتعلم بسرعة.

واستوقفته الكلمة «لهلوبة!»

– حد قالك إني بفكر اشترى غسالة أوتوماتيك!

وشعرت بحماقتها فقررت أن تسلك منهاجاً آخر كي تستدر عطفه.

— متطردهاش يا مستردي غلبانة والله أغلب من الغلب.
وكالعادة «النمرة غلط» فسيف لا يعترف بكل تلك الأمور.
— هو حد قالك إننا قلبناها جمعية خيرية!
تأففت نوال ونفدت كل حيلها؛ فلم تجد شيئاً تقوله سوى:
— متطردهاش يا مسترعشان خاطر مصر.
وضحك سيف، وأخيراً، وعندها نالت ريم السماح.
— كله إلا مصردي أمي مقدرش أزعلها.
ونهضت نوال بفرح وشعرت بإنجاز حقيقي وشكرته، وهمت
بالرحيل لطمأنة المسكينة التي جفت دموعها ولكنه أوقفها محذراً:
— أي غلطة منها المرة الجاية هتمشوا إنتو الاتنين.
«عاهاه».

«مفيش فايده والصفيق سيظل صفيق».

تأملت الحلقة المعدنية التي تزين إصبعها، لقد أصبحت خطيبة
وكان هذا الوضع غريباً عليها بعض الشيء، حتى ولو كانت خطبة غير
حقيقية، ولو كان كل ما يحدث الآن مجرد اتفاق إلا أنها لا تستطيع
السيطرة على قرعات قلبها المرتفعة؛ فهي وكأنها تسير نحو المجهول
بخطى متعجلة.

مجهول لا تملك سواه بالوقت الراهن.

تذكرت نفسها التي لم تتعرفها للوهلة الأولى أمام المرأة بمركز
التجميل، فستان ذهبي من الحرير يكسوه بعض الدانتيل يماثل طلاء
جفونها، تطريز بسيط بمنطقة الصدر رقيق يشبه ملامحها، وتاج ذهبي
بمنتصف شعرها زادها حلا ورقة.

ورغم روعة مظهرها إلا أنها لم تكن تريد أي من هذا، كانت تريدها خطبة صورية بالمنزل مع المقربين والأصدقاء، ولكن أمها قد أصرت على حفل خطبة بقاعة معروفة مرددة جملة وحيدة وكأنها لا تعلم غيرها.

«عاوزة أفرح بيكي، إيه مستكتره عليا الفرحة يا مهجة!»

ولو علمت أم مهجة أن تلك المصاريف والتكاليف ستذهب مع الريح لمزقتها بأسنانها وقامت بعملها «سندويتشات بوفتيك» لطلبة المدارس.

والآن هي بمنتصف حفل، ترقص «السلو» مع رجل غريب الأطوار لا تفهمه ولا تستوعبه ولا يتوقف عن مفاجئها والاسم «خطيب».

بدأت تشعر برغبة قوية في الاختفاء والهروب بأي شكل وطريقة. هل ممكن! ماذا سيحدث لو هربت من المكان بأسره! وهل سيفيدها الهروب أساساً! بل لى تستطيع الهروب مهما فعلت، وأقرت برأسها هي ليست بنادمة، هي اختارت راحة رأسها حتى تتمكن من الهجرة بعيداً عن البلدة وعن رجالها وعن ذلك (المورستان) الذي تعيش به؛ بسبب هوس الأمهات بتزويج بناتهن بأقرب فرصة، وكأنه «ماراثون رياضي».

نظرت للحلقة المعدنية مرة أخرى وكأنها تتعجب وجودها بإصبعها؛ فهي ترى أن تلك الأشياء لا تليق بها، وحينها سألتها حلیم أو الخطيب المزعوم «اللي كده وكده»:

– لو عاجباكي الدبلة قوي كده أنا ممكن أبيعها لك في الآخر.

وتأففت مهجة لتجيبه:

– شكراً مش عاجباني ومتخافش هرجعها لك.

– مش خايف.

شردت بذلك اليوم الذي جاء فيه حلیم لمنزلهم متقدماً لخطبتها والتعرف إلى والدتها، ورغم أن أمها في البداية لم تكن تشعر بالراحة

تجاهه؛ بسبب مقارنة غير عادلة قامت بها مع العريس اللقطة «أبو عيون زرقا» إلا أنه استطاع أن يقنعها بأشياء هي نفسها تفشل بها؛ مثلاً تأخير شراء الشبكة حتى ما قبل كتب الكتاب نظراً لظروفه المادية الحالية، والاكتفاء بدبلة الخطبة مقابل التساهل في الاتفاقات الأخرى الخاصة بتجهيز الشقة، وبالطبع هو منحها هذا العرض من خلال حديثه وليس بصورة مباشرة، وكان يتحدث بأريحية؛ لأنها مجرد خطبة هزلية، ولن تصل لمرحلة الجد أبداً.

لن تنكر أنه بارع بما يخص إقناع الطرف الآخر بوجهة نظره، وهذا يرجع لثباته الانفعالي الزائد والذي قد يصل لمرحلة «الديب فيرز».

ومن خلال حديثه مع أمها كانت هناك مفاجأة أخرى صدمتها هي شخصياً؛ فعندما سألتها أمها عن مؤهله ووظيفته وخلافه، ورغم اتفاق مهجة معه على إخفاء تلك النقطة عنها، ولكنه قال:

– أنا بكالوريوس إعلام وشغال سيكوري تي (حارس بوابة) في البنك الي بتشتغل فيه مهجة.

وكان استنكار أمها متوقعاً:

– سيكوري تي!

ولكن مهجة كانت بصدمة أخرى ألا وهي مؤهله العالي، بل وأنه قد تخرج في كلية تعد من كليات القمة، وقالت أمها بنبرة لائمة أو تشعر بالخيبة لا فارق:

– وملقتش شغلانة أحسن من دي يابني!

وبرر حلیم:

– مالها الشغلانة! مرتب مش بطل ولا هي عيب ولا حرام.

وقالت شيرين بعجلة:

– أكيد يا حبيبي محدش يقدر يقول غير كده.

وحينها تدخلت والدة حليم لتقطع هذا الحديث الثقيل بزغرودة، ورغم استشعار مهجة عدم راحة أمها في بعض النقاط إلا أنها أثرت الصمت؛ لشعورها كونه رجلاً يمكن الاعتماد عليه بعيداً عن ظروفه السيئة والتي لا دخل له بها.

وكما أنه اختيار ابنتها وهي حُرّة ما دامت ستتزوج بالنهاية ويرتاح قلبها من ناحيتها.

عادت برأسها المشوش للحفل مرة أخرى ومعه غيظها؛ فمنذ ذلك اليوم لم تتحدث معه مثل العالم والناس.

– هو أنت ليه مقلتليش إنك خريج إعلام قبل كده!

– إنتي مسألتيش.

قالت معترضة:

– هو لازم أسأل!

وإجابته حاضرة كالعادة:

– هو ده يفرق في اتفاقنا!

صمتت مهجة لهنيهة ثم أخبرته:

– ميفرقش بس يعني الموضوع غريب شوية.

وأردفت:

– إيه علاقة الإعلام بكونك سيكيورتي في بنك!

اقترب من أذنها بهمس، ومن ينظر نحوهما يظن أن عريس يغازل عروسه بليلة خطبتهما:

– حاضر هروح اقف على بوابة مدينة الإنتاج الإعلامي عشان

تبقى تناسب مؤهلي.

أيسخر منها حضرته!

جزت على أسنانها واشتمت تعذيبه حتى القتل؛ علَّ غيظها منه يقل منسوبه، وحتى إن تلك الرغبة كانت ظاهرة بوضوح على ملامحها، وهو ما شاء الله عليه الآن تعمد أن يضغط عليها أكثر بقوله مبتسمًا:

– اضحكي، الناس بتبص علينا.

وأردف:

– ولا عايزة صحابك يفتكروكي مخطوبة غصب!

نظرت نحوهم لتلمح مراقبة الحضور لها بالفعل وهي مضطربة بأن تتقن اللعبة التي وضعت قوانينها حتى النهاية، وابتسمت، ورغم أن الابتسامة كاذبة، ولكنها كانت مُتقنة عن حق وأسرة، وأظهرتها بمنتهى السعادة.

بعد سبعة أشهر...

رحلت من العمل، وهو تبعها ولحها وهي تتجه نحو موقف «الميكروباصات» بينما اتجه هو لسيارته ليجدها لا تعمل بأي شكل وصورة.

تأفف بعدما فقد الأمل في إعادة تشغيلها وركل السيارة مرددًا:

– هو يوم باين من أوله.

اتجه نحو الموقف هو الآخر ليتفاجئ بعد قعوده بالمقعد أن من يجاوره هي نفسها موظفته بالشركة «ريم إحسان»!

وكان تعليقه «وماله عادي بتحصل».

وخاصة أنها لم تظهر اهتمامًا بالأمر، بل وقامت بلصق وجهها داخل زجاج السيارة حتى اكتمل عدد ركابها وانطلق بها سائقها. حاولت ريم تشغيل هاتفها المعطل، ولم تنجح، وهو لم يعرض أن تستخدم هاتفه مرة أخرى وكما قالت في سرها «أحسن برده».

وبدأت تظهر معاناة الصفيق مع «الميكروباص» فهو قد اعتاد على سيارته حد أن ينسى تلك المغامرات بداية من حرارة الجو وسخونة العربة وحتى صوت «الكاسيت» العالي والذي برأيه أساس ضوضاء المدينة.

الوجع أه م الوجع مين زي داقه في الزمان ده وجربه
ياما ابتلاني بالهموم ياما الدموع نزلت في كاسي وانا اشربه
والأغنية تُعاد عشر مرات في الثانية حتى انتفخ رأسه وقال زاعماً
بالسائق:

– وطي الكاسيت يا أسطا، دماغنا ورمت.

وحينها ابتسمت ريم وهو شهد ابتسامتها، ولو تمتلك بعض الشجاعة لكانت قالت له «يا لك من فرفور!» ولكن ولأن الجبن سيد الأخلاق هي كتمت سخريتها حتى النهاية.

وسيف بعالم آخر، بهذا السائق الذي يعيش بكوكب زحل، ولا ينتبه لاعتراضه ولا اعتراض باقي الركاب، يسير في طريقه ولا ينتبه لأحد.
«برنس مع نفسه».

وقرر سيف التطنيش وعدي يا ليلة وهو يوم باين من أوله أساساً. ومرت عدة دقائق بعدها في سلام، فقط عدة دقائق انقلب الحال بعدها مائة وثمانون درجة بعد أن برزت سيارة من العدم لتصطدم بسيارتهم بقوة.

جلبة عالية، صراخ، والشهادة تتكرر أكثر من مرة، زجاج محطم، ويصمت صوت المطرب نهائياً فلا مجال لكلمات الوجع بالأغنية؛ فهو أصبح فعلاً يشعر به جميع راكبي الميكروباص، أو من بقي منهم على قيد الحياة، وأخيراً صمت تام لا تخترقه إلا بعض الأنفاس اللاهثة!

الفصل العاشر

(انتفاضة إلابر)

نظرت للساعة ووجدتها تخطت الساعة السابعة صباحًا، ولو علمت أن هذا اليوم يُعد مصيريًا بالنسبة إليها لنهضت منذ اليوم الذي يسبقه، شرعت بتحضير الفطور وتناولته مع أبيها بنصف اشتها، وارتدت ملابسها وهربت قبل استيقاظ والدتها وتفاديًا لأي تصادم معها.

لقد أعلنت الحرب عليها مؤخرًا، بدأت تشعر بلا مبالاة منها وهذا ما يغيظها، تخبرها أنها تنفخ «بقربة مقطوعة» ولا أمل منها لا في زواج ولا غيره.

وهي قد كلت كل شيء، كلت المنزل والعيسان والزواج والمقابلات السخيفة التي باتت تحدث من دون علمها الآن، كلت العمل وروتينه والصفيق ومعاملته الخشنة لها، وانتظاره لأي خطأ منها حتى تثبت صحة نظريته فيها كونها فاشلة بأي شكل، كلت الزحام، المواصلات، الثثرة وزمامير السيارات، هي ربما قد تخطت أقصى مراحل الملل ووصل بها الحال للزهد.

باتت تبتمس دون تركيز، تشرذم معظم الأوقات، لا تستشعر حلاوة أي شيء باختصار هي في مرحلة «كله محصل بعضه».

ذهبت للعمل بمزاج غائب، ووضعت حقيبتها على المنضدة، ثم ألقت التحية على زملائها بالمكتب «نوال وحسنا» فسبعة أشهر لم يتغير في حياة ريم أي شيء سوى ريم، نفسها وزهدا الذي أعلنته حتى من دون أن توضح، وبالطبع هذا لا يعجب أمها، بل أنه بات مصدرًا لشجار دائم بينهما.

هزت رأسها نافضة كل تلك الأفكار، هي الآن بالعمل وعلما التركيز به، لا الشرود بأشياء أخرى تضايقها.

ظلت تشرد الآن ولكن بالعمل، وهذا جيد رياه لولاه كانت ستفقد عقلها بكل تأكيد.

وما بين تسجيل الواردات على الحاسوب، وما بين عمل إحصائيات تخص دواء معين بالسوق قد طلبها منها «مستر سيف» شخصياً انتهى الدوام.

انتهى دون أن تحتك بالأشخاص قدر المستطاع وخاصة هو؛ حضرة المدير الذي مجرد رؤيتها له باتت تزيد من حالة توترها؛ وربما لأنها كلما تراه تتذكر محاولات أمها السابقة بجره نحو شباكها، وهي غبية؛ لأنها لم تفهم منذ البداية كونها ليست من طرازه المفضل، طاوعت أمها وحلمت بسراب دون أن تفهم الأوضاع حولها، وبالْحَقِيقَة هي لا تفعل سوى طاعتها منذ أن ولدت في تلك الحياة وخرجت من رحمها. والآن كفي. عذراً ريم تنتفض، تتمرد، تكتب سطرًا مختلفًا وتلك المرة بنفسها، ولكن لا تفرحن هكذا؛ فتلك الانتفاضة لم تهز بأمر شعرة، بل وحتى أنها زادت بها إصرارًا وحماسة.

وصلت أفكارها لتلك النقطة بينما كانت تسير مع التفاقة الرواق لتستقل الدرج، ومع سوء حظها كان هو ينزل من الأعلى ولم ينتبه لها.

«بوووووم، اصطدام».

وسقوط هاتفها من يديها ليرتطم بالأرضية بقوة، وتتناثر محتوياته هذا غير كسر بشاشته.

«الأول».

بكت، كالعادة درامية نكدية أصيلة، تبكي على أتفه الأشياء، وهذا هاتفها الأقرب إليها من كل هذا العالم، حتى إنها كادت تصرخ.

«ابني حبيبي رد عليا».

ساعدتها سيف في جمع بقايا هاتفها، وشرع بتشغيله، ولكن لم

يفلح؛ فمسحت ريم دموعها، ثم مدت يديها لتتناول هاتفها منه مخبرة إياه:

– هاصلحه في طريقي مش مشكلة.

ونبرة صوتها كانت مجهدة كما نفسها التي ليست بخير أبداً، ولم يسألها عن حالها؛ لأنها هكذا منذ فترة، ولو سألها ماذا ستخبره مثلاً! إنها تعيش ضغطاً هائلاً من أمها، وانفجر عليها الآن، أو انفجر تحديداً منذ ليلة خطبة مهجة!

– تحبي تستخدمني تليفوني!

ونفت قائلة:

– مفيش داعي.

ورحلت وتبعها ثم لمحها تتحرك نحو موقف «الميكروباصات» بينما اتجه هو لسيارته ليجهدها لا تعمل بأي شكل وصورة، ولا تقبل التحرك من مكانها، ولم يفهم كيف حدث هذا فجأة! «الثاني».

وتأفف بعدما ركل السيارة مردداً:

– هو يوم باين من أوله.

اتجه بعدما يأس تماماً من السيارة نحو موقف «الميكروباصات» هو الآخر ليتفاجأ بعد قعوده أن من يجاوره بالمقعد هي نفسها موظفته الشابة «ريم إحسان»!

ويا لها من صدفة عجيبة!

انتظرت حتى رحيل الجميع كي تلتقيه، ليس لأنه خطيها، ولكن لأنه مواعدهم الشهري للقبض حسب بنود عقد الخطبة.

ذلك العقد الذي لم يُكتب لدى محامٍ، ولم تُوضع بنوده على ورق، ولكنه عقد شفهي، أو كما أخبرها حليم يومًا أنه «كلام رجالة».

وكان يقصد بـ«الرجالة» كلاهما هو وهي، وأقسم لها أنه لن يحتال، وينتظر منها تصرف مماثل، وبالفعل لم يحدث أي إخلال لبنود الاتفاق عكس ما توقعت، هو لم يخبر أي شخص عن الموضوع، ولم يطلب منها مليمًا زائدًا، وهي لم تتأخر عن الدفع؛ فمجرد أن تتحصل على راتبها تمنحه أمواله، وهو يأخذها دون تردد، ولو كانت في البداية يضايقها عدم ترده هذا؛ فهي الآن باتت تتعامل مع الوضع بطريقة أكثر هدوءًا، أو كما يقولون «business is business».

– فلوسك أهي.

وناولته أوراق البنكنوت الجديدة، ووضعها في جيبه من دون أن يقوم بعدها عملاً بمبدأ الثقة الذي قرر كلاهما اعتناقه بعد فترة من التوتر كان خلالها كل منهما يحاول فرض رأيه على الآخر والسيطرة على زمام الأمور.

والآن الأوضاع استقرت نوعًا ما، بدأت مهجة تقتنع كونه عرض وطلب، مكسب ونفع، وحتى إنها تحمل همّ الرجوع لمقابلات الصالونات والإهانة التي كانت تشعر بكل مرة تُعرضها فيها أمها لهذا الموقف؛ فهي إلى الآن لا تنسى أبدًا أن الأمر وصل بأن تقاسمت جلسة عريس مع ابنة خالتها دون علم منها ليختار هو في النهاية ما تستويه منهن، وكأنهن حبي طماطم، أو سمنتي كريستال «البلدي والفلاحي». قالت لحليم مبتسمة:

– ماما مستنياك على الغدا النهارده.

نظر لساعته فقالت محذرة:

– مينفعش تعتذر عشان متشكش فينا.

وهو أخبرها ببروده المعتاد:

– على فكرة إحنا لو مخطوبين بجد كان ممكن اعتذر عادي.

وهمت بالقول كي تذكره إذا فكر أن ينسى:

– بس إحنا مش مخطوبين عادي.

وهو قال ساخرًا:

– عارف.

وأردف:

– وأنا حتى معترضتش ولا قلت إني مش جاي.

والمعنى يوازي «اهدي يا حريقة».

قالت مهجة بابتسامة ظفر وليدة اللحظة:

– كده متفقين.

سألها:

– إنتي خلصتي؟

وأجابت:

– هقفل بس حاجتي والكمبيوتر وهمشي علطول.

وسبقها هو للخارج وهي تبعته بنظراته، تذكرت اليوم التالي للخطبة مباشرة؛ فلقد كانت متأخرة على الدوام بنصف ساعة، حتى إنها كانت تركض، وعندما مرت من أمام البوابة حيّت حليم بابتسامة عجولة الغرض منها «سبك الدور» وبمجرد أن تحركت عدة خطوات أخرى استمعت لشجار لـ «رب السما».

حينها كان حليم يطرق على رأس أنور من الخلف ويخبره بتحذير وبحركة «خالد صالح» بفيلم «تيتو» و «أنا بابا يلا»:

– لو بصتلها كده تاني هفقعلك عنيك الاتنين.

وهي لا تحتاج أن تتخيل ماهية نظرات أنور لها، نظراته دومًا

عاشقة، وتحمل إليها احتياجًا، ويومها كان تحمل بعض الندم أيضًا. حتى ولو كان يمتلك بعض الشكوك في صحة تلك الخطبة، وأنها ما هي إلا استكمال لمشروعه الذي فشل بسبب تحكيمات أمه، وأن حلیم بدوره قد سعى إليه بنفسه، ولكن حدة حلیم في التعامل معه هذا اليوم لم تمنحه الفرصة لأي مواجهة قد تحدث.

وأعجبها هذا الموقف، حتى إنها التفتت تتابع حديثهما بسعادة، ونسيت التأخير والدوام وخلافه ولم تكن سعادتها نابعة من شعورها بغيرته عليها «تؤتؤ» تلك أبدأ ليست مهجة، ولكن سعادتها كانت لرغبات دموية تحملها نحو هذا الأنور، ومنحها إياها حلیم و «أحسن» و «على الله يفقهوملك بجد».

وذات مرة في ساعة صفا على غير العادة سألته:

– هو إنت عملت كده ليه مع أنور؟

وهو «فصيل» ككل مرة أخبرها بديناميكية:

– كان لازم يحترم الوضع الجديد ويعرف حدوده لإنك قدام الناس خطيبيتي وإني استحالة اسمح إن حد يقول عني...

ولم ينطق الكلمة كي لا يجرح مشاعرها الرقيقة، على أساس أن مهجة رقيقة، وهذا بالطبع قبل أن يكتشف المزيد عنها من مطواة «تويتي» ولسان طويل بريء من كلمات الرقة ومعاني الأنوثة.

وبعدها انتقل أنور بكامل رغبته لفرع آخر لنفس البنك بعد أن استعان بخدمات أمه التي استخدمت طريقة الزن على مدام حسنية صديقتها التي تعمل بالحسابات.

اضطر بعدها حلیم لمواصلة دوام اليوم بأكمله لفترة لا بأس بها حتى تعطفوا عليه، وقاموا بتعيين غيره، ولكنه كان قد «اتمرمط» وحتى إنه لمح لمهجة أن هذا بسبب خطبتهم المزعومة، وأنه قد يستحق

تعويضًا عنها، ولكن للأمانة لم يطلقها منها صراحة.

«سوكيوت يا حليم».

خرجت من بوابة البنك وكانت في انتظاره، وقد أتى وليس بمفرده؛ فقد كانت معه «فزية» ومن لا يعرف الفزية؛ فهي نوع من أنواع الدراجات النارية أو الموتوسيكلات.

– اركبي.

واندهاشها كان طاغيًا على الموقف.

– إيه!

– اركبي اخلصي.

وتلك المرة كانت نبرته أعلى وأحد، قفزت خلفه وتمسكت بمقعدها؛ فهي طبعًا لن تتشبث بخصر رجل وبعد أن تحركا بقليل سألته:

– هو إنت بتزق لي!

وهو بالفعل قد صاح بها، والآن يجب أن يراوغ.

– طلعي وردية بليل، خدت الفزية من عماد اروح بيها من عندكم

صد رد.

وهي ليست «هبلية» كي تنسى أو تنسى عن حديثها الأصلي، هي مهجة «السترونج» والتي لن تقبل بأن يتحكم بها رجل ولو كان خطيبًا مزيقًا، والمطواة خير دليل.

شرد قليلاً وتذكر المرة الأولى التي خرجا فيها معًا بعد الخطبة إتقانًا للعبة خاصتهما، وعندها سألتها هامسًا بأذنيها ونبرته الساخرة المعتادة التي تغيظها:

– مش خايفة مي!

– هخاف ليه؟

– يعني مش ممكن اخطفك واطلب فدية!
وأردف غامزًا:

– أو ممكن استغل الموقف مثلاً.
وهي تصنعت دور الرجل صغير الحجم والهيئة في مسرحية الهجعي.
– متقدرش.

وبعدها أخبرته:
– أنا أقدر أذافع عن نفسي كويس قوي.

وحينها سألها مبتسمًا:
– إزاي بقا!

– معايا مطوة.

وتعجب، تلك الرقيقة الناعمة والمدللة تحمل معها مطواة، كيف
بحق الله! وعندما استشعرت أنه لا يصدقها أخرجتها، مطواة بينك
توييتي تليق بها، وابتسم وتلك المرة ابتسامته انفجرت حد الضحك.
قربتها من وجهه قائلة:

– تحب تجربها!

والمعنى الذي وصله.

«هتسكت ولا أغزك!»

وخرج من شروده، وبعد أن حضرت ابتسامته مع الموقف على
صوتها:

– إنت بتضحك على إيه!

وأردفت متسائلة:

– بسألك، إنت كنت فعلاً بتزقق من شوية!

وهو أخبرها كي بهاودها:

– بيتهياًلك.

– لا كنت بتزعم، إنت فاكرني عبيطة وهعديهالك!

وبعدها أخبرته كما يحدث في الأفلام بسيارة البطل بعد شجار مع حبيبته والتي تخبره باكية:

– نزلني هنا.

ولكن الموقف لا يليق أبداً مع «الفزب» أو الموتوسيكلات وزحام القاهرة والجو الحار.

– إنتي هبلة؟ أنزلك فين.

وحينها صاحت به:

– احترم نفسك.

وأضافت بعصبية بالغة:

– وبقولك نزلني.

وهو لم يأبه لارتفاع نبرتها، بل قاد دراجته النارية بسرعة أقوى جعلتها تتمسك بمقعدها وتصمت تماماً. صمتت حتى وصلا لأمام منزلها وبعدها صعدت على الدرج وتركته للأسفل، ولولا أمها لكانت طردته أشر طردة. من يظن نفسه حتى يزعم بمحسن! ركضت على الدرج وتبعها ببطء، فتحت باب الشقة بزعايبب أمشير خاصتها وقد نست تماماً أن تفصل «الفيشة» وتقوم بتركيب «الوش الكيوت» وتجيد دور «كل شيء على خير ما يرام».

سألتها أمها عندما وجدت وجهها أحمر وملاحظها لا تفسر:

– هو حليم مش جاي!

أشارت بوجهها للخلف ولم تنظر نحوه، قد نست من شدة غضبها أن تتدارك الموقف قبل دخولها للشقة و «خلاص اللي حصل حصل»، نظرت أمها نحو حليم الذي كان يصعد الدرج بصمت هو الآخر فسألتها:

– هو إنتو متخانقين؟

– تؤ.

وقالتها ورحلت للداخل، غسلت وجهها واستعادت هدوءها، وساعدت أمها بتحضير الطعام تحت نظراتها المراقبة، و «على الله يطفحه».

وكانت سفرة عامرة «محشي وبط وفراخ وحمام ومكرونه باشاميل وسلطة باذنجان».

– إيه يا ماما ده كله؟

وكان أمها كانت تسعى لخطبتها كي تخرج كل طاقتها وفنونها الإبداعية المطبخية.

– هو خطيبك بيحي يتغدى عندنا كل يوم!

استشعرت رائحة نادر بالأمر فكمية الأكل لا تناسب عزومة لفرد.

– هو نادر هيحي ولا إيه!

قالت أمها نافية:

– يحي فين بس ويسيب منال لوحدها، أنا هاخذ منه وأنا رايحلم بليل يتغدوا بيه بكرة.

وتنهدت:

– مش كانت جت قعدت هنا قدام عيني لحد الولادة معرفش الدماغ الناشفة دي جايبتها منين.

وقالتها بينما كانت تطرق على رأس مهجة والتي تغيرت ملامحها؛ خوفًا على شقيقتها التي عاشت أيامًا صعبة منذ بداية منتصف حملها من ضغط مرتفع لزلزال زائد، وحتى إنها الآن لا تستطيع التحرك تمامًا من فراشها.

– ربنا يقومها بالسلامة ويطمنا عليها.

– آمين.

وقبل أن تخرج خارج المطبخ بطبق المحشي أخبرتها:
– ازعلي مع خطيبك براحتك بس اتعودي انه ميكونش بينكم خصام.

وتأففت مهجة قبل أن ترحل للصالون:

– يوه يا ماما، إنتي كل حاجة هتعملي منها حوار، مفيش حاجة.
خرجت خلف ابنتها وجلست مقابل حليم والذي أصبحت تعامله كابن لها لم تلده.

قبل أن ينتهي طبقه تضع له المزيد من الطعام، وتقسم أن يأكله، وهي أكلها شهي، ولكن هو لم يعد بمعدته أي مكان فارغ، واللعنة هي ما زالت تتعامل معه كما كانت «نفيسة» تفعل مع «حنفي» بمسرحية المتزوجون.

«عشان تسمن وتريرب وتكليبظ».

ومهجة من داخلها تدعو بغیظ أن يقف الطعام في حلقه ويقتله.

ظلام مقيت يتسلل إليه بعض الضوء ببطء، أصوات عالية من حولها وجلبة شديدة بينما هي لم تسترجع كامل وعيها بعد، رائحة مستشفى تسببت في استيقاظها، ولم تفهم للوهلة الأولى هل هي ماتت أم أنها ما زالت من ضمن الأحياء!

أنّ صوتها وجعًا ومنه انتهت للممرضة التي تُقطب جرحها الغائر والذي امتد لنصف ذراعها تقريبًا.

– أنا فين؟

وابتسمت لها الممرضة قبل أن ترحل على عجلة دون أن تمنحها الإجابة المنتظرة.

— حمد الله على سلامتک.

وبعدھا اعتصرت ذاكرتها ونظرت خلفها تتأمل الأوضاع؛ وجوه ملطخة بالدماء والكثير من المتوفين أو فاقدى الوعي لا تعلم، وبعض النساء يبكين بحرقة على فقيد لهم على ما يبدو.

تذكرت الحادثة والسيارة التي تصادمت معهم بقوة جعلت خاصتهم تتدحرج عدة مرات قبل أن تستقر على الوضع المقلوب، وآخر ما مر على رأسها هو رؤيتها لمديرها الصفيق، والدماء تسيل من رأسه وأنفه هذا قبل أن تفقد الوعي هي الأخرى.

— مسترسيف!

وشهقت عندما وضعت احتمالية أنه قد مات الآن!

حاولت النهوض، ولكن لم تفلح، يبدو أن هناك كسرًا ما بذراعها يمنعها من الاتكاء عليه، ومن شدة الوجع أرادت الصراخ أو طلب المساعدة، ولكن صوتها كان مبوحًا من أثر «الخضة» ولم يسعفها وسط كل تلك الضوضاء التي تحدث بأي مستشفى حكومي وقت الحوادث، وبعد فشلت محاولاتها في التحرك من هذا السير اللعين بكت، وبعدھا جاءت ممرضة غامضة صامتة أخرى علققت بذراعها بعض المحاليل نامت على أثرها بعض الوقت.

استطاعت الوصول لعائلتها بعد أن استعانت بهاتف إحدى الممرضات، وھا هي الآن قد خرجت من المشفى بصحبة أمها الباكية وأبيها «المخضوض عليها» وعقلها تركته هناك معه.

ما علمته من المشفى أنه قد تعرض لتزيف بالمخ وسيخضع لعملية جراحية بعد قليل، ولم يكن بصحبته أي أغراض شخصية تدل على هويته. لم تكن لديها أدنى الرغبة في الخروج وتركه، ولم تتحرك إلا

بعدما وعدتها مہجۃ سراً بأنها سوف تذهب للشركة في الصباح الباكر، وتخبرهم عن الحادثة والمشفى القابع فيه حتى يتسنى لأهله الوصول إليه.

كانت تعلم أن تلك الليلة الطويلة لن تمر. قتلها التفكير، هل هو على قيد الحياة؟ هل قد وصل أهله إليه بالفعل؟ هل استيقظ أم أنه ما زال في غفوته؟

لم تستطع النوم بالطبع، وهل هناك نوم في تلك الظروف؛ فصورة الحادثة لا تفارقها ومنظر الدماء وهي تسيل من أنفه أمام عينها طوال الوقت.

لم تتحمل، وقبل أن تشرق الشمس بكامل هيئتها كانت قد هربت للخارج قبل استيقاظ الجميع مع ترك ملاحظة على ورقة صغيرة لمن في المنزل بأن هناك صديقة لها بالعمل بحالة خطيرة وستذهب للاطمئنان عليها سريعاً وتعود.

وها هي الآن تدخل من بوابة المشفى، تتوسل للحارس أن يسمح لها بالدخول وقد شفق عليها والآن تقف أمامه وهو نائم في عالم آخر لا حول له ولا قوة.

سالت دموعها، فأن يكون هذا الصفيق الجبروت أمامها بكل هذا السكون والاستسلام كان غريباً عليها كل الشيء.

استسلامه أثار إنسانيتها وشعرت بالشفقة عليه، بل وظلت تبتهل وتدعو الله أن يعود لأهله من جديد. انتهت لصوت الطبيب يخبرها:

— هو عمل عملية امبارح ومتخافيش يا مدام.

وارتبكت... هو يفكر بسبب كونها زوجته؛ بسبب دموعها التي تسيل لأجله، ولكن لا يهم الآن سواه.

— هو كويس؟

وأخبرها قبل أن يرحل لمريض آخر:

– مستنينه نفوق ونشوف درجة الوعي.

وانتظاره قد طال لساعتين وأكثر، وبمجرد أن استيقظ استقبلته بجبيرتها ودموع الفرح خاصتها.

والمفاجأة أنه كان يسألها:

– إنتي مين؟

اندهشت، وبكاؤها ما زال مستمرًا والآن لا تفهم أي شيء. مؤكدًا هذا الشخص يختبر صبرها، لا لا هو يقلل منها. انتهت له يقول:

– أنا فين؟ هو حصل إيه؟

– إنت مش فاكرا الحادثة؟

وكان سؤالها عن شيء آخر.

«هل لا تتذكرني بالفعل!»

والكمالة أم أنك «بتستعبط»!

أشار لها بالنفي لينقبض قلبها.

«ماذا يحدث يا إلهي!»

– حمد الله على سلامتك يا بطل.

وكانت تلك كلمات الطبيب وهو لا يعلم لماذا هو هنا أو لمّ منحه هذا الطبيب بطولة!

وبعدها أخبر ريم التي ما زالت واجمة:

– ما تخافيش يا مدام هيبقى كويس إن شاء الله.

وبعدها نظر كلاهما للآخر في صدمة، وبالنهاية لم يفهم أحد، وقبل أن يطرح عليها المزيد من الأسئلة كان قد استسلم للنعاس وغفا.

بعد قليل وصل أهله وقد علمت هذا من صوت امرأة بالخارج تسأل

عنه بلهات، وقد دلثها الممرضة على غرفته، وأثناء فتحها لباب الغرفة كانت قد وجدت أمه مقابلها؛ فتسببت لها في «خضة» لحظية، وقد رمقتها الأخيرة بتعجب بعدما وجدت آثار الدموع واضحة على عيونها. أمسكت جبيرتها بيدها الأخرى ثم انصرفت من أمامها هاربة. عادت للمنزل ولأمها التي نهرتها؛ بسبب خروجها من المنزل وعدم التزامها للراحة كما أمرها الطبيب بالمشفى.

بعد عدة أيام...

كان طوال الوقت يراقبها، يشعر بغرابة، تيه وضياع فهي بشكل ما تمثل فجوة وفترة مفقودة من حياته. تم نقله لمشفى آخر أكثر عناية عن سابقتهما، وهو قد تحسن قليلاً الآن، ولكن لم يفهم لم يتذكر الجميع عداها!

لن ينسى استقبالها له بعد عودته للحياة بكل تلك الدموع واللهفة، وعندما سألتها تلعثمت وارتبكت ولم يفهم منها أي شيء. انتظر خروج والدته من الغرفة؛ كي تجيب على هاتفها وأعاد سؤاله بإصرار:

— إنتي مين؟

وقد أجابته بعد لحظات حسمت خلالهم حيرتها نهائياً:

— أنا أم عيالك يا سيف.

الفصل الحادي عشر

(قيل إن الحقيقة قد تبدأ بكذبة)

مرت عدة أيام ومنزلهم كان يعج بالضيوف؛ الأهل والأقارب والأحباب ذهبوا للاطمئنان على المسكينة التي كانت على مشارف الموت لولا رحمة المولى.

وفي البداية كان مجرد اطمئنان عادي دون أن غايات أو نيات سيئة، ومع اليوم الثالث تحديداً سعت أمها بأن تسلك نهجاً آخر ألا وهو «استغلال الموقف».

بدأت في البداية تتحدث أمام الضيوف في وسط الحديث عن مميزات كونه فتاة متعددة البرامج «غسيل وتنظيف ومطبخ وتنفيذ سجادة بذراع واحد وتلميع الحوائط حتى تكاد تلمح انعكاس صورتك فيها على عكس فتيات تلك الأيام»، وكأنها «سوبر ريم».

ورغم عدم مصداقية حديث أمها، ورغم نظرات ريم التي تؤكد عكس ما تقوله، ولكن هناك بعض السيدات كن يعودن بالنظر إليها بكل فخر وامتنان.

«رينا يخليها لك».

«عقبال ما تشوفيها عروسة».

«كانت فين ريم قبل ما ابني يتجوز خايبة الرجاء».

وتقصد «مرات ابنها».

وحينها قالت أم ريم في داخلها، ورغم أنها لم تنطقها إلا أنها كانت مقروءة على ملامحها.

«كانت موجودة يا حبيبتي بس إنتي اللي اتعميتي».

وريم وسط كل هذا الهراء تارة تهرب وتتحجج بالنوم، وتارة تجبرها

أمها على القعود؛ فتظل تشاهد ما يحدث دون مشاركة، وتلك الأمور لو كانت بتأخذها ببساطة في الماضي إلا أنها الآن «يركبها عفريت» بسببها، ولكن لا مقاومة قد تفيد مع «الحاجة أم ريم»؛ فالاستسلام هو الحل السلي لجميع الأطراف.

«العمر مش بعزقة يا بيه».

جاء المنقذ من السماء، والحمد لله، واستغلت ريم الفرصة بأن هربت عن طريقها من مجالسة الضيوف المرغمة عليها طبقًا لخطة الست الوالدة باستغلال الموقف للحصول على عريس الغفلة.

رن هاتفها وكانت من تتصل بها نوال، هي لم تستطع الوصول إليها بعد بسبب هاتفها المعطل وحمدًا لله قد أعاده أبيها من الصيانة منذ ساعات. كانت خلاصة المكالمة وسط الكثير من الثرثرة والسلامات.

– وحشتيني المكتب مضلم من غيرك.

– وإنتي كمان.

– متعرفيش مستر سيف حالته إيه دلوقت!

– نقلوه مستشفى تانية وبيقولوا غالبًا جاله فقدان ذاكرة.

ولازمت كلمات الأخيرة شهقة من ريم.

حسنًا هو لم يتعرفها هذا اليوم، ولكنها ظنت أنه شيء عابر بسبب العملية أو النزيف، أو حتى على سبيل المفاجأة.

لا تعلم لم تتعامل معه وكأنه «مستر اكس» أو بطل «فيلم هندي قديم» مهما حدث له، ومهما تعرض من طعنات لن يتأثر، وحتى ولو قتلوه من الممكن أن يستيقظ آخر السهرة «وعادي».

– لا حول ولا قوة إلا بالله، طب أهله عاملين إيه!

– حالتهم تصعب على الكافر والله.

واخترقت أم ريم المكالمة بنداها المزعج المتواصل حتى تعود
تجلس مع الضيوف، ولكنها سدت أذنيها وذهبت لغرفتها وأغلقت بابها
عليها بالمزلاج. أرادت أن تصرخ في وجهها:

– بلاريم بلا زفت أنا زهقت طهقت طفحت ارحميني.

ولكن كالعادة لم تمتلك أدنى درجة من الشجاعة.

وقفت بالنافذة تستنشق بعض الهواء وبعدها وجدت نفسها تتأمل
الشجرة المقابلة لمنزلهم وبدأت تفكر بأن تلك الشجرة ربما أسعد منها.
ريكا أسعد منها. ذلك المقعد البلاستيكي المجاور لها أسعد منها
هي فقط البائسة، وكأن كُتب عليها مقابلة «عاهات» المنطقة
والمناطق المجاورة.

حسناً هي ليست ضد زواج الصالونات مثل «مهجة» ابنة خالتها،
بل وترى أنه مثال للتعارف الناجح، ولكنها ضد استخدام أمها السيئ له
وتعرضها لمقابلة أشخاص غير ملائمين لها بالمرّة.

فكرت، ذلك الأمر لن ينتهي سوى بإما أن تتزوج معتوهاً أو
بانتحارها في النهاية. ظلت تدور بالغرفة وتعود، تنهض وتجلس، تزفر
وتشهق. تذكرت الصفيق، في البداية شفقت على حالته، والآن هي تحقد
عليه؛ ليتها تفقد الذاكرة هي الأخرى كي تنسى تاريخ حياتها مع الزواج
والعرسان. فقدان الذاكرة في ذلك الزمن نعمة كبيرة، وبعدها توقفت
عند تلك النقطة. هو لا يتذكر، لا يتذكر وجودها من عدمه، ومعنى أنه
لم يتذكرها أنها سقطت من تلك الذاكرة. هو الآن صفحة بيضاء من
الممكن أن تتشكل بأي طريقة، وقد وسوس إليها الشيطان بفكرة رأيتها
حلاً قد ينقذها من كل ما تتعرض له من مضايقات؛ بسبب أنها ليست
خطيبة أو زوجة أحدهم.

وبعد أن جاءت الفكرة تجمدت...

وسيف ولو كان «صفيق» فهو عريس لقطعة، حلم لأي فتاة وتلك الفرصة لو اغتنمتها ستضمن حياةً أفضل، راحة بال ومستقبلاً.

ولن تنكر هي بفترة من الفترات قد انجذبت نحوه، ومع خطط أمها للإيقاع به بدأت تنسج أحلامها معه كونه بطل حكايتها وزج المستقبل، وهو كان الوحيد الذي قد لائمه هذا الحلم وانضم لخيالها.

نفضت الأفكار من رأسها، هذا خداع وتلك أبداً ليست أخلاقها. استغلال واضح لظروف الشباب، ظلم منها له، وبعدها فكرت وماذا بشأن ما تتعرض له هي من ظلم!

وكونها لا ترى في هذا العالم ما يلائم أحلامها سواه، وتلك الحادثة التي بدا لها وكأنها ليست صدفة، ألا يمنحها كل هذا علامات وإشارات! وما بين رغبتها القوية بتنفيذ الفكرة وما بين ترددها وشعورها بالخزي من نفسها ظلت تفاضل، وبعدها مر أمامها شريط حياتها، وقد تذكرت «عرسان الندامة» واحداً تلو الآخر.

امتألت عينها بالدموع وبعدها حسمت الأمر. فاز شيطانها.

وقفت أمام باب غرفته بالمشفى الجديد، وترددت في الدخول، وبعد دقائق التقطت أنفاسها وقررت الدخول، وداخلها يؤكد «مش هتفرق زيد زي عبيد»، «هيحصل إيه أكثر من اللي بيحصلك»، أو «إنت كده كده ميت» بصوت اللمبي.

وعندما دخلت للغرفة كان هو نائمًا ووحيدًا مع أمه، وكانت المسكينة تغفو على مقعدها هي الأخرى، وبمجرد أن وجدت الوضع هكذا أرادت الاستئذان، ولكن المرأة نهضت ورحبت بها وبعدها تذكرتها. تلك هي الباكية صاحبة الذراع المجبور والتي كانت بغرفة سيف بالعناية بعد الحادثة، والتي انصرفت دون أن تتفوه بكلمة وكأنها تهرب

منها!

أخبرتها بلطف:

– اتفضلي يا بنتي.

وريم قالت بابتسامة خجولة:

– مش عايزة أزعجكم، ممكن أبقى أجي وقت تاني.

وأجابتها بعدما أمسكت يدها مدخلة إياها للغرفة:

– كده كده هو هيصحي بعد شوية عشان معاد العلاج.

قعدت بالأريكة الموجودة بالقرب من الباب والسيدة جلست

بجانها.

همست ريم لتسألها:

– هو عامل إيه؟

تهددت وأغمضت عينها لتخبرها:

– الحمد لله، كنا فين وبقينا فين، ربنا نجاه.

– الحمد لله.

وبعدها سألتها:

– هو الدكتور قال إيه؟

وأرادت أن تشرح لها قدر ما فهمت من الطبيب فقالت:

– الدكتور قال هو ناسي آخر سنتين حسب ما اتكلم معاه واللي

قبل كده كله فإكره عادي.

وركزت قليلاً كي تتذكر ما قاله بالضبط ولم تنجح.

– هو قال عليه إيه اسم كده!

وشرعت ريم بالقول:

– فقدان ذاكرة جزئي.

فأومأت لها بالموافقة:

– أيوة، هوده بالظبط.

وبعدها سألتها:

– و إنتي تعرفي سيف منين بقا؟

– مستر سيف مديري في الشغل.

وعندما تذكرت حالتها الفوضاوية بالمشفى الآخر، أرادت أن تخبرها «مديرك بس!» ولكنها اكتفت بأن تلوي شفتيها، نهضت من جانبها وأيقظته وناولته الدواء وهو تفاجأ بوجودها فسعل، ناولته أمه كوب الماء أولاً وشرب، وبعدما هدأ تناول أدويته واستند على الوسادة التي ضبطت وضعيتها عليه خلف ظهره.

ظل يراقبها، يشعر بغرابة، تيه وضياح فبي بشكل ما تمثل فجوة وفترة مفقودة من حياته. لم هي بالتحديد لا يتذكرها! بل تقريباً قد تعرف كل الأشخاص الذين زاروه عداها، ورغم أن الطبيب أخبره عن حالته، وأنه من الممكن أنه قد تعرفها خلال العامين اللذين سقطوا من ذاكرته إلا أن غرابة الوضع الحالي وعدم اعتياده عليه بعد تجعله يفرق في الكثير من الأسئلة.

هل يعلم من هي بالفعل؟ أم أنها فرد جديد بحياته وقد تعرفت إليه خلال الحادثة مثلاً!

ولكنه لم ينس استقبالها له بعد عودته للحياة بعد الحادثة بكل تلك الدموع واللهفة، وعندما سألتها عن هويتها تلعثمت وارتبكت، ولم يفهم منها أي شيء.

انتظر خروج والدته من الغرفة كي تجيب على هاتفها وأعاد سؤاله بإصرار:

– إنتي مين؟

وقد أجابته بعد لحظات حسمت خلالهم حيرتها نهائياً:

– أنا أم عيالك يا سيف.

كررها كلماته بتعجب:

– عيالك!

وهي أوضحت بتلعنم تلك المرة:

– إنت كنت بتقولي كده.

وأردفت بتوتر:

– إنتي حبيبتي ومراتي وأم عيالي.

وشاحت بوجهها بعيداً عنه فنظراته حتى وهو بذلك الوضع تثير
رعباً خفياً داخلها.

«تماسكي ريم، لا تنهاري، لقد قطعتي خطوة كبيرة ولا تراجع

بعدها».

وأعادت النظر نحوه ووجدته لا يحيد بناظره عنها، ولم يبدُ عليه أي
تأثر أو حتى استغراب،

كان يبدو لها وكأنه كشف كذبتها!

و«الله يرحمك يا ريم كنتي طيبة وهبلة والله».

الفصل الثاني عشر

(خد قلبي و... راح)

إذن ساعتين...

خروج من العمل حتى السفارة للتقديم على الهجرة، والعمل بالخارج كما قرأت بالإعلان على صفحة الوظائف بالفيس بوك، ومثل كل مرة «طلبها مرفوض»، وتلك المرة لأن الوظيفة تخض الذكور.

ذكور ذكور وكأن كل شيء جميل بحياتها يدمره وجودهم بالحياة، وبطريق العودة وجدت نفسها ترمق كل الرجال برغبة بالغة بالانتقام والتعذيب حتى الموت، وبدأت تحلم بكوكب وردي اللون خالٍ من وجودهم. تكرههم؛ هم سبب طاقها السلبية في هذا الكوكب.

عادت سريعًا للعمل تدفن نفسها في شاشة الحاسوب وعصبيته واضحة عليها، وحليم انتبه، تبدو حانقة، دموع تراكمت في عيونها والسبب لا يفهمه.

هو حتى لا يعلم أين ذهبت وعادت فهي بعد آخر زيارة له لمنزلهم تتعامل معه «من تحت الضرس» ووقت اللزوم، وكأنها شعرت أنه قد تمادى واجتاز حدودًا لا حق له فيها؛ فقررت أن تعامله برسمية زائدة عقابًا له، وهو لم يهتم، لن يضع بباله حتى.

يفهم تغيراتها، ويتقبل تصرفاتها كما سجاتر التي يدللها رغم تأكده بأنها ستقتله يومًا. حسنًا هو يتقبل تغيرها، ولكن دموعها تلك كيف يتغاضى عنها!

والآن أنهت دوامها، وها هي تتحرك أمامه دون أن تنظر نحوه وكأنه ليس هنا، تبتلع المزيد من الهواء كي تمنع نفسها عن البكاء، تجاهد كي تتحكم بنفسها بمرحلة ما قبل الانفجار ويعلم أنها ستنجح.

ابتعدت عن جدران البنك وهو تبعها ببطء. لا يعلم لمّ هو يلتزم
البطء في كل ما يخصها.

لاحظ أنها تسلك طريقًا مختلفًا عن طريق منزلها، وهو لا يدري
أنها نفسها لا تعلم إلى أين ستقودها قدماها؛ هي هكذا تتصرف أوقات
نفورها من الواقع.

توقفت أمام حديقة عامة وظلت تتأمل اللافتة المهترأة غير
الواضحة الملامح، وفي النهاية حسمت قرارها، دخلت وقعدت على
مقعد رخامي بالقرب من عائلة يجلسون معًا على «النجيلة» الخضراء،
وربما هي اختارت ذلك المكان تحديدًا حتى تشعر بالأمان، وكي تحمي
نفسها من مضايقات الشباب «السافل» فهي ليست بحالة تسمح
لها بشجار أو توبيخ وخلافه وإن تطور الشجار لن تتراجع عن إخراج
مطواتها وارتكاب جريمة في وضوح النهار، وحتى إنها ترى الشيطان الآن
يتقافز أمام عينها قفزًا.

والبعد عن «المصائب» غنيمة.

هي بالأساس تحتاج فقط لمساحة خاصة مع نفسها، بعض
السكينة يا سادة كي تستعيد هدوءها من جديد!

ظلت تتأمل الأطفال وهم يلعبون معًا بكل بساطة، ابتسمت
تلقيًا، تذكرت ريم وكيف أن علاقتهما الوطيدة قد اهتزت بعض الشيء
منذ خطبتها؛ لأنها لم تصارحها بالأمر بكونها مجرد لعبة أو اتفاق، تعلم
طباع ريم جيدًا؛ فهي من خوفها عليها من الممكن أن تخبر خالتها بغرض
حمايتها.

كم تحتاج للتحدث معها، أن تعلم وجهة نظرها بالموضوع.

تفضفض لها عما بداخلها من ثورات، تعطيها الحل، تساعدها على
أي قرار. تخبرها عن الأشياء التي فعلتها والأشياء التي لم تفعلها، عن
مخاوفها، رغباتها وحتى عن صمتها، ولكن لن تفعلها، لن تجازف براحة

رأسها.

أمسكت رأسها بإبهامك، وبعدها تأففت، ثم قررت متابعة لعب الأطفال علَّها تدفن توترها بين ابتسامتهم ووجوههم البسيطة، كان الوضع بينهم هادئًا، مُسليًا وممتعًا حتى انقلب الحال فجأة، وتحول اللعب لمعركة على الكرة البلاستيكية!

روح رياضية عالية يتمتع بها أفراد الوطن «بسم الله ما شاء الله». وأحدهما من غضبه ألقى بالكرة بعيدًا لتستقر على أنف مهجة تحديدًا!!

صرخت مهجة من الألم، أو من الغضب لا فارق، وكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير، سألت دموعها فجأة ومن دون مقدمات وكأنها «بتلكك» حتى تبكي وتخرج هذا الفيضان الكامن، حتى إنها نفسها تعجبت، لم تفهم ماذا حدث لها!

شعور عبارة عن مزيج من الغضب، «المرمطة»، «الخنقة» نتاج «كبت» وتظاهر بأن كل شيء على خير ما يرام فترة طويلة جدًا.

ومن حيث لا تدري أو تفهم وجدت حليم يمسك بالكرة ويقذفها بعيدًا ويزعق بالأطفال مرددًا:

– يلا امشي إنت وهيا من هنا، لو شفت الكورة دي هنا تاني هقطعها لكم أربع تربيع.

وكانت للتو انتهت لوجوده، مسحت دموعها بسرعة وكأنه التقطها ترتكب جرماً ما ثم قالت له زاعقة وكان يتوقع:

– إنت، إنت كنت ماشي ورايا!

وهو تجاهل سؤالها، ومنحها محرمة ورقية مبتسمًا، وظنتها هي شماتة أو حالة استفزازة المعتادة:

– امسحي مناخيرك ووشك، كله طينة.

أخرجت مهجة مرآتها، وشرعت بتنظيف وجهها، ثم التقطت نفساً عميقاً كي تبتلع ما تبقى من دموع، وليكفي ما رآه بنفسه. ونجحت.

«برافو مهجة».

نهضت من المقعد فأوقفها بيده وقال بنبرة غريبة لم تسمعها منه من قبل:

– إنني بتعملي كده ليه!

ونبرته تحمل بعض الغضب، التعجب وعدم الفهم وأردف وكان محققاً برأيها:

– علطول عصبية، متوترة.

وأضاف وكان يقصدها كما وصلت إليها:

– علطول بتهربي.

دافعت عن نفسها:

– أنا مبهريش.

استكانت قليلاً فترك هو يديها لتقعد بجانبه في النهاية، ولكنها لم تنطق بأي حرف بعد وكأنها تفكر بكلماته.

أعادت خصلة من شعرها للخلف، قرضت أظافرها، ونظرت لهااتفها، ومررت يديها على رقبتها وقالت مستفسرة عن ماهية كلماته بعصبية:

– مش فاهمة قصدك، يعني ههرب من إيه! ومن مين أصلاً!

قال بوضوح:

– إنني ليه محسساني إننا دايماً في حرب، حتى مجرد إنني أسألك ما لك ولو من باب الزمالة بتعصبك.

قالت بحدة من خلف رموشها التي جفت عليها الدموع:

— عشان بكرهكم.

عقد حاجبيه، صدمته فهو لم يتوقع تلك الإجابة حقًا.

— بتكرهينا!

أقرت ونظرت لعينيه بتحدٍ وغضب ونفور، وكأنها ترسل رسالة لرجال العالم عن طريقه:

— أيوة أنتو الرجالة، فاكرين نفسكم محور الكون والعالم كله تحت أمركم.

تهمد، ابتسم، فاجأها بإجابته اللوزعية:

— عادي ما أنا ممكن أقول عنكم تافهين.

وأضاف بعدما فرك أصابعه الخمسة أمام عيونها:

— بس صوابك مش زي بعضها.

قالت داخلها وقد ظهر جليًا على ملامحها:

«هق، يا عزيزي كلكم مصطفى أبو حجر».

تهمد، تلك العنيدة أثارت اهتمامه اليوم وشعر أن لها خلفية مختلفة عن تلك التي رسمها لها؛ كان لا يراها سوى فتاة مدللة، مغرورة بجمالها، تهرب من الارتباط عن طريق فكرة تظنها جهنمية، ولكنها اليوم غريبة، غريبة لدرجة أنها أثارت اهتمامه للمرة الأولى منذ خطبتهما المزيفة.

— وهما الرجالة عملوك إيه عشان تكرههم قوي كده؟

غمغمت بغیظ:

— قول معموش إيه!

وأردفت:

— مجرد وجودكم في الكون شيء مزعج.

قال لها ورأتها هي وقاحة منه:

– بس لولانا مكنتيش هتكوني موجودة دلوقت.

وسألته هي وأرادت استفزازه، ولكنها في الحقيقة هي التي وصل
استفزازها للذروة:

– يعني انت بتعترف إن دي الفائدة الوحيدة ليكوا في الكون!

نطق نافيًا:

– لأ طبعًا، بس أنا بعرفك إن وجودنا شيء أساسي في الكوكب.

– انتو أنانيين.

– يابنتي ماقلنا بلاش تعميم.

وعلى أساس أنها تسمعه، هق، أراد أن يمثل الرجال فليتحمل
مهجة إذن.

– كل ما تيجي فرصة سفر وأتعلق بيها ألاقيني اترفضت عشان
يختاروكم انتو مش حسب الكفاءة أو الخبرة لأ مجرد إن البطاقة
مكتوب في خانة النوع «ذكر».

قال مبررًا:

– عادي في أماكن بتفضل الإناث مش شرط يعني.

أكملت وكأنه غير موجود، كالقطار مستمر بطريقه لا يرى أو ينتبه
لما حوله:

– أبسط حاجة، أول ما دخلت المكان هنا كان نفسي أنام على
النجيلة زي ما كنت بعمل وأنا صغيرة، لكن مش هقدر ببساطة
عشان انتو موجودين.

قال في حينها:

– لا دي بالذات الحاجة اللي مينفعش تعملها خالص.

أخبرته بهجوم:

– انتو مزعجين، نصكم متحرشين والنصف الثاني خاينين.

وهو قال زاعقًا لها هو الآخر:

– إنتي الي مجنونة وفيوزات دماغك كلها ضربت خلاص.

جزت على أسنانها، هي انفعلت فيه بدرجة زائدة ولكنها ليست نادمة.

أي رجل يستحق التعذيب.

لا لا التعذيب والحرق والشنق كما فعل هتلر باليهود.

أخبرته بعصبية:

– أنا غلطانة إنني بضيع وقتي معاك.

وتركته ورحلت.

هو التلاجة الديق فريز ال 21 «قدم» الآن يشعر بالفوران!

الاستفزاز.

والسبب، محسن.

وهتف بعدما رحلت:

«يا مجنونة يا بنت المجانين».

قد نكون أحيانًا بحاجة للهروب، منفذ يعبر منه بعض نسمات الهواء، حل يرضينا ونراه جائزة من الحياة لما عايشناه، وما كان فوق طاقتنا على الاحتمال، وهي كانت غارقة ورأت طوق نجاة، ألا يحل لها استخدامها! أليس من حقها الحلم!

هكذا كانت تفكر وتبرر ما فعلت لضميرها التي يوخزها ولنفسها غير المطمئنة، وهكذا كانت تقنع نفسها بكذبتها حتى صدقتها، وهي لن

تؤذيه هي ستعمل بكل جوارحها على مسانדתه وإسعاده فقط ليمنحها ما تريد.

يعطيها الحب والأمان، ويمنح أمها الغاية التي كانت تبرر من أجلها كل الوسائل فيرتاح الجميع.

وهي من شدة تشبثها به كونه طوق النجاة خرجت منها كل كذبة بمنتهى التفاعل والصدق، حتى إنها تناست كل شيء وكأنها فقدت معه ذاكرتها هي الأخرى ولم تستعدها سوى بعد أن وجدته ينظر نحوها بجمود.

ماذا!

تخبره أنها الحبيبة وهو عاشقها المتيّم، ولم تجد على ملامحه أي تفاعل مع كلماتها، إنه حتى لا يتساءل ويستفسر عن أي شيء يظنه قد فُقد مع ما فقده، وعقلها أخذها لمنحنى أكبر.

هل لا يصدقها!

— مش هتفرق.

وهكذا كان جوابه!

«يا ريتك ما نطقت يا شيخ».

— أنا مش فاكر حاجة من اللي بتقولها وطالما مش فاكر يعني مش هتفرق.

— مش هتفرق!

ونطقها بخفوت صاحبه الكثير من الدموع، وكأنه صنبور عمومي «عطلان».

وهي كانت لا تعلم إن كانت تبكيه، أم تبكي حلمها الذي نسجته ورأت به الخلاص، أم تبكي مشاعرها التي تعلق بطق النجاة.

وأما عنه فكان يتأملها، يشعر بضيق من نفسه؛ لأنه يُحزنها دون

قصد، ويلعن ذاكرته المفقودة، ومع ازدياد دموعها اقترب أن يلعنها هي شخصياً. كاد يهتف بوجهها «ارحميني، أنا مش ناقص».

تهتدت لتستجمع كل قوى العالم حتى تواجه هذا الصفيق شديد الصفاقة حتى وهو مريض، وبعد أن نجا من الموت بأعجوبة لم يتغير سبحان الله.

– طب ومسألته نفسك أنا وضعي إيه!

وكلامها أثار بعض المخاوف في صدره، هل من الممكن أن يكون هناك شيء حدث بينهما وهو لا يتذكره؟!

نفض عن رأسه تلك الوسوس، لا لا هو لن يفعل هذا بفتاة أبداً، ولا تلك نفسه التي يعرفها.

ولكن ماذا لو كانت نفسه قد تغيرت عليه! ما سقط من الذاكرة ليس بالقليل يا سيد سيف.

انتبه لها تقول:

– كل الناس خلاص عرفت أننا كنا سوا قبل الحادثة.

سألها وكان يعلم الإجابة:

– هو إحنا كنا سوا قبل الحادثة؟

أشارت برأسها بتأييد، ودموعها اندلعت من جديد.

لم تعلم أنها لديها القدرة على تقمص الأدوار قبل تلك اللحظة؛ فلديها عاطفة ستجعلها تنجح بمجال التمثيل وعن جدارة، حركت ذراعها المجبور أمامه كي يرى الدليل على أقوالها وكأنها تقول «البعيد أعمي القلب والنظر».

ثم أضافت:

– كنت كل يوم بتوصلني عشان تتطمئن عليا.

وأردفت:

– إنت بتتهرب مني صح! بتخلف وعدك ليا من غير ما تقول هو
ايه اللي هيحصل مع البنت المسكينة اللي حبتك دي.

وتوقفت عن كلمة «حبتك» ووازتها قشعيرية.

لامست قلبها مثلما لائم الدور عقلها، وأرادت تصديقه بكل حواسها
وتقمصته وكأنه حقيقة. ولحظتها اعترفت لنفسها، هذا الرجل هو حلمها
منذ أن رأته وبعد أن زرعت أمها كل آمالها فيه، وجعلتها تشطح بخيالاتها
الوردية معه وبجانبه.

ابتلعت ريقها كي تسيطر على مشاعرها، وكي تعود للمشهد ثم
أخبرته:

– ماما دلوقت عملتلي استجواب واضطريت احكيلها كل حاجة،
تقدر تقولي أنا موقفي إيه دلوقت!

– قوليلهم الحقيقة.

ارتعدت لمجرد الكلمة وكان وقعها كماء مثلج وقع على رأسها في عز
الشتاء.

«أنا كان قلبي حاسس إني هتقفش».

وكادت تنهار وتعترف من أول مشهد وتخبره «أنها عيلة وغلطت»
ولكنه انقدها بقوله:

– قوليلهم إني فقدت الذاكرة ومعدتش الانسان اللي ينفعك.

قالت له بتشبيت:

– أنا مش هتخلي عنك إيه اللي بتقوله ده!

وأشاح هو بوجهه بعيداً وبمعنى «خلص الكلام».

لقد أصدر فرمانه وانتهى. سالت دموعها وحملت حقيبتها لتركض
باكية، فتحت باب الغرفة واستوقفتها نظرات أمه المصدومة من بكائها
وحالتها السيئة، والغريب أنها اقتربت لتربت على كتفها بتعاطف.

الفصل الثالث عشر

(دبسني شكرًا)

يوم صعب، بالأصح فترة صعبة.

حالة ضياع ثقيلة لا يتحملها ولو كان يُظهر العكس لعائلته؛ منذ وقوع الحادثة وهو يعيش حالة من عدم التوازن، وهذا الطبيعي فتلك الفجوة التي صنعت بذاكرته ليست بالقليل.

يشعر وكأن الفراغ يتسرب من رأسه لينتقل لإحساسه حتى تجمد. سقط في غربة، هذا هو الوصف الأدق لحالته.

كل ما حوله يبدو غريبًا حتى ولو لم يتغير، ملامح أبويه وأخوته وخاصة الصغيرة «توتة» والتي بمخيلته تفرق عن تلك التي يراها؛ فعامان زائدان بعمرها هذا يفرقا الكثير، ولكنه كتم شعوره داخله حتى لا يجرحها أو يخيفها عليه كما يكتم داخله العديد من التناقضات بعيدًا عن عائلته حتى لا يحزنهم أكثر.

يحاول التعامل وكأن الأوضاع طبيعية، وبالحقيقة أنه ممثل مخادع ولكن من أجلهم.

هو يشعر وكأن بركانًا يسري داخله، وغير مسموح له بأي انفجار. النقص استحل ذاكرته ودواخله، وهذا التناقض مخيف حد التيه! عاد من الخارج برأس منتفخ وكأنه ما زال هناك رأس بين ذروة الزحام.

والوضع لا يتحمل.

تذكر كلمات طبيبه عن الاهتمام بصحته ومواعيد أدويته، والبعد عن أي ضغوط تلك الفترة، ومحاولة تذكيره بالذكريات المؤثرة التي حدثت بآخر عامين علَّه يستعيد المفقود، ولكن كيف!

فالضغوط تطارده وكأنه مغناطيسًا جامعًا يلتقطهم من حيث لا تدري، وكأن الوضع يتحمل ما أخبرته عنه نوال بشأن الإشاعات المنتشرة بالشركة عنه وعن ريم كتفاعل النار بوجود البنزين.

لم يتحمل تلميحتها عن سُمعة الفتاة التي تدمرت، وكان يشعر أن كلماتها المزيّنة تحمل في طياتها اتهامًا!

ومن بين كل ما سبق هو المظلوم، المطحون والركام بين طيات فقدان.

يعلم نفسه جيدًا حتى لو انتابه مليوني شك، هو ليس من النوع الذي يكسر ويخدع الفتيات باسم الحب، ولو كان قد استقل «الميكروباص» مع موظفة تعمل تحت إدارته من أجل إيصالها؛ فهذا يعني أنه كان جادًا معها.

وإن لم يتذكر فدموعها صادقة.

وإن كانت مشاعره ميتة فصورتها حية أمام ناظره.

وإن حاول التجاهل فالناس لن يتركوها وشأنها.

ما هذا الجنون؟ أخرج من حادثة حتى «يلبس» بمقطورة!

سرحت حواسه مع رائحة أرجيلة مثبتة أمام منضدة تقرهم حتى إنه كان ينظر نحوها، يحتاج إليها كي ينفث عن طريقها كل تخبطه ونقصه، ولكنه ممنوع منها حتى يسمح له طبيبه.

وضع يده على رأسه حتى يسيطر على ألم رأسه الذي لم يحتمله، وبعدها انتبه لتلك الصغيرة التي ارتدت فستان خطبة أختها وحذاءها، وسرقت من غرفة أمها أحمر الشفاه خاصتها، وقامت بتلطيف فمها ثم جاءت ترقص، وكأنها بهلوان في السيرك القومي. بمجرد أن رآها ضحك، وهو المطلوب إثباته.

وهي بمجرد أن لمحت ضحكته بادلتها ضحكات البرينة التي تسلب

قلبه وتنشر السعادة فيه بلا مقدمات. سعادة سرمدية لا بداية لها أو تفاصيل.

– أبيه ثيف عجبك النيوتوك؟

– نيوايه يختي!

قالت موضحة:

– نيوتوك، ثمعتها (سمعتها) أما ميادة كانت بتذاكرمع «اثحابها» أصحابها وهما كانوا بيثتمبلوا (بيستهمبلوا) وفاتحين النت وبيتفرجوا على فنتان (فستان) هيفا الجديد في حفلة الثاحل (الساحل).

قال سيف داخله:

– صدق اللي سماكي رويتر صحيح.

وحينها سألته «توتة» باهتمام:

– ألا (تحيح) صحيح يا أبيه هو إنت فاكرهيفا!

وأخبرها بحيوية لا يعلم من أين أتته:

– طبعًا، وهي هيفا ممكن تتنسي!

لوت شفتها كالكبار وقالت بنبرة تخللها اعتراض:

– طول عمرك ثافل (سافل) يا أبيه.

هناك مواجهات تساعد على الحل، وأخرى تُزيد من تعقيد الأوضاع، وهذا ما حدث معه، أساسًا بعد آخر مرة تحدث معها قد انقطعت أي رغبة لديهمما بتبادل الحديث، ولو من باب التمثيل كونهما خطيب وخطيبة.

لا هو حاول ولا هي فكرت.

بالنسبة إليها كانت تؤنب نفسها وتخجل منها؛ لأنها انفجرت في

وجبه، ولأنه لا يجب أن تشاركه أي شيء يخصها ولو من باب الانفعال؛ فما بينهما ما هو سوى اتفاق و فقط، وبعده سيمضي كل منهما بطريقه. أما عنه فهو لم يشعر بأي رغبة في اقتحام أسوارها، ولا هو ذاك الفارس الذي ممكن أن ينقذها من بحور غضبها وبراكينه؛ فهو فقط مجرد أجير، والأجير لا يهمله سوى حقوقه المادية، وبعدها فليحترق العالم.

ولكن وعلى الرغم من حالة الصمت التي تلبست كلاهما إلا أن الفضول يظل له تأثير أقوى؛ فهو لم يتنازل عن مراقبتها دون أن تشعر هي بذلك، وهي كانت تهديه بين الحين والآخر سلامًا فاترًا وكأنها تشبث بتلك المسافة التي قد زُرعت بينهما.

حتى جد ما هو جديد.

والجديد كان مغريًا جدًّا من وجهة نظر مهجة «الشرانية» والتي لا تؤمن بنظرية «بص للنص المليون من الكوباية» بل هي تعتنق فكرة أن الرجال قد سرقوا كل أكواب البلدة والبلدان المجاورة وأهدوها لعشيقاتهم.

أو بمعنى آخر أن «خلف كل رجل خازوق كبير يأتيك من حيث لا تدري».

وهي الآن تشعر أنها على وشك كشف أحدهم وتلك قمة الإثارة بالنسبة إليها.

فلقد حدثتها أمها وأخبرتها أن حماتها العزيزة «الست أم حليم» قد قامت بـ «عزومتهم» على حفل «سبوع» فاطمة – أخت حليم الصغرى والوحيدة – ورغم أن أمها قد عارضت في البداية بلطف بسبب اقتراب موعد ولادة منال إلا أن السيدة قد أصرت على مجيئهم، وأخبرتها بلكنتها الصعيدية:

«هما كلهم يومين بس يا أم الغالية لغاية ما نتعرف عليكم وناخذ عليكم وتاخذوا أنتو علينا وهتكونوا في نن عينا مُعززين مكرمين وعلى راسنا من فوج».

وأمام إصرارها وافقت أمها، ولكن مهجة قد اعترضت؛ لم تشعر بأهمية لتلك الزيارة من «أصله» وكما أن بُعد المشوار زاد من رغبتها بعدم الذهاب؛ فعائلة حليم تقطن في أحد المراكز التابعة لمحافظة سوهاج وهي قد جاءت الآن لتخبره أنها لن تذهب، ولكنه فاجأها برد فعل «أوفر» من وجهة نظر مهجة وكان لا يريد الذهاب ولا أن تذهب!

– بس ده سبوع ابن أحتك!

ولا إجابة منه، فقط، اندهاش أصحابها كعدوى.

أخرج سيجارة وأشعلها وقال بعد لحظات كانت ترى فيهما الغضب الذي يلوح في سماء عينيه بشكل واضح وهذا يزيد من فضولها.

– معنديش أجازات.

استنكرت:

– أنا عمري ما شوفتك أخذت يوم أجازة من ساعة ما اشتغلت غير يوم خطوبتنا!

تأفف، أحرق سيجارة أخرى، هو أساسًا بمرحلة اشتعال ويحاول التحكم في انفعاله قدر ما يستطيع، ولكن لم ينجح.

ومن أين سيأتي الهدوء ما دامت تلك الفضولية تقف على رأسه كمحقق قديم بأمن الدولة!

ارتفعت نبرة صوته بينما يخبرها:

– أهو مش هسافر وخلص.

حينها تأكدت مهجة والشك أصبح يقين، هذا الرجل هارب من سر خطير وهي على مقربة من حفل انتقام سافر، ستنتقم منه على كل

لحظة استفزها بها، وستجعله يندم على ذكورته، وستخرج منه غيظ كل امرأة استغلها رجلاً أو أتعسها.

– وأنا مالي تروح ولا متروحش شيء ما يخصنيش.

وأكملت والبسمة الماكرة على وجهها وانتظرت قليلاً من أجل التشويق والإثارة ثم تفوهت ببطء:

– أنا وماما رايعين، عن اذنك عشان الحق احجز أول قطر هيروح سوهاج.

ورحلت وكانت تعلم أنه سيتبعها حتى محطة القطار، وبمجرد أن وصلت لشباك التذاكر وجدته يتقدمها ويقوم بشراء التذاكر عوضاً عنها. عقدت مهجة حاجبها:

– كمان هتدفع إنت! إيه الشهامة دي كلها استنى كده أما اتفاجئ.

نظر نحوها بابتسامته الساخرة والتي اعتادتها وأخبرها:

– قلتك العرق الصعيدي ساعات بينقح.

وأردف:

– بس ما تبقيش تتعودي على كده.

ووضع التذاكر في قبضة يدها. سألته بعدم فهم:

– إنت مش هتيجي فعلاً!

ولم يمنحها إجابة، رحل بزعايبه.

وفي الصباح بمجرد أن رتبت أغراضهما واستقرا بمقاعدهما بالقطار وجدته يقفز بجانبها مبتسماً.

تعجبت، لقد أشعرها أنه لن يأتي وكما أنه من أين له تلك الابتسامة!

مستفز.

عليك «اللحمة».

– كنت قلت مش جاي.

واستنكر هو وكان يتعمد.

– أنا!

وتجاهلها محاكيًا من تُعد حماته:

– ازيك يا حماتي.

ثم نظر لمهجة وبعدها أكمل:

– ولا أقولك يا ماما!

«جتك مو».

وكان ذلك صوت مهجة الداخلي.

أخبرته شيرين ممتنة بعدما ربتت على كتفه:

– قول اللي يريحك يا حبيبي، إنت بقيت في غلاوة مهجة خلاص.

– ربنا يخليكي.

نظر نحو ذات صاحبة الملامح الممتعة:

– فيه حاجة يا مهجة!

– خليك في حالك.

ولفظتها بصوت خفيض حتى لا يصل لمسامع أمها وهو كان سألها

بصوت مرتفع؛ حتى يُخرجها ولا يعلم لمَ يفعل.

هل لأنها أجبرته على السفر، وربما لأنها كانت تستفزه هي الأخرى

البارحة!

أم أن إثارة غيظها باتت عادة محببة لديه؟

وتعددت الأسباب والنتيجة واحدة، هو برأيها أكثر رجل مستفز

بالعالم.

أخبرته:

– ممكن تقعد جنب ماما عشان ريحة السجاير.

– مالها؟

لفظتها بصوت مرتفع وأشارت بأصابعها على رقبتها:

– بتخنقني.

وتحرك مستجيباً لطلبها ليجلس بجانب والدتها، وكان برأيها الوضع أسوأ.

فوجوده بمقعد مقابل لها جعله لا يرفع عينيه عنها ولو لهفوة. أغبي طلب وأسوأ حجة.

الفصل الرابع عشر

(وأصبحت حياتنا آيس كريم بالعيش)

سهرة خاصة بناءً على طلب فاطمة «شقيقة حليم» والتي استغلت مهجة حتى تتابع الفيلم الأجنبي -السرعة والغضب الجزء السابع- والذي يعرض لأول مرة دون توبيخ ومضايقة من أمها بشأن مسئولياتها الكثير، فشار أعدته بنفسها، قعود على الأرض تحت التلفاز كما اعتادت الأخيرة، تركيز تام وصمت لا يكسره سوى أبطال الفيلم وكانت «ليتي» تقبل «دوم» في لحظة وداع باكية!

وكان للمشهد وقع مختلف على فاطمة والتي تتأثر من أقل رومانسية بالمشاهد، أنف محمر ودموع تهطل ومع نهاية المشهد «اتشحتفت» بالكامل.

ومهجة تعجبت؛ هذا فيلم أكشن من الطراز الأول؛ فماذا لو شاهدت آخر رومانسي كئيب انتهى بموت البطل أو البطلة! تلك الفتاة لن تتحمل مشهداً كهذا على ما يبدو.

سيطرت فاطمة على بكائها بالكاد ومن لا شيء سألتها:

- بتحبيه!

وفهمت مهجة أنها تقصد حليم، الجميع هنا يقصده بكل الأحاديث. غريب، هل يبدو ان كطائران سقطا في درب الحب صدفة! أم أن تلك الحلقة المعدنية التي ببنصر كلاهما هي السبب في جعله محور كل حديث يخصها!

- أخويا يستحق (يستحق) أنه يتحب، حتى لو كنت بطلع فيه غيظي كل ما أشوفه وبعامله من تحت الضرس لحد ما بطل ياخي من مصر خالص.

سألها مهجة باهتمام بعدما أخفضت صوت التلفاز، هي لاحظت ذلك بالفعل أنها لم تكن مرحبة بحضوره على الإطلاق.

– ليه؟ هو عمل إيه؟!

– جيه مع الدنيا عليّ.

– مش فاهمة.

تعجبت فاطمة:

– أخويا مجالكيش (مقالكيش)!

وبررت مهجة لها:

– أخوكي مش بيتكلم جملتين كاملين على بعض.

فكرت فاطمة أتخبرها أم لا وبعدها قررت أن تحكي لها الموضوع من البداية؛ هي أساساً بحالة ماسة للحديث مع أي شخص عن مكنونات صدرها حتى تستطيع المثابرة في تلك الحياة التي فُرضت عليها فرضاً وإلا ستموت؛ فطاقتها باتت على المحك منذ الولادة.

وكان هذا الطفل خرج إلى الدنيا ليعيد معه كل التفاصيل السابقة، ويشعرها بأنه قيد جديد ثبتوه على جناح حريتها.

شرحت لها من البداية جدًّا، يوم أخبرها حليم بأن صديقًا له بالجامعة يريد التقدم لخطبتها بعدما رآها مرة أثناء زيارته لمنزلهم، وقتها تراقص قلبها وشعرت بشعور لم يمس عذرية قلبها قبلاً، ولم يكن عشقًا؛ فهي لا تتذكر ملامح صديقه هذا أو تعلم من هو بين أصدقائه المترددين على منزلهم، ولكنها انسجمت مع الفكرة نفسها وسقطت بغرامها.

فكرة أن يعشقها رجل من النظرة الأولى ويرى فيها أم أطفاله، قصة أنها ستهرب من تلك البلدة الضيقة وتستقر بالقاهرة «أم الدنيا».

المدنية حلم كان يراودها منذ الصغر والسبب يرجع لأن روحها

كانت تتلاقى بشكل ما مع رومانسية الأفلام، تحلم بها وتفتش عنها وبرأيها أنها لا توجد سوى بالعاصمة.

وهي لا تعلم أن بنات العاصمة سيخبرنها لو سألتهم عن الحب والهيام والغرام «حق، كان غيرك أخطر».

وكل منهما ستروى مغامراتها من غسيل وتنظيف وتشطيف بعدما طلّت بالأبيض مباشرة، ولكن تلك نظرتها ورؤيتها، وحتى إنها حلمت بأن تستكمل تعليمها بعدما تزوج مباشرة، ولكن كل هذا انهار بعد وفاة شقيقتها الكبرى «عائشة» بسبب جلطة بالقلب لتنقلب حياة المنزل فجأة وتتحوّل فرحتها لنكبة!

لم تكن قد استوعبت فكرة وفاة شقيقتها الكبرى بعد إلا وقد فاجأها الجميع بعد شهرين فقط من تاريخ الوفاة بفكرة أخرى لا تختلف عن قسوة الأولى ألا وهي أن تحل محل شقيقتها كأم وزوجة لزوجها!

كانت الفكرة مخيفة، أن تكون مجرد بديل بعدما كانت تقترب من أحلامها مع رجل يريدّها، واختارها هي بالأخص شيئاً لا يمكن تحمله. اعترضت. قالت بعلو صوتها «لا» وقالها معها حلِيم.

ولكن رفض حلِيم كان يحمل بعض الحيرة؛ فهو كان يرى أن هذا الزواج من مصلحة أبناء شقيقته اليتامى.

رفضه كان خافتاً ينبع من رفضها حتى تلاشى مع الأيام، وأصبح الزواج أمر واقع مسلم به.

وهي الأخرى قد استسلمت، ولكنها لم تتنازل عن فكرة أن أباها لم يقف بجانبها بهذا الموقف، وكانت كلما تراه أو تقابله تذكره بما لا يستطيع نسيانه، حتى في النهاية قرر الرحيل والاستقرار بالقاهرة والعمل بها كحارس أمن لأحد البنوك؛ فلم يشفع كونه خريج كلية الإعلام للحصول على وظيفة أفضل من تلك.

تزوجت وتم عقد القران منذ أكثر من عام، ويومها لم تقبل النظر حتى بوجهه، تعمد تقليل زيارته للبلدة حتى اختفت آخر فترة واكتفى بالمكالمات الهاتفية، وكل هذا حتى لا يرى تلك النظرة التي تقيد رقبته وتخنقها في عينها مرات أخرى.

اعتادت مع الوقت، انغمست بالمسئولية وحياتها الجديدة وبدأت ترضى وتقتنع بوجهة نظر أهلها، ولكن كان هناك جزء من روحها يتمرد ويشرد ببساط الخيال في حياة أخرى بالعاصمة.

أحياناً تتساءل هل كانت ستجد السعادة لو كانت تزوجت من صديق أخيها أم كانت ستأكد أن أحلامها معه كانت فارغة خيالية لا تمت للواقع بصلة!

لم ترد أن تعلم إجابة السؤال، دفنت حلمها بركن قصي داخل قلبها تخرجه بلحظة شرود تمنحها بضع جرعات من السعادة، نقمها قل على أخيها، وأرادت أن تحرره من الذنب الذي حملته إياه، ولكن لم تستطع؛ فكان هو المتنفس الوحيد وطريقها للتمرد على الواقع الذي لم تختره.

— بس هو اتخلى عنك.

وصححت لها فاطمة وكأنها فكرت بحكايتها مرة أخرى بعدما روتها لها، أو ربما اكتشفت أن محور كلامها هو أخاها، وليس زواجها ومنه علمت أن ضيقها الحالي سببه اشتياقها إليه لا أكثر أو أقل.

تهددت فاطمة لتخبرها برضا:

— ده النصيب والمكتوب.

وقبل أن تناقشها مهجة وجدت «علي» ابن شقيقها المتوفاة يأتي لفاطمة ويخبرها بشبه زعيق:

— بطة أنا عاوزة أنام معاكي مش عارف أنام من صوت شخير عليّة.

«مممم، إنها خناقة كل يوم».

احتضنته ثم استندت عليه لتنهض، وبعدها أغلقت التلفاز لتكتشف أن الفيلم قد انتهى بينما هن قد انغمسن بالحديث.

قالت لها بنبرة ناعسة:

– تصبحي على خير.

وأجابتها مهجة بعدما قبلت الرضيع بحنو:

– وانتو من أهل الخير.

ولكنها كانت ما زالت تحت تأثير حكايتها وشعرت بالقشعريرة.

العالم مليء بالحكايا، ومهجة فضلت الهروب بدلاً من خوض تجربة فاشلة تؤذيها فهل أجمرت يا ناس! لا أحد يلومها.

لم تستطع النوم ولا تفهم هل سببه أنها تبيت خارج منزلها أم بسبب حكاية فاطمة التي لامست شيئاً داخلها، تعاطفت معها وكثيراً فقصبتها أفضل ما يعبر عن فكرة الوقوع من بساط الأحلام ليسقط في بئر الواقع. وهي سقطت ولكن لم تنكسر، استقوت على واقعها وتقبلته وتقبلها، عاشت من أجل أن يحيا طفلان خرجا من رحم شقيق ليستقرا داخل حضنها فتكون لهم الأم والخالة الصديقة معاً.

قررت الخروج لتستمع بالهواء الطلق في هذا الوقت الباكر، ارتدت تنورة بنفسجية تغطي ركبتيها بمسافة كافية وعليها بلوزة قطنية باللون السماوي الفاتح، وقامت بتمشيط شعرها سريعاً، وخرجت من المنزل والكل نيام.

نظرت حولها، ووجدت أرض شاسعة، وكان امتداد بصرها لا يسمح لكي تأتي بأخرها، خضرة ونقاء وهواء نظيف تفتقده في العاصمة حيث الكثير من العوادم ومسببات الاختناق.

شعرت أنها هنا هي أفضل، فترة مستقطعة مريحة للأعصاب قد جاءت على طبق من فضة، وهي التي كانت لا تريد المجيء في البداية، بل وجاءت نكاية بحليم ولولا هذا لكانت رفضت.

لمحت أرجوحة متهالكة أثناء سيرها كانت مثبتة على شجرة بالمقدمة، وخلفها الكثير من الأشجار التي تشابكت أوراقها من شدة التحامهم.

أرجوحة يدوية عبارة عن قطعة خشب بطرفي حبل أحدهما مقطوع، حاولت تصليحها، بل وأصرت على ذلك، وظلت منهمكة، حتى إنها لم تنتبه لخطوات هذا الذي قال من خلفها وأفزعها:

– مهجة!

وانفضت صارخة ووجدته هو حليم ومنك لله يا شيخ فزعتني.
والآخر كان يزعق:

– إيه اللي إنتي مش لابساه ده!

– نعم!

وكان قد لمحها من بعيد وشهد تجمع عدة رجال مارة يتأملونها، واقترب منهم كي يصرفهم، ولكنه استمع لأحدهم:

«رجلها حلوة جوي (قوي)».

فلم يتمالك نفسه سوى بعد أن أمسك بتلابيبه ولولا أن كان هناك من يفض الاشتباك لكان تطور الوضع لشجار، وربما يصل لسلسال الدم الجزء الخامس والعشرين، وبسببها ذات الخصلات القصيرة «أم لسانين».

لقد شعر نفس شعور هاني رمزي بفيلم محامي خلع وهو «بيغمز الأيس كريم بالعيش».

ولكن عفوًا حليم تلك قواعد اللعبة، وهذا كان الاتفاق ولو كانت

خطبة أمام الناس في لا تمنحه سلطة وحكم عليها بينه وبينها.

– إنتي قاصدة صح؟

لم تفهم، وهو أكمل.

– حبيبي ترخي فقولتي وماله أما أخلي سيرته على كل لسان.

سألته:

– هو فيه إيه! وقاصدة إيه؟

وأضافت وهي محتفظة «بالانر بيس» أو سلامها الداخلي، والفضل يعود لتلك الأرض ورائحتها التي تتحدث عن الطبيعة بكل بلباقة.

– محسسي إني لابسة بكيني! جيبة واسعة تحت الركبة وبلوزة بكم فين المشكلة بقا!

وهدوؤها قتل من عصبيته.

– أنا كنت هقتل دلوقت واحد بيقول على رجليكي حلوة وحضرتك ولا هنا.

كتمت ضحكتها، ضحكت فابتسم هو الآخر.

الوضع في قمة الكوميديا وكأنه لم يكن هناك شد وجذب منذ ثوان، وربما لأنه شعر أنه قد «أفور» معها «حبتين».

– عامة هانت شوية وكله هيروح لحاله.

صمت قليلاً ثم سألها:

– حصل جديد في موضوع السفارة؟

جلست على «النجيلة» بعدما فقدت الأمل بإصلاح الأرجوحة.

– لأ، بس يعني لعبة الخطوبة دي أكيد مش هتستمر كتير.

اقترب من الأرجوحة وشرع بربط الحبل المقطوع وتطبيقها بينما

يقول:

– أنا معنديش مانع تستمر.
وأضاف ساخراً:

– يعني جدول أعمالى الفترة الجاية مش مزدحم.
امتعضت وأخبرته بعدما لوت «بوزها»:

– طبعاً ما هو حضرتك مش دافع حاجة من جيبيك.
ورده حاضرًا كالعادة:

– هعملك تخفيض، إنتي خلاص بقيتي زبونة.
– وماله.

شرع بإشعال سيجارة ولكنها أوقفته:

– يا ابن الناس قولتلك ريحتها بتخنقني.

أعاد اللعبة لجيبه ووضع تركيزه بالأرجوحة حتى أعاد إصلاحها قدر
المستطاع، وبعدها شرد بها، بطفل صغير كان أقرب له من هذا الرجل
الذي أصبحه، سألته:

– بتاعتك؟

أوضح لها مبتسماً؛ فلقد ذهب بذهنه إلى زمن بعيد:

– بتاعتنا، عملتها سوا أنا وفاطمة وعائشة وكان عمري ساعتها
عشر سنين، ودلوقت استلمها الأجيال الجديدة ومرمطوها.

وكان سؤالها غير متوقع بالمرّة:

– عائشة أحتك اللي اتوفت صح؟

عقد حاجبيه، من أين لها معرفة هذا الأمر؟ هو لم يشرح لها من
قبل أي تفاصيل تخص أفراد عائلته.

– فاطمة قالتلي.

وأردفت بنبرة لم تعجبه:

– قالتلي كل حاجة بصفتي مرات أخوها المستقبلية.
ابتلع ريقه، شعر بالترقب، ها هو الذي يتهرب منه متجاهلاً يأتيه
الآن زاحقًا.

أضافت مهجة جملتها القاطعة والتي شعر أنها كحد سكين يمزق
وينتف، لا مجرد أحرف تنطق بها شففتها:

– قالت إنك جيت مع الدنيا علمها.
سألها ونبرته كانت ما زالت متفاجئة، على أساس أنك ستستمع
لإجابة مختلفة، حلیم، ماذا كنت تظن بحق الله!:

– قالتك كده!
أومأت برأسها موافقة ولكنه برر بقوله:
– أنا موقفتش ضدها.

ولكنها لم تكن معه، لم تحاول أن تجمل الموقف، متوقع فمهجة
نصيرة المرأة الأولى وعدوة الرجال.

– وموقفتش معاها.
ازدادت عصبيته حد الانفجار:

– وأنا كان المطلوب مني أعمل إيه؟ أخذها وأهرب.
واكتفت بالقول:
– معرفش.

ثم نهضت من على الأرض ونفضت ملابسها، قعدت على الأرجوحة
خاصته، وظلت تتحرك ببطء وبشروء، عيناها تحمل له اهتمامًا وعيناه
لا تتحملة.

الكل يتهمه وأوله نفسه وما كان هناك شيء بيده قد يفعله، وقف
بجانِب الأرجوحة ولا يعلم أنه يوضح لها أم لنفسه:

– بصي على الناحية الثانية هتشوفي أطفال خسرو أهمهم وكانوا هيتشردوا لو أبوهم اتجوز غيرها.

أومات مهجة برأسها رفضًا، لا تريد أن تقتنع ولولا أن حكاية فاطمة قد أثرت بها ما كانت ستسمح بفتح باب المناقشة بهذا الموضوع.

الوضع مرفوض، ظالم، خانق.

– كل حاجة لها حل.

وأضافت مستنكرة:

– أكيد كان فيه أي حل غيره.

ضرب كفيه بتعجب.

– زي إيه!

وعندما لم تمنحه إجابة أخبرها:

– أنا كنت واقف في النص معاها ومش معاها، من ناحية مش

هاينة عليا ومن ناحية تانية الكل كان بيضغط عليا.

«عقلها يا حلیم، إنت أخوها الكبير وهي بتسمعلك يا حلیم، العيال هتتشرد يا حلیم، العيال هتتربى بعيد عننا ومش هنعرف نشوفهم إلا في المناسبات يا حلیم، أختك مش هتترتاح في قبرها يا حلیم، ده لحم أختك وأمانتها ولازم نكون قد الأمانة يا حلیم».

وأردف:

– كنت بشوف كل يوم كابوس نصه فاطمة بتغرق والنص الثاني

عائشة بتصرخ وتنادي على ولادها.

وبعدها توقف، هل يشرح لها؟ هل عرى نفسه أمامها؟ هل أدخلها

لدائرة تفكيره؟

وجد نفسه تلقائيًا ينقل دفة الحديث نحوها، فكما يقولون خير

وسيلة للدفاع هي الهجوم وقد هاجمها.

— بس أقول إيه ما اللي زيك عايش في مية البطيخ.

برقت عينها غضبًا من طريقه حديثه «السوقية» فأكمل:

— الكلام اللي بتقوليه والحل اللي ممكن كنت ألاقيه واللي إنتي نفسك مش عارفة تفيدني وتقولي زي إيه اه ممكن يحصل بس المسلسلات العربي هناك مش في الحياة اللي احنا عايشينها. وبعدها أخبرها باتهام:

— أنا فاهم نظرتك كويس، عاوزه تطلعيني ندل بأي شكل عشان حاجة معينة في دماغك.

نهضت من على الأرجوحة وبادلته زعيقه:

«حقيقي سكتناله طلع بحماره».

— لا لا، ثواني بس وضح كلامك كده وبلاش أُلغاز.

وفعل ما طلبت، أوضح:

— أنا فاهمك كويس، إنتي عايزة تطلعيني ندل عشان نظرتك في الرجالة ما تتهزش.

«كل الرجالة زبالة، كلهم خاينين كلهم متوحشين وبلا بلا بلا».

دمعت عينها، ولم تفهم السبب، وربما لأنه خاض عامد متعمد في منطقة خاصة لا تحب التطرق إليها وبتلك الطريقة التي تحمل بعض الاستهانة بها.

وكان أفكارها ومشاعرها مجرد تفاهات، وما زال لا يكتفي.

— أي احتمال مختلف عن القاعدة اللي رسمتها بيخوفك.

على صوتها هي الأخرى:

— حلیم، أنا مسمحكش تتكلم معايا بالأسلوب ده.

و مع ذلك أضاف:

– إنتي مش خايفة منهم، إنتي خايفة من نفسك.
والتتمة.

– بس لوده هيخليكي مستريحة وحياتك أحسن، أنا ندل وواطي
وابن ستين في سبعين كمان.
هي تهرب فتجرحه، وهو يهرب فيجرحها والدائرة مفرغة، وكأنه
اتفاق هروب لا خطبة مزيفة!

الفصل الخامس عشر

(خطوبة تحت التهديد)

اعتدلت لتحضن ركبتيها، شعور ما بين الشيء واللاشيء.

وربما هي اكتشفت للتو أنها أكثر شخص وحيد بالعالم رغم أنها وسط الكثير من البشر بالعمل وبالمنزل وبالعلاقاتها بالواقع وعلى «الفيس بوك».

اجتماعية هي وهذا الظاهر، ولكن في الباطن هي منزوية ومنطوية وتقتل حتى محاولات حديث النفس؛ ربما لأنها ما زالت تبحث عن روحها التائهة منها، وليست مؤمنة أنها ستجدها يوماً وكأن بينها وبين مرادفات الأمل مسافات وحواجز.

وكان ما بها لا يكفيها حتى يأتي هذا الحليم ويبعث ما تبقى فيها من سكينه.

يظهر كي يبعض هدوءها، يستفزها، يخرج شياطينها ويشحنها بطاقة انتقام كي ترد له الموقف الصاع صاعين ثم بعدها يتحدث وكأن شيئاً لم يكن.

لم يجرح ولم يمس.

وبعدها يأتي دورها تستفزه هي الأخرى، تخرجه بكل الأشكال، تضايقه بكل فرصة وتشحنه بنفس الطاقة كي يعيد لها الكرة.

وتتحول الصفة لحالة حرب وفرض سيطرة.

تعريف الفوران في اللغة هو الهياج، وفي الكيمياء يتلخص في اضطراب السوائل بلحظة غليانه، أما بالنسبة إليها الفوران هو...

هي إلى الآن لم تفهم لم تضايقت من حديثه هكذا وكان مجرد وجوده يكفي لفرز هرمون العصبية و«النفرة» غير المبررة بدمائها!

حتى إنها تعلم سبب ردة فعل الهجوم، تتفهم مشكلته وحيرته، ولكنها لا تستطيع منحه؛ التعاطف فتعاطفها كله منحه لتلك التي أُجبرت على حياة كانت ترفضها.

وهي لا يهتمها أموره، ولكن ما يزعجها هو تدخله بأمورها، بدواخلها، رؤيتها للأشياء ونظرتها.

هذا هو الذي لا تستطيع مسامحته عليها ولا مسامحة نفسها؛ لأنّها منحه تلك المساحة رغمًا عنها مرة بلحظة انهبّار. وتذكرت حديثه بالكامل.

«أي احتمال مختلف عن القاعدة اللي رسمتها بيخوفك».

«إنّتي مش خايفة منهم، إنّتي خايفة من نفسك».

«بس لوده هيخليكي مستريحة وحياتك أحسن، أنا ندل وواطي وابن ستين في سبعين كمان».

هذا غير نبرته الهازئة التي تهتمها بكل وضوح أنّها مجرد فتاة مدللة سطحية، لا تفقه أي شيء بأي شيء.

وازدادت وساوس الشيطان، نهضت فجأة كمن لدغتها حشرة، نهضت ملابسها وتحركت بخطوات عسكرية حتى المنزل.

لم تغفل عيناها -بطريقها لمنزل حليم- عن رؤية من يتابعها من خلف شجرة بعيدة بمنظار وخمنت أنّه من كان أخبرها عنه حليم بأن تغزل بقدمها بقوله «إنّها حلوة» وقررت التجاهل...
«بمزاجها».

هي الآن ليست بمزاج يصلح لشجار و «شذبشة».

وصلت لباب المنزل لتجده يجلس على «عتبة الدار» ينفث دخان سجائره على خلق الله ويلوث ذلك الهواء النقي الطبيعي، أخبرته:

- ممكن تعديني.

وكان يتوقع ردة فعلها وينتظرها، نهض من فوق الدرجة الرخامية وأخبرها:

– ليه!

وصرخت بوجهه:

– هو إنت فاكرا إني...

وَبُتِرَتْ كلماتها بسبب يده التي كملت فمها!

فتلك «الحُقنة» عندما تُستفز تُصيح غير مأمونة العواقب، وهو لن يسمح لها بأن تسبب له فضيحة، وبالأساس لهذا اصطحها في تلك الزيارة ويومها قال داخله «دي الواحد ميضمناهاش بربع جنيه».

وأكمل وأزاد «الطين بلة» بأن سحها بعيداً عن المنزل بمسافة كافية عن أسمع من يقطنوه، عندما فاقت مهجة من صدمتها بما فعل قامت بعضه فأبعد هو يده عنها سريعاً بينما ينهرها:

– يا بنت العضاضة.

أخبرته زاعقة:

– إنت زودتها قوي، إنت فاكرا نفسك مين!

ليصعقها برده المستفز:

– منتظريش مي اعتذار.

سألته بتعجب:

– إنت شايف الطريقة اللي اتكلمت بيها كانت عادي!

ليخبرها:

– تمام عليت صوتي عليكي عارف بس إنتي كمان اتدخلتي في

حوار ما يخصكيش.

وأضاف:

– واحدة قصاد واحدة.

وأتمها بقوله:

– يعني لو منتظرة اعتذار فأنا كمان من حقي واحد.

وكان ردها:

– وأنا مش عاجبي الموضوع كله.

وبعدها نرعت الحلقة الذهبية خاصته، وكان شعورها يشبه بطله
فيلم تنزع خاتم زواجها في لحظة غضب.

لم تفهم سبب ارتياكها؛ وربما لأن هذا المشهد مكرر ومرتبطة
بالعقل الباطن بخيانة أو ما شابه أو أي وضع مختلف عن وضعهما هي
وحليم أو مسرحيتهما المشتركة، ناولته دبلته التي اشتراها قبل الخطبة
من أمواله، وبرأيها هو كان يستثمرها؛ فزيادة أسعار الذهب كل يوم من
الأشياء البديهة.

– أعتقد كفاية قوي لحد كده.

أوقفها قبل أن ترحل:

– في بلدنا مينفعش الست تسيب راجل بيكلمها وتمشي.

«اللهم طولك يا روح».

– دي مشكلتكم بقا مش مشكلتي.

سألها بجديية لا تناسب عصبيتها على الإطلاق:

– هو إنتي قبلتي اني أكون مكان أنورليه؟

توقفت، عقدت حاجبها بعدم فهم.

– مش فاهمة.

اقترب منها خطوة ليوضح:

– وقتها فرق معاكي أن أنا اللي اتقدملك!

وإجابة مهجة متوقعة:

– أكيد لأ، ولا ساعتها ولا دلوقت ولا أي وقت.
أخبرها:

– سد خانة يعني.

أكدت له بعدما كتفت ذراعها:

– بالظبط.

وضع أمام عينها الدبلة خاصتها...

– كملي على اني سد خانة.

نطقت قبل أن ترحل:

– لأ، كفاية عليا كده.

ليمسك ذراعها ويمنعها:

– قولتلك مينفعش عندنا واحدة تسيب راجل بتتكلم معاه
وتمشي.

توقفت وتأففت واكفهر وجهها لتخبره بضيق:

– حلیم إنت عاوز إيه دلوقت!

أخبرها بحزم:

– نخلص كلامنا.

صمتت بعدم اقتناع ولكن عملاً بمبدأ «أما نشوف آخرتها».

– أنا عارف إني قلت كلام حد زيك وفي شخصيتك ما يستحملوش
وكنت متعمد أعمل كده.

عقدت حاجبها ليردف:

– بس إنتي كمان لازم تعرفي إنك وقفتي على موضوع حساس

جدًا بالنسبالي وفضلتي تدوسي.

استنكرت:

– أنا مقصدهتش على فكرة، كان كل كلامي عن وضع فاطمة إنت اللي فسرتهما على موضوع ثاني خالص.

تغيرت نظراته، وباتت أكثر غضبًا، وتعمد الخروج بالحديث عن تلك السيرة التي تزعجه وتخنقه:

– ممكن نركن موضوع فاطمة دلوقت وخلينا في موضوعنا.

نهفته:

– بس إحنا مفيش بينا مواضيع.

وضع بيدها الدبلة وكان يخبرها:

– فيه بينا اتفاق ولا نسييتي؟

أومأت برأسها نافية حديثه:

– الاتفاق خلص وشكرًا قوي لحد كده.

أخبرها:

– لأ طبعًا مينفعش.

وأكمل:

– أنا ظبطت أموري على دخل معين مينفعش فجأة تقولي يخ وفركش.

لم تجد ما تتفوه به حقًا بتلك اللحظة فتركت له دفعة الحديث:

– زي ما الموظف لازم يبلغ الشركة أنه هيسيب الشغل قبلها

بشهرين عشان قراره مياثرش على سير العمل الشركة كمان لازم ما تضرش الموظف في حال استغنت عنه.

وأكمل:

– بيزنس إزبزنس، إنتي حتى خريجة تجارة ولازم تكوني مستوعبة

كلامي.

حينها وجدت أنه يمتلك بعض الحق.

الاتفاق اتفاق.

وكالعادة هو ألقى بجملة تمت أن تخنقه بسببها:

– واللي مش قد حاجة ميمشيش فيها من الأول.

ارتدت دبلتها لتضع شروطها:

– طيب، ماشي أنا كمان لسه محتاجة البيزنس ده ومن مصلحتي

إنه ما يتفضش في الوقت الحالي بس إنت لازم تبطل تستفزيا عشان

والله...

قاطعها وصحح لها كلماتها:

– نبطل نستفزيا بعض، بالنون يا أستاذة.

قالت بعدما تهمت؛ فهي تعلم أنها أيضًا تستفزيا مثلما يفعل في كل

وقت وفرصة ويجب أن ينتهي هذا الوضع حفاظًا على «الإنر بيس» أي

سلامها الداخلي.

مد يده مصافحًا إياها:

– هدنة!

وبادلتها الصفح:

– deal...

كانت فاطمة عائدة من السوق في اللحظة التي نطق حلیم فيها

بضيق موجهاً كلامه لمهجة:

– اعلمي حسابك هنسافر بعد العصر.

وحينها نظرت فاطمة نحو حلیم غاضبة فتهربت عيناه منها، غادرتها

متجهة للمنزل وقد نجحت بأن تخفي دموعها عنه وعن الجميع، ولكن

أمام مرآتها فشلت وانهارت عن جدارة، ها هو سيعود مرة أخرى دون أن تحرره من هذا الذنب.

حتى إنها نفسها لم تفهم ما الذي يحدث لها بحضوره، وكأنها تتحول لشخصية أخرى لا تبغى أن تمنحه صك الغفران بل وتعزز هذا بكل تصرف يخرج منها تجاهه.

ربما هي تعاني من انفصام روحي، تصبح تلك المتمردة التي تدفنها بأقصى أعماقها طيلة النهار لتنعكس عليها؛ فتتلبسها طوال الليل، وتحرمها النوم والراحة، وتلك المتمردة تظهر بوضوح بوجوده حتى بات الخصام قرار والبعاد نتيجة، وكأنه لا نهاية لهذا الطريق وهذا العذاب مهما مر عليها من وقت.

بعد أسبوعين...

– يلا يا سيف إنت لسه مبدأتش تجهز!

ولم يتحرك بعد أيضًا، كان بغرفته التي بات لا يفارقها سوى بساعات العمل، وحتى طعامه بدأ يتناوله بمفرده، تلقائيًا يشعر برغبة في الانعزال والزهد بكل شيء حوله وسيارته عاد يقودها رغم نصيحة الطبيب بأن ينتظر قليلًا، ولكنه رأى أن هكذا أفضل كي يتحاشى الاختلاط قدر الإمكان.

ربما السبب هو حالة عدم الاتزان والتي كانت نتيجة لتلك الفترة التي سقطت من ذاكرته عنوة، وربما السبب هو شعوره بأنه ليس نفسه، شك ما يراوده تجاه كل شيء حتى شخصه.

يضع احتمالية أمام كل حرف وكل تصرف وكل تهيدة تخرج من فم كل من يضطر للحديث معهم سواء بحكم العمل أو صلة الدم. يشعر بالغرابة بكل ركن تدوس عليه أقدامه.

ويا للسخرية؛ فقد اكتشف من متابعتة مع الطبيب وحديثه معه بأن آخر شيء تتوقف عليه ذاكرته هو هذا اليوم الذي كان سهاجر فيه ولم يحدث.

حتى إنه لم يعلم إن كان قد فارق العاصمة لفترة أم لا، لولا أبوه الذي روى له القصة كاملة بداية من تعب أمه واحتجازها بالعناية المركزة، وحتى قراره النهائي بعدم السفر، ووأد حلمه من أجل رضاها وسلامتها، وكأن عقله الباطن توقف عند تلك اللحظة التي تمنأها دهرًا، وقام بمحو كل ما هو يلها.

الآن لا يتذكر أي شيء عن تلك الفترة ولو فتات، ولا يعلم هل سيأتي هذا اليوم الذي يتحدث عنه الجميع وبإيمان تام كونه سيحين موعده ومعه ذاكرته المفقودة، وكيف تعود وهو يحيا أكثر لحظات حياته عبثًا! استيقظ من الحادثة على صورة فتاة لا يتذكرها، وتخبره أنها هي من اختارها زوجة وحببية، ولولا الظروف لبانت خطيبة رسمية، واليوم سيذهب لخطبتها!

— يا سيف كلنا جهزنا هنتأخر عن الناس كده.

وتهد ولم تتحمل أمه؛ فقعدت بجانبه توأسيه، تعلم أنه لن يتعامل مع الموقف بطبيعية، ولكنها تشعر بأن تلك الفتاة تحبه حقًا، وهي من ستساعده على اجتياز أزمته الحالية، وتعلم أيضًا أن قراره خرج بسبب الإشاعات القائمة بالشركة.

— إنت أديت كلمة للناس، والراجل كلمته سيف يا سيف.

نهض دون أن يتحدث فأكملت:

— شكلها بنت حلال وبتحبك بجد، من يوم ما قابلتها في المستشفى وهي متشحتفة عليك وأنا قلت هي دي اللي لازم تكون رفضت كل البنات دي عشان تكون هي نصيبك.

ورببت على كتفه وتركته ليبدل ملابسه، استمر بشروده وعاد لتلك النقطة التي توقف عندها بينما كان يقوم بضبط ياقته وزر قميصه. ما ضمانه؟ فربما الكل يكذب.

حتى إنه استمر على هذا الحال لعدة أيام بعد حديثه مع نوال والتي أخبرته عن الشائعات المنتشرة بالشركة، عن علاقته السرية مع الموظفة، كانت قد تحدثت معه من خوفها على سمعة ريم، وطلبت منه برجاء أن يسعى لحل الموقف قبل أن يتفاقم، وقتها قرر أن يقوم بنقل ريم من تحت إدارته حتى لا تكثر الإشاعات والأقاويل، ولم يفكر بعمل أي اختبار لها؛ فموضوع أنها صادقة كان بالنسبة إليه شيء مفروغ منه؛ ملامحها لا تكذب، عيونها ودموعها، الحادثة التي جمعتها والتي تعتبر أكبر دليل على صدقها.

مشكلته معها أنه لا يستطيع تذكرها، ولا بحالة تسمح بأن يستقر ويتزوج ويعول. قرر إغلاق صفحاتها وحتى إنه قام بإبلاغ نوال بأن تخبر ريم بأن تنسى أمره، لولا أنها صدمته برد فعلها؛ فقد ركبت سيارته قبل أن يتحرك فجأة، وأغلقت الباب لتخبره بصوت جريح وأعين باكية:

– ممكن تبعد عن هنا شوية، لازم نتكلم.

تأفف، فتح بابها، أخبرها أن تغلق الأمر برمته وترحل، ولكنها أصرت:
– أنا مش هنزل إلا لما تسمعني.

وبعدها أغلق الباب وتحرك بالسيارة بعنف ليتوقف بعدها بخمس دقائق منتظرًا أن تنهي حديثها وترحل.

– مينفعش تقرر فجأة إنك تقفل صفحة إنك مش لوحدهك فيها.
تحاشى النظر نحوها حتى لا يتراجع.

– يا بنت الناس، افهمي.

وأردف:

— أنا معدتس أنفعك لا إنتي أو غيرك.
قالت ريم على الفور وبكاؤها لا يتوقف بل يزداد:
— وأنا... أنا اللي معدتس أنفع خلاص.
تجمد، كلامها مُخيف ويحمل أكثر من معنى.
— أنا متأكد من نفسي وعارف إني عمري ما هادوس على شرف بنت.

نهفته بقولها:

— اتعديت على قلبي ومشاعري، دول شوية؟
وبعدها أضافت وكانت نبرتها صادقة وبدون تخطيط، تيقنت بأنها تحبه، تحبه بدرجة فاقت تخيلاتها:

— أنا مش هقدر أتجوز حد غيرك، مش هعرف، مش هنسى.
والتتمة:

— ولو إنت هتنسى أنا مش هقدر.

تهمد، مسح وجهه، نظر للمرأة ليري انعكاس دموعها على ملامحه.
كم تصعب الوضع تلك الفتاة! هو أساسًا بحالة لا تسمح له بحديث مثل هذا يضغط عليه ويخنقه أكثر.
«أستغفر الله العظيم».

أخبرها:

— كده أحسن، ده لمصلحتك.

ضحكت ريم ساخرة، من أين يعلم هو مصلحتها؟ من أين يدرك ما تعيشه؟ هو حتى لم يعلم اسمها إلا منها؛ فما الذي جعله يوقن أن حياتها من دونه ستكون أجمل!

هل يعلم شعورها كل مرة تخبرها فيها أمها بأنها عديمة النفع!

كل مرة توبخها فيها كونها خائبة الرجا!
أي مرة تجلس فيها مع شخص لا تقتنع به خوفًا من وصلات التوبيخ
بعدها!

كل ليلة تنام فيها وهي تشعر بأنها ستزوج في النهاية رجلًا يمثل
الواقع، ويحطم كل أحلامها كي تتخلص من «زن» أمها!
كيف يطلب منها الآن ببساطة أن تنسى وتترك أحلامها فيه كونه
مُنقذها وخلصها من كل هذا؟!
لن تنسى أبدًا، وستتمسك بخيط الأمل حتى لو استخدمت طرقًا
غير مشروعة.

– مصلحتي! إنت تعرف إيه عني عشان تقول مصلحتي!
قال باقتضاب:

– بكرة هتنسى كل ده.

وفتح باب السيارة كي يغلق كل محاولة منها لإقناعه ولكنها لن
تصمت هكذا ببساطة.

كيف تصمت بعدما وصلت إلى هنا بخطتها!

– وسمعتي اللي على لسان اللي يسوى وميسواش بسببك، دي
كمان هنساها عادي؟

وأضافت صارخة وكانت لا تستوعب كلماته، كانت تهذي:

– إنت هتتجوزني ورجلك فوق رقبتك.

صمت قليلًا ثم أخبرها بنفس النبرة الهادئة التي اعتبرتها هي منتهى
الاستفزاز:

– ولو مو افقتش؟

وكان ردها أتوماتيكيًا كأنها لفظته بكبسة زر:

– يبقى تتحمل نتيجة اختيارك.

وكانت سترحل لولا أنه أوقفها:

– يعني إيه مش فاهم وضحي كلامك.

قالت ببكاء هستيري:

– هنتحر.

وأردفت بعدما التقطت أنفاسها:

– بكرة أما تعرف إني انتحرت أتأكد أنه بسببك.

قال زاعقًا:

– إني اتجننتي.

وأوضحت له بتصميم:

– متوقع إيه؟

وأكملت:

– أنا حياتي اتدمرت وسمعتي كمان.

وابتلعت ريقها لتضيف وتسجل هدفًا أخيرًا في شباكه:

– معدش عندي أي حاجة أبكي عليها وأعيش عشانها، نتقابل في

الأخرة، سلام.

صاح بها:

– استني هنا.

وتوقفت وأدركت أنها والحمد لله قد نالت ما تريد.

هو رغم أنه صفيق ورخم وثقيل الدم، وكلماته تجلظها إلا أنها تعلم أن خلف ذلك اللسان الحاد شخص حنون لن يتحمل مثل هذا الذنب الذي وضعته على كتفيه.

وقد كان، أخبرها وقتها أن تمنحه فرصة للتفكير، وبعدها طلب

عنوان منزلها.

قطف الحياة ووضعها بكف يدها.

زرع بقلها سعادة، وبروحها أمل كانت فقدته مع الأيام.

أسعدها، هي حتى لا تتذكر أنها قد سعدت بحياتها من قبل أن يدخل وينتمي إليها.

سعادة بُنيت على الزيف، وهذا يخيفها وكثيراً، ولكنها تنشبث بها حتى ولو كانت مؤقتة.

استمعت لجرس الباب فانفض قلبها.

نظرت لنفسها بالمرآة ثم سألت أخيها والذي كان يتابع تصرفاتها بصمت، وتعجب؛ فهذا الحدث الفريد لم يطأ منزلهم من قبل.

«ريم بتتخطب، ولوووووووولي وإيموشن رقاصة ببدلة حمراء».

– شكلي حلوا!

قال بسماجته المعتادة:

– وهتفرق في إيه مهو خلاص عارف شكلك وشافك قبل كده وربنا يكون في عونك.

«يا ربي صفيق صغير أخرج بالمنزل، العالم مليء بالصفقاء».

ألقته بأحمر الشفافة و «يا رب ما يكون جواله حاجة».

– بقولك إيه اطلع من أوضتي ولم قططك – أبناء ريكا الأعزاء – معاك ما توترونيش.

وقبل أن يفتح الباب وجدت أمها تخبرها:

«هاتي الصينية واخرجي ومتخافيش هعمل زي ما اتفقنا».

أخذت صينية «الجاتو والحاجة الساقعة» وقدمتها حسب الأعراف، أبويه ثم أبويها وبعدها هو ليخبرها بشبهه ابتسامته ومجاملة:

– ازيك؟

فتنهار، ويسقط الكوب ليتلخ قميصه وبنطاله.

وعلى رأي المثل:

«دقت الطيلة فبانة الهيلة».

الفصل السادس عشر

(يا ليلي حبك من السما أجمل هدية)

خمس وعشرون دقيقة وثلاثون ثانية وربع وهي تحيا بعالم آخر.

شردت بالحلم.

حلقت بالسما.

شاهدت نفسها بفرسان الزفاف وأمامها أمها تقذفها بالورود الحمراء، ولسانها لا يتوقف عن إطلاق الزغاريد، وكانت تحتضنها كل هفوة بينما عيونها «تسح» بالدموع في مشهد درامي أمومي «أوفر».

والأطفال الصغار من حولها يتسابقون على حمل الشموع من خلفها.

شموع!

وحينها تدخل عقلها «الفصيل» ليقطع عليها حلم اليقظة بتساؤل.

«هولسه فيه شموع في الافراح لحد دلوقت؟»

«مممم، معتقدش دي حاجات بطلت من التسعينات».

«بس مخ الواحد متبرمج على الصورة دي والجزمة مش بيعمل

ابديت».

«خلاص مشيها المخرج عاوز كده».

وهنا عادت للحلم ودمعت عيناها.

فالأطفال الملائكيون المبهجون الجمال والرائعون، والذين بالتأكيد قد حضروا «بالغلط» أو ربما يكونون من عائلة العريس؛ فهي لا تعرف أطفالاً ملائكيين أبداً، جميعهم أوغاد من عينات أخيها رامي وحسن وحسين أبناء عمتها.

وكانوا الأطفال «الكويوت» يغنون.

«طالعة السلالم يا ماشا الله عليها، ست العرايس والعريس في أيديها».

ووقفة أخرى.

«في أيديها، مش العروسة اللي في أيديه، انتو تقصدوا إن أنا دبسته لا سمح الله، لا محصلش، أنا لا «أدبس» ولكني أتجمل».

وصوت العقل يخبرها، العقل الذي تخدمه بكل الطرق.
أو لنقل الضمير.

«إنتي مصدقة نفسك، هو مش بيحبك».

«بس هو مش بيحب حد، سيف مش بتاع حب أصلاً، بس بكرة يعرفني ويحبني و...».

«بكرة! بكرة ممكن يفتكر!»

وكان قلبها انقبض على السيرة.

«يفتكر!»

«أكيد هيجيله يوم ويفتكر، وساعتها هيحصل فيكي إيه، هيرميكي ويدور على واحدة تانية يحبها وتحبه».

«و أنا! أنا اللي بحبه».

وقررت أن توقف صوت العقل والضمير عند تلك النقطة؛ فهي لن تسمح لأي شيء يفسد عليها جمال اللحظة، هي عروس، ريم عروس، هي لن تصبح عانسًا و «بيت وقف» كما كانت تشير كل الظروف والملابسات.

ترقرقت الدموع بمقلتها، لا تصدق، متى ستصدقين أيتها البلهاء؟ ألا يكفي أنه بسبب حماقتك لم تتحملين ابتسامته منه فانسكبت الصينية بأكملها على ملابسه في وضع أقل وصف له «قمة الإحراج»؟ حتى إن ملامحه قد تغيرت تمامًا بعدها، وأخذت منحني «عدي يا ليلة أو

ماتعديش براحتك، أنا هاخذ بعضي واروح».

وهي رمقته بنظرة معتذرة متوسلة بمعنى «أنا آسفة، أنا عارفة
إني لخمّة، هبلّة يمكن، لا مش هبلّة أنا خدعتك، أنا... أنا مش هاعرف
أعيش من غيرك لو سبتني، متسبنيش، سامحني».

خرجت من حلم اليقظة ومجموعة أفكارها المشتتة على صوت
أبيها يسأل سيف، هذا الرجل الصامت الغامض منذ قدومه وكأنه
ضيف شرف بالحلقة.

– ساكت ليه يا سيف يا بني؟

والموجه إليه السؤال كان شاردًا بهاتفه، يراقب دقائق الساعة،
وينتظر أن ينتهوا مما يفعلون بملل. رفع عيناه عن هاتفه عندما استمع
لأسمه، وعندها تلاقى أعينهما، كانت عيناه تخبرها أنه هنا وروحه
بعيدة، وهو ربما لا يتذكر لَمَ قد حضر اليوم مثلما نسي أشياء كثيرة،
وعيناها هي تخبره بأنه الأمل، الحب والسعادة وهو لم ينس كيف يسكن
الحب في أعين الفتيات، وكيف يكون صادقًا.

وهي تحبه، يعلم وهذا ما يزيد من حنقه وانقلاب ملامحه.

فتح فمه كي يجيب على حماه المستقبلي، ولكن أمه قاطعته؛
فهي تعلم وتدرّك أن ابنها العزيز «محدث يتوقعه» وخاصة بالفترة
الأخيرة، وهي لن تترك الوضع يسير حسب الظروف، لا بالعكس فهي التي
ستتحكم بالظروف حسب ما تحلم وتريد.

قد جاءت الفرصة لطالما تمنّتها، لقد كان دومًا يراوغ كلما تفتاحه
بسيرة الزواج، ويتحجج بأشياء برأيها ليست مقنعة، وتعلم أنه كان
سيماطل سنوات قادمة أخرى حتى يصل للشيء الذي يريده، السفر
وبأي طريقة وثمان، والوضع بالنسبة إليها كمن يجلس على فوهة بركان
وينتظر لحظة انفجاره، والبركان يتمثل في غربته وابتعاده عنها. تفوهت
ببعض الحذر:

– أنا بقول بلاش نطول في الخطوبة، سيف شقته جاهزة
ويدوبك شوية تشطيب والعفش وخلافه يعني كلها شهر شهر ونصف
ونبقى جاهزين حتى نلحق نعمل الفرحة في الصيف.

وبعدها أردفت بعدما نظرت لابتها:

– ولا إيه رأيك يا أبو سيف؟

وابتسم أبوه مرحبًا بفكرة أمه العبقرية، ويعلم سيف أنها قد
اقتрحت هذا العرض بعد اتفاق مسبق بينهما.

اغتاظ، تفاجأ في البداية وكثيرًا، نعم، ولكنه سرعان ما تلبس
سكونه بعدها.

ارتاحت ملامحه وعاد لمبالاته ومبدأ «هي كده كده مش فارقة
كثير»، لم يعلق لكن الرد خرج من والد ريم السيد إحسان والذي قال
بمنتى الهدوء:

– أنا بقول بلاش نستعجل حتى الولاد ياخدوا على بعض أكثر.

وعند تلك النقطة تحديدًا تدخلت «أم ريم» حسب ما اتفقت
مع ابنتها، عادت للخلف عدة أيام، فقد كان تقدم سيف للزواج بعد
محاولاتهما السابقة التي باءت بالفشل «شيء لا يصدقه عقل» لذا على
الفور سألتها:

– مديرك! الرخم اللي كان بيستقصدك واللي كان ناوي يطردك!
عاوز يتقدملك!

– أيوة ياماما.

ولن تقتنع أبدًا، هناك شيء ما غريب وابنتها الحمقاء لا تستطيع أن
تخفي ما بداخلها ولو لخمس دقائق.

– وده فجأة كده!

وأجابت ريم بتلعثم وتوتر أيضًا:

– معرفش، هو طلب عنوان البيت، أقوله لأ؟

– ريم.

ونطقها بمعنى «ماتلفيش وتدوري الكلمتين دول مش على ماما يا حبيبتى».

لتعترف لها في أقل من ثلاث دقائق، وينال التحقيق جائزة الأوسكار؛ كونه أسرع تحقيق بالتاريخ.

اعترفت نعم، ولكنه لم يكن اعترافًا كاملاً، بل طوعته في صالحها قدر المستطاع.

– بصي يا ماما بصراحة هو كان معايا في الحادثة وكان بالصدفة وبعدها طلعت اشاعات كتير في الشركة وإن فيه بينا حاجة وكده.

– يا لهوي وبعدين.

– هو أصلاً مش فاكّر حاجة وأنا منفيتش اللي حصل وكمان أصريت عليه إنه لازم يتقدملي.

وبعدها أكملت ببياء:

– ماما أنا عارفة إني غلطت غلطة كبيرة بس هو أنا حتى لو نفيت عمر ما حد هيصدقني ولا الاشاعات كانت هتقف.

تجاهلت أمها كلماتها الأخيرة فهي تريد «المفيد» فقط.

– وهو عمل إيه؟

– كان مُصيربعدي عن طريقه وحتى كان ناوي ينقلني من الشغل خالص بس أنا هددته إني ممكن انتحر لو اتخلى عني بعد ما سيرتي

بقت على كل لسان.

وحينها فاجأتها أمها بردها وبفرحتها العارمة، وبالفخر الذي يملأ عيونها ناحيتها للمرة الأولى بحياتها:

– بر افو عليكي يابت ريم، تربيتي.

سألها ريم بعدما أخذت وقتها في استيعاب كلامها فقد كانت تتوقع أن تسبها وتلعنها على فعلتها المشينة:

– أنا مرعوبة يا ماما لترجعه الذاكرة.

وعدتها أمها:

– أنا هخلصك الجوازة دي في أسرع وقت، بعد الجواز لو افتر مش مشكلة هتبقي خلاص الفاس وقعت في الراس.

– بجد! طب وبابا، تفتكري هيو افق؟

ورد أمها طمأنها، فقط القليل:

– سيبي أبوكي عليا، أنا هعرف اقنعه إزاي.

وبالفعل هي تعرف قدراتها وسيطرتها على زوجها لذا لم تشغل بمعارضته الآن، هي فقط ما يقلقها ذلك السيف الصامت والذي تعلم أنه لا يعجبه أي شيء مما يحدث، وسبحان من صبره على ما بلاه. يجب عليها أن تتحرك سريعًا قبل أن يطير من العش، وقد ساعدتها أمه من دون أن تعلم على إحكام السيطرة على الموقف أو بالأحرى «جت على حجرها».

قررت هناء أن تنفرد بهدى – أم سيف – في جلسة سرية مهمة للغاية، وقد تحججت بأن ترى «الفيو الرائع للشرفة والتي تطل على أشهر بائعي الفول والطعمية بالقاهرة وضواحيها».

«أي كلام في الكلتش».

وجهت كلامها لها بحسم:

– ريم بنتي الوحيدة واللي طلعت بيها من الدنيا ومش معنى إن فيه كلام متنور هنا وهناك إنني هو افق على سلق البيض ده.

وأجابتها أمه على الفور:

– لا إنني فهمتي غلط خالص، كل اللي هتطلبوه على راسنا من

فوق يا أم ريم ومن أحسن محلات في البلد.
وأردفت:

– أنا بس مش عاجبني سيف من بعد الحادثة خالص، متلخبط
وتايه وحاسة إننا لو بدرنا من الفرح والولاد استقروا ده ممكن يخليه
يتحسن أسرع ويرجع لطبيعته.

وحينها وضعت هناء كلمة الختام:

– وأنا مش هلاقي لبنتي ناس ولاد حلال وأحسن منكم، هحاول
مع أبو ريم في الموضوع وأرد عليكم واللي فيه الخير يقدمه ربنا.
والحقيقة أن إقناع أبو ريم لم يأخذ منها أكثر من ثلاث دقائق،
ولكنها منحتها الرد بعد ثلاثة أيام لتخبرها بصعوبة الوضع وجهودها
الجبارة كي تحصل على موافقته في النهاية.

ما اتحرمش العمر من عطفك عليا

يا للي حبك م السما أجمل هدية

ما اتحرمش العمر منك يا حبيبي

ولا من ضحكة عينيك الحلوة ديا

أغلق المذياع بتأفف، تلك الأغنية باتت تذكره بها بعد أن نطقت
بها يوم الخطبة...

كانت أمه ممسكة بالشبكة، ناولته قطعة قطعة ليقوم بتليسيها
لعروسه، وبعدما انتهى من السلسال والذي كان آخر مهامه همست له
أمه بأذنيه:

– مش هتبوس راس عروستك؟

وتعليقه الساخر لن يفارقه بالطبع:

– اشمعي!

نهزته أمه:

– يلا يا سيف متحرجش البننت قدام أهلها وصحابها.

ابتسم سيف مشاركة منه في الأجواء العامة والمعنويات المرتفعة، جز على أسنانه، وبعدها اقترب منها ليقبل جبهتها سريعاً كمن يؤدي فرضاً وواجباً، ولكنها فاجأته بكلمة علقت بذهنه لأياماً بعدها:

– متحرمش منك.

نظر نحوها، وحتى إنه ترك رأسها ببطء بينما يراقب ملامحها، عيناها التي تكدست بدموع السعادة، امتنانها له الذي عبرت عنه بابتسامتها، حياها العارم له والذي يحاصره من كل الاتجاهات فلا يستطيع إنكاره والتهرب منه مهما فعل.

بساطمها والتي تلخصت بكلمة عفوية خرجت منها بمنتهى الصدق، ودون حتى أن تدركها بالكامل.

«متحرمش منك».

ما هذا! أتلك مؤامرة؟

وكانها تحاصره من كل الاتجاهات، بالعمل أمامه وبالمنزل هو يراها في كلمات أمه والتي يبدو وكأنها تبنت قضيتها؛ فهي لا تتواني عن مدحها في كل لحظة، أدب وأخلاق وذوق ورقة، وقد سكنت قلبها منذ الدقيقة الأولى وكأنها ابنة أختها وليست خطيبة، ابنها والتي من المفترض أن تغار منها وأن «تطلع فيها القطط الفطسانية» كما المعتاد.

والآن وحتى في تلك الدقائق المعدودة التي ينفرد بها بنفسه من منزله لعمله تأتي تلك الأغنية لتعيد كلمتها على مسامعه مرة أخرى وكأنها خرجت من بين شفتمها الآن.

صف سيارته أمام الشركة وبعدها دخل، تجاهل بطريقه حتى

مكتبه كل التهاني التي انهالت على رأسه، توقف أمام إيناس «السكرتيرة العامة» وأخبرها:

– لوفيه أي مواعيد ليا أجليها وتابعي مع مترجم الوفد الأجنبي
عشان نستقبلهم من المطار.

ابتسمت مرددة:

– حمد الله على السلامة يا مستر.

وكان بعودة حماسه للعمل عاد إليها الجو الذي كانت تفتقده الأيام
الفاترة الماضية، وكان روح الشركة عادت إليها، وأجابها هو مبادلها
الابتسامة وأخيرًا:

– قولي لعم خالد يدخلي القهوة بتاعتي.

– عنيا.

دخل المكتب ووضع حقيبته على جنب، أمسك هاتفه ليباشر
عمله ولكن نوال اقتحمت مكتبه قبل أن يبدأ.

– مسترفيه مشكلة.

أنزل يده الممسكة بالهاتف ثم سألها:

– فيه إيه؟

– حسناء سابت الشغل، بلغتني الصبح إنها راحت شركة ثانية.

استنكر وكرر:

– بلغتك! والله ده شيء حلو جدًا.

ولم يعلق أكثر، كلاهما يعلم السبب؛ فهي قد تحملت معاملته
الجافة مؤخرًا من بعد الحادثة ولكنها لن تتحمل خبر خطبته من أخرى.

كان الأمل يراودها، ثقها العالية بنفسها وبإمكانياتها «الكبرى»
كانت السبب في عدم انقطاع أملها فيه.

في تلك اللحظة دخلت ريم الغرفة وكانت بيديها بعض الأوراق التي تنتظر توقيعه، والحقيقة هي جاءت كي تراقب ردود أفعاله على خبر استقالة حسائه وتركها للعمل.

سألته نوال:

– حضرتك مش هتكلمها يا مستر، حتى تكمل معنا لحد ما نلاقي بديل.

وأجابها سيف بروده السابق:

– وأنا أسألها ليه، هي كانت بلغتني من أصله؟

وكان مختلماً هذا اليوم؛ وكأنه قد قتل ذلك الشيخ الذي كان يتحرك بدلاً منه واستعاد نفسه.

وربما هو رتب أوراقه.

هو لن يحيا طيلة عمره على شفا الذاكرة المفقودة، إن كانت ستعود فلتعود وإن كانت لن تعود فلا يظن أنه كان بها أشياء أهم من حياته ومباشرة عمله الآن.

– طب هنعمل إيه يا مستر؟

قال ببديهية:

– إنتي وريم هتشيلوا شغلها لحد ما نشوف حل.

قالت ريم ونوال بنفس الوقت ونفس الاستنكار:

– نشيل!

قالت ريم:

– استحالة، كل واحدة فينا عندها شغل متلتل، المفروض إنت

توفر بديل و...

قاطعها سيف:

– اسمها حضرتك.

وبعدها أضاف بعدما أشار لدبلته وكأنه يضع النقاط فوق الحروف
أو «يدبح لها القطة» كما يقولون:

– طول ما احنا في الشغل دي مش هتغير حاجة.

تعجبت نوال من طريقه حديثه معها ولم تفهم لمَ أخرجها أمامها،
ولكن ما يهمها وما يخيفها هو أن تتصرف ريم بحماقة تزيد من توتر
الأجواء.

وضعت ريم الأوراق التي بيدها أمامه وقالت بصوت مخنوق على
وشك بكاء وانفجار:

– آسفة يا مستر.

وبعدها أرادت الرحيل ولكنه أوقفها:

– أنا لسه مخلصتش كلامي.

فاستدارات ناحيته، وحينها لم تتحمل وبكت، سألت دموعها ولا
مجال لأن توقفها بعد الآن.

فاجأها، من المستحيل أن تتخيل أن يكون هذا أول يوم بالعمل
بعد خطبتهما الرسمية!

كانت تظن أنه سيتغير من بعد الحادثة، هق، حمقاء فالفترة
الماضية ما كانت إلا مجرد سكون لعواصفه لا أكثر أو أقل.

نظر نحوها سيف، وشاهد دموعها، وأراد أن يضحك على حركات
وجهها المغتازلة وحديث النفس غير المفهوم هذا، ولكنه اكتفى
بسؤاله:

– بتقولي حاجة؟

واكتفت ريم بأن تنظر له بحنق وبعدها رددت:

– مفيش.

تجاهلها وأمسك هاتفه وحدث إيناس السكرتيرة أمرًا:

– كلي محامي الشركة وبلغيه إنه يرفع قضية على الأستاذة حسناء لأنها سابت الشغل من غير ما تبغنا قبلها بشهرين زي ما مكتوب في العقد بتاعها.

وبعدها وضع السماعة ليوجه كلامه للفتاتين:

– شغلها هيتقسم عليكم لحد ما نلاقي بديل والي عنده اعتراض الباب أهو جنبنا مش بعيد.

«كابتن، كابتن، هو كله ضرب ضرب».

منك لله يا راجل.

لقد نجح في أن يكرهها في الزواج ومن اليوم الأول.

وعظيمة يا مصر.

جاءه هاتف من إيناس:

– الوفد في طريقهم من المطار يا مستر وعمار ومازن من قسم التسويق معاهم دلوقت.

أجابها بقوله:

– حلو جدًا، دخلهم عليا أول ما يوصلوا.

وبعدها وجه حديثه لفريقه العزيز:

– تقدرُوا تفضلوا، والنهارده مفيش مرواح قبل ما كل الشغل يخلص.

وما بين اجتماعه المطول والذي انتهى كما يريد فتعدل مزاجه، وبين العمل الذي وضع على عاتقها قسرًا فتسبب في رحيلها متأخرة عن موعدها الأصلي تقريبًا ثلاث ساعات انتهى الدوام.

كانت متأخرة و «مكبوسة» وحانقة وغاضبة منه لأبعد حد حتى

إنها قد فسرت تصرفاته كأني أنثى على أن السبب الأوحد هو غضبه على رحيل «البرنيسية» خاصته.

«ياكش تولع انت وهيا والكل كليله».

انتهت لسيارته بمجرد خروجها من بوابة الشركة، ولكنها تجاهلته ولم تعيره اهتمامها حتى بنظرة أو ابتسامة، سار خلفها وضغط على زامور السيارة فتوقفت.

أخبرها:

– اركبي.

فقالت باقتضاب:

– شكراً عارفة الطريق، أقدر أروح لوحدي.

ليزداد صوته حدة ويرتفع مستواه:

– اركبي اخلصي.

لتنصاع لأوامره في النهاية، ولكن حنقها منه لم يختفٍ ويزول بعد.

«فيلم هندي».

هذا ما يعيشه بالفترة الأخيرة وقد نفذ صبره حقاً.

تساءل، هل هناك «فوبيا ولادة!» أم أنه هو الذي تزوج من سيدة «أوفر» تفترض أشياء وهمية بعقلها وتصدقها وتعيش عليها، وحقيقة حملها منذ بدايته وهو قمة الغرابة؛ فلقد كانت أقصى معرفته بالوحم تتلخص في طعام أو شراب ولكن...

«سربرايز» مفاجأة، زوجتك تتوحم على البنزين.

ومنذ بداية الشهر الرابع تقريباً، وحالتها تسوء حتى وصلنا إلى هنا ولا يعلم لِمَ هي تتصرف بتلك الصورة وذلك العناد.

والفترة الأخيرة أصبح يعيش مجموعة أفلام أبيض وأسود على هندية، تسأله إن كان سيتزوج إن لم تخرج من غرفة الولادة سالمة، ثم تبكي بعدها وتخبره بتوسل أن يعطي الطفل لأمها حتى تتولى تربيته؛ فهي لا تريد له زوجة أب!

جنون، سيطرت عليها الفكرة حد الجنون.

والآن وهو يشهد توترها، زرقة شفيتها وشحوب ملامحها تتمكن منه الفكرة هو الآخر.

قال لها للمرة الألف تقريباً:

— يا منال يا حبيبتي اللي بتعمله ده غلط، مينفعش تكوني رايحة تولدي من غير ما تعرفي مامتك، هتزعل أوى خصوصاً إنها كانت لسه هنا الصبح.

وصرخت به منال:

— قولت لأ يعني لأ، متضغطش عليا بقا أنا فيا اللي مكفييني.

وكان إصرارها مرعباً له، عنادها يزداد مع اقتراب الولادة حتى إنها كانت تُصر على أمها بعدم المبيت كلما اقترحت عليها، وكانت تتصنع القوة في وجودها قدر المستطاع حتى لا ينشغل بالها عليها، واليوم...

اليوم توقع أنها ستخبر أمها عن موعد ولادتها القيصرية، والذي حدده الطبيب لها منذ عدة أيام، فعلى حد قوله لا يمكن الانتظار وهي بتلك الحالة حتى موعد الولادة الطبيعية، ولكنها قررت عدم إخبارها، وكأن عدم خروجها من غرفة العمليات أصبح حقيقة حية لا تقبل الشك!

قال لها بحنق وتوتر:

— طب يلا عشان منتأخرش.

وسألها:

– أساعدك تلبسي؟

وأخبرته بنبرة حادة تعود لرغبتها الشديدة في البكاء وتوترها الذي فاض منها ولم تعد تحتمله:

– أنا هلبس لوحدي.

وتركها وخرج وهي تحاملت على نفسها وبذلت مجهودًا يفوق وهن جسدها حتى ترتدي ملابسها ولكن وقبل أن تنتهي كانت قد سقطت على الأرض بقوة.

حاولت أن تنادي وتستنجد بزوجها، ولكنها لم تعد تقوى على أي رد فعل وكان نادر قد استمع لصوت ارتطام بعد خروجه من الحمام فركض نحوها.

أمسكها كي يساعدها على النهوض ولم يفlech، تلاقت أعينهما للمرة الأخيرة وكأنها كانت تنتظره كي تطالبه بتنفيذ وعده لها بتربية طفلها في أمان، وألا يخلف وعده لها ويتزوج من أخرى تنسيه إياها.

شُلت حركته لدقيقة كاملة لتقع على رأسه فيها كل تلك الأفكار السوداء التي يعيشها معها بالفترة الأخيرة، وبعدها ركض نحو هاتفه ليحدث الإسعاف أولاً، وبعدها هاتف والدته منال كي تسبقهم على المشفى.

طوال الطريق بعربة الإسعاف كان يراقب سكونها بخوف، هل صحيح أن الإنسان يشعر باقتراب وقت رحيله عن الدنيا!

هل كل تلك الوعود التي كانت تقطعها منه وظنونها السوداء والتي اعتبرها خوفًا زائفًا ما هي إلا مقدمات فراق؟

وظفله!

طفله «أحمد» والذي كان يحلم بقدمه حتى من قبل زواجه، صديقه المستقبلي وحلمه وامتداد نسله وذريته، حبيبه وروحه ونطقته

وأخوه وعائلته.

همس بصمت «أحمد!» وظل يتقرب من بطنها المنتفخ على أمل أن يستمع لأي إجابة لندائه، ولكن لم يحدث بينما طاقم الإسعاف، كانوا يتابعون حالتها من خلال أجهزة لم يفقه بها أي شيء، سألهم:

– هي كويسة؟

ولم يمنحوه إجابة، منهمكين بما يفعلوه لحد مخيف، وكأنها النهاية! وصلت سيارة الإسعاف أخيرًا للمشفى، ركضوا هم بزوجته نحو غرفة العمليات، بينما هو غارق بدوامته ليركض نحو غرفة طبيها المعالج.

دخل للمكتب وأخبره بارتباك:

– منال تحت ووقعت ومش في وعيها ومش عارف مش بتتحرك

و...

قاطعها الطبيب سريعًا:

– ماشي ماشي متخافش أنا هنزلها حالًا وهعمل اللازم.

وكلمة اللازم تحمل أكثر من معنى.

هل سيحدث كما يشاهد بالأفلام ويقوم الطبيب بالتضحية بالجنين من أجل إنقاذ الأم؟!

أم المفترض أنه سيخيره قبلها؟

ولو حدث وخيره ماذا سيختار من بينهما!

هو يحبها نعم، ولكن ابنه هو روحه، حياته، أمه.

كم كان ينتظره، وكم أحبه من قبل قدومه.

هل سيأصلون روحه من رحمها!

لم يتحمل الفكرة، ووجد نفسه تلقائيًا ينادي على الطبيب ويخبره

بقرار:

– دكتور لو اضطر الأمر إنك تختار بين مراتي و ابني.

وأردف بقرار:

– أنقذ ابني.

الفصل السابع عشر

(ملعون أبو الناس العزاز)

عندما فتح باب السيارة أمرًا إياها بالركوب ظنت أنه يود مصالحتها بعدما زعق بها أمام نوال وأخرجها، قفزت بجانبه بضجر، وكانت تنوى الدلال ولكنها فاجأها بصمته!

كان يبدو أنه يقود السيارة بلا هدف، وفجأة توقف بالقرب من سور كورنيش النيل، وكأنه اتخذ قرار ما لتتسارع دقات قلبها، لقد تذكر وسيلقها في النيل بعد أن يقتلها ويثأر منها على تلك الكذبة والجريمة الشنعاء.

«يا صغيرة ع الهوم يا لوزة، ملحقتيش تفرحي».

وعندها شعرت بأنه يجب أن تواجهه فسألته بأعين حائرة قد ضلت طريقها:

— هو فيه إيه يا سيف؟

كان يسألها دون أن ينظر نحوها:

— اتعرفت عليكي إزاي؟ في الشغل ولا كنت أعرفك قبل ما تشتغلي معايا.

— لأ، مكنتش أعرفك قبلها.

والسؤال التالي:

— وبعدين.

— بعدين إزاي!

وأشار لها برأسه بمعنى أن كلامه واضح ف«بلاش استعباط» وهي شعرت بالخجل أو بالخوف لا فارق، سألتها:

— كنا بنخرج سوا؟

وأردف بينما كانت يده تتجه ليدها:

– كنت بمسك إيدك؟

فسحبت يدها بسرعة وضربته عليها بتلقائية غاضبة:

– لأ طبعاً أنا أشرف من الشرف.

ولم يشعر بالراحة ولم يفهم منها أي شيء فسأل بنبرة أكثر حدة وأقل صبراً:

– أيوة يعني كنا بنعمل إيه برده؟

أجابته بوجه مكفهر:

– ما تحترم نفسك.

طرق على رأسها بأصابعه:

– مش القاذورات الي في دماغك.

وأضاف:

– بتقولي إننا كنا بنحب بعض وكنت هخطبك، وصلنا لهننا إزاي؟

تنحنت عدة مرات حتى تفكر بالكلمات، وتستعيد روح التمثيل، ولكن خوفها قد أثر في أدائها فهي لم تستعد قبلاً لهذا الاستجواب، وبالنسبة إليه كان متشوقاً لإجابتها التي لم تنطق بها بعد، يرى فيها الطريق للنقطة المظلمة في عقله، يريد أن يصل عن طريقها لكمالته وما ينقصه.

– عادي، أنا أنا بشتغل معاك ومع الوقت يعني كده.

أسوأ إجابة في التاريخ، لم يصل منها لأي شيء أساساً، سألها

بتعجب:

– بس إنتي كلامك مكانش بيقول إنه عادي، ولا أنا ممكن أقرر

اني اتجوزواحدة عشان عادي.

ابتلعت ريقها وحاولت التماسك:

– أكيد مش عادي زي ما فهمت، بص أنا مش هعرف أشرح.
وأردفت مغمضة عينيها:

– الحاجات دي مبتقالش والموضوع محصلش في يوم وليلة،
كل يوم كان فيه حاجة بينا بتكبر لحد ما وصلنا إننا معرفناش نخبها.
كان يفتح فمه كي يتحدث ويكمل استجوابه فقاطعه بعد أن
شعرت بالورطة فهي لا تعلم عنه أي شيء ويا للصاعقة:

– ولو سمحت متحرجنيش أكثر من كده.
ومع صمته استعادت أنفاسها المقطوعة.
«الحمد لله يا رب سكت».

أخرج أرجيلته الإلكترونية والتي علم فيما بعد أنها هدية شقيقاته
المجانين بعيد ميلاده الأخير من تابلوه السيارة، نفث دخانها ثلاث مرات
متتالية وبعدها قال:

– طب والحل؟ إنتي مش عارفة تفيديني وأنا مش عارف افتكر.

– مش لازم تفتكر.

قالتها سريعاً وأدهشته فأردفت:

– ممكن نبدأ من الأول.

وانخفض معدل حماسها فأتمت حديثها:

– ده لو حابب طبغاً.

لم يعلق أيضاً فاغرورقت عيناها حرجاً وبعدها التفتت للجهة
الأخرى. أخبرها بينما كان يتأمل دخان أرجيلته الخانق لها:

– أنا محدش ممكن يغصبني على حاجة، يعني مش لو عندي نية
إني أبدأ كنت بكل سهولة ممكن انهيها النهارده، واهو كلام الناس يبقى

وقف بخطوبة.

انفجرت أساريرها وتسلسل النور لوجهها المظلم وبعدها «زي الهيلة»
سالت دموع الفرح، سألته:

– بجد يا سيف؟
وأكملت:

– أنت حبيب إنك تبدأ معايا من الأول!

وابتسم كرد فعل على فرحتها البالغة، وبعدها أخبرها بينما أعاد
تشغيل سيارته:

– هو صلك.

وبالنسبة إليها هي اكتفت بتلك الجملة، ونسيت غضبها وثورتها
والإحباط المستمر الذي يصدره لها؛ فالبداية أمل، وأول الغيث قطرة،
وربنا يستر منك يا صفيق.

وصلت للمشفى فرأته يركض من بعيد وتلقائيًا جرت نحوه، بينما
أمها قد ذهبت باحثة عن غرفة العمليات التي تأوي ابنتها.
أخبرتها بينما كانت تذهب خلف نادر:

– ماما اطلعي وأنا هشوف نادر أكيد رايح للدكتور.

اختفى عن ناظرها فسألت ممرضة مارة بالرواق فأشارت لها على
الغرفة المنشودة، توقفت أمامها وقبل أن تطرقها كانت كلماته تنزل على
مسامعها كالمطر في عز الشتوية.

«دكتور لو اضطر الأمر إنك تختارين مراتي و ابني انقذ ابني.»

لم تشعر بنفسها إلا بعدما اقتحمت الغرفة، وانقضت على رقبته،
ولسانها يتفوه بعدم وعي وبأرق الألفاظ.

- أه يا واطي يا حيوان يا زبالة يا متخلف يا كليللليلل...
وأردفت بينما كادت تخنقه وهو يحاول الهروب؛ فهو يهاب تلك الفتاة عن حق ولا يجراً على أي رد فعل أقوى.
يراها نمرة، نظراتها تخيفه.
تراه أكثر مما يرى هو نفسه.
تعريه من مثاليته المزعومة وتشعره بكل مرة أنه ما هو إلا شخص وصولي يمتلك بلسانه كل ما يريد.
عمل أصدقاء أهل زوجة مصالح.
بالنسبة إليهم هو الدنيا وكل شيء، وأمامها هي بالذات نكرة ولا شيء. كانت تصرخ بوجهه بينما كان الطبيب وبعض الممرضات قد نجحوا في إخراجه من تحت يدها:
– إنت تعمل كده، يا حيوان، ابنك إيه يا حيوان، وهي! هي إيه عادي؟ كلبة وراحت.
ولم تتحمل الأخيرة فاتجهت نحوه، وتلك المرة كانت تتمنى الوصول لرقبته ولكنهم يمنعوها عنه، جميعهم حرقاء.
كان نادر يبرر لها:
– والله يا مهجة ده كلام منال مش كلامي، هي وصتني و...
قاطعته بهستيرية:
– اخرس، منال عايشة مامتش، هتعيش إنت فاهم.
وبعدها تدخل الطبيب بعدما رمق نادر بنظرة غاضبة وبمعنى «أه يا كذاب».
– ممكن تسكتوا بقا عشان انزلها، دي مستشفى وهنا فيه مرضى يعني مشاكلكم العائلية دي تحلوها برة.

وتركهم ورحل.

ومهجة رمقت نادر بنظرة نارية وبمعنى «صبرك عليا» وبعدها تحركت راكضة خلف الطبيب وتركته يلتقط أنفاسه، ويعيد ترتيب هيئته التي بعثرتها.

بمجرد أن وصلت لغرفة العمليات اتجهت أمها نحوها وسألتها بخوف:

– ما لك وشك أصفر، أختك جرالها حاجة، الدكتور قال إيه هاه؟

وتماسكت مهجة بالكاد لتخبرها:

– مفيش حاجة الدكتور لسه داخلها قدامك.

احتضنتها شيرين وبكت بحدة وارتعاد لم تشهدهما مهجة من قبل، بينما هي تشعر برغبة قوية في الإغماء فلا تدري هل تتحمل ما سمعته من فم ذلك الذي من المفترض أن يكون زوجًا وسندًا أم تتحمل قلقها وخوفها على شقيقتها الوحيدة وابنتها المدللة، وفي النهاية قررت أن تدعو لها:

– يا رب قومها بالسلامة وما تحرقش قلبنا عليها.

ورددت أمها خلفها:

– يارب، يارب.

ثم تركت أحضانها لتتجه نحو زوج ابنتها الذي جاء للتو وتوقف أمام غرفة العمليات، وبدأ في نوبة انهيار وبكاء. أخبرته كي تطمأنه:

– هتخرج بالسلامة يا حبيبي هي وابنها، إدعيلها.

وخرج الدعاء من فم مهجة بهمة لم تصلهم، ولكنها كانت واضحة

في عينها.

«قعدت عليك ناطحة سحاب وطلعوك من تحتها فتافيت فتافيت قولوا آمين».

بعد عدة ساعات...

كان يحمل أحمد بين ذراعيه، يحتضنه، يلاعبه ويداعبه ولا يسمح له بالمكوث بين أحضان أي شخص سواه، ومنال تراقبه بصمت؛ فهي ما زالت في حالة وهن تمنعها من المشاركة والتفاعل ولكنها سعيدة.

سعيدة؛ لأنها قد شهدت تلك اللحظة، خرجت من تلك الغرفة الكئيبة سالمة هي وطفلها وانتقلت لمرحلة جديدة من حياتها. نعم، ولادتها كانت صعبة وسيئة، ولكن والحمد لله مرت على خير.

تساقطت دموعها وكانت منفذ الراحة بعد عناء طويل وشفيتها الجافة تتحرك ببطء تردد وتحمد وتشكر.

«ألف حمد وشكرليك يا كريم، ألف حمد وشكرليك يا رب».

واستمع نادر لما قالت له لقربه منها، ولاحظ دموعها؛ فأعطى الطفل لأخته وذهب ليواسي زوجته والتي ما إن رأته يقترب منها حتى زادت دموعها واشتدت حدتها.

— منال، بس، اهدي، عدت على خير، إنتي هنا وابننا هنا.

واتجهت يد الساذجة لتتقرب من يده ويحترق قلب مهجة.

«تلك اليد خادعة يا غبية، أنانية، سقطت بأول امتحان حقيقي وكانت مستعدة للتخلي عنك، تلك اليد ملعونة، عيونك سترها معك وملكك، ولكنها في الحقيقة تجذبك نحو ما يؤيد مصالحها، تلك اليد سوداء ليست محبة طاهرة، بل منافقة وكاذبة ومزدوجة الأوجه، لا تمسكها، ابتعدي، اهربي، لا، لا، لم قد فعلتها وتركت يدك تحت رحمتها، حمقاء، غبية».

أغمضت مهجة عيونها وتنفست ببطء وكأن هذا السر لا يتقبله صدرها؛ فافتعل به شجار وأحرق داخلها مدناً وبلداتاً، وما زالت الحرب قائمة.

– منال إنتي لو كان جراك حاجة أنا كنت هموت وراكي.

لتقاطعه منال بهمس:

– بعد الشر عنك.

ونظرت حولها لتلمح تلك الأعين التي حضرت هذا المشهد الرومانسي وقد شعرت بالخجل، ولكن «البعيد» لا يخجل، ولكنه ينتشي بصورة الزوج المحب المتفاهم العاطفي.

– الشركان إنك تبعدي عني دقيقة واحدة، إنتي لما وقعتي أنا روجي راحت وراكي.

«لا، كده كثير، كثير».

تدخلت مهجة بشبه زعيق:

– بس بقى.

لتظهر على هيئة الأخت الحاقدة الغيورة من أختها ومن رومانسية تعيشها، وبعدها توجهت نظرات لائمة متهمه لحليم، وكأنه السبب في عصبيتها ليجد نفسه فجأة شريكاً في مشكلة لم يفهم أبعادها ولا يستوعبها.

قالت شيرين بتساؤل وقلق:

– فيه إيه يا مهجة؟

وأجابتها مهجة والدموع في عينيها:

– قوليله يسكت يا ماما، سكتيه.

لتشعل إنذاراً برأسها وحدسها الأمومي، لقد مررت لها عصبيتها من وقت مجيئهم وبررتها على أنها قلق وتوتر منها على شقيقتها، ولو

تغافلت عن نظراتها الغاضبة المشتعلة التي ترمقه بهم طوال الساعات الماضية، ورأت أنه انعكاس لمشاعر سلبية وعدم محبة تحملهم علناً لزوج أختها ومنذ البداية.

ولو بررت كل شيء لا يمكنها أن تتغافل عما تراه الآن من كارثة منتظرة في أعين ابنتها، شيء لا يجب أن يتم فضحه أمام عائلة نادر، وأمام منال وهي بتلك الحالة.

قالت لحليم وحمداً لله أنها حادثته كي يقف بجانب نادر عندما استشعرت حالته السيئة قبل الولادة:

– روحها البيت يا حليم، هي أعصابها تعبت النهارده ومحتاجة ترتاح.

واعترضت مهجة:

– يا ماما أنا...

لتقاطعها أمها:

– روي ارتاحي يا مهجة.

وقالت لحليم بتوسل:

– روحها يا بني لو سمحت.

ليتحرك حليم ويمسك بيدها ويجرها خلفه كالمغيبة حتى خارج المشفى.

تركت يده بعدما أدركت أنها بالخارج وأخبرته بصوت مختنق:

– أنا هروح لوحدي.

ليوقفها بغضب:

– هتروحي لوحديك إيه إنتي عارفة الساعة كام؟

وتتحداه:

– عادي.

ليسألها:

– هو فيه إيه؟ ما لك؟

لتخبره بشبه وعي:

– أنا مش طايقة أشوفك ولا أشوفه ولا أشوفكم.

وأردفت:

– انتو مش حيوانات، انتو كويسين، انتوزي الفل وأنا اللي

مُتعصبة، أنا الشريرة، أنا المفترية، حلوكده؟!

لم يقاطعها حليم وحاول أن يستوعب الغموض الذي غلف

أحرفها، وبعدها قام بربطها بتصرفها السابق مع زوج أختها فسألها:

– عمل إيه ضايك قوي كده؟

وشعور بالغضب اللا مبرر اعتراه، وفضول ملأ وجهه ناحية تلك

التي على وشك الانهيار؛ فالأقوياء الشامخين سقوطةم عزيز وانهارهم

ألم لا يتمناه لها.

– حيوان، ده حيوان، قتل فرحتنا وفرحتها، بيضحك عليها وكله

مجرد كلام في كلام، هيدمرها، منال مستاهلش تعيش مخدوعة فيه،

لازم تعرف، أنا طالعالها، لازم احكيلها.

وكانت متجهة لبوابة المشفى لولا أنه منعها فأكملت:

– لازم اقولها إن اللي إنتي فاكراه بيعشق تراب رجليكي ده أول

ما حس إنه ممكن يخسر ابنه اختار ابنه وضحي بيكي من غير تفكير أو

تردد.

تشعر أنها على وشك الجنون، ما زالت نبرته الجافة والتي لا يشوبها

ذرة ندم أو خوف ترن بأذنها.

الجملة، الصدمة، وكأن عقلها توقف عند تلك اللحظة.

سألها:

– هو قال كده؟ سمعته بيقول كده؟

– أيوة، أما وصلت للدكتور كان هو بيقوله كده باللفظ، لو اضطررت تختارين مراتي و ابني انقذ ابني.

وأكملت بقهر:

– وأم ابنتك؟ عادي كده في داهية يا ابن ال... مش مهم عادي فداهم بكرة يتجوز غيرها، ما هي الستات كتير وعلى قفا من يشيل والمهم ابنه.

وأما عنه فقد «سقط عليه سهم الله»، كان واجمًا مصدومًا في هذا النادر، هيئته ودموعه وكلماته العاشقة لزوجته لا توحى بأن يخرج منه هذا التصرف الحيواني.

فكر، هل لو كان قد تعرض لمثل هذا الموقف مثلها هل كان سيتحملها؟ ماذا لو كانت أخته في موقف منال وهو كان محلها؟ هل سيتركه على قيد الحياة؟ جز على أسنانه، وتمنى لو كان قد مارس الملاكمة على وجهه حتى يدميه ويشفي حرقه قلبها وينقذ الأخرى منه.

ولكن لا يجوز، حتى ولو كان قد نال البطولة بالمسرحية؛ ففي النهاية المسرحية هزلية كاذبة ستنتهي وهذا دوره الحقيقي، بطل مؤقت لا يحق له التدخل بالشئون العائلية.

– ده أكيد مش بني آدم، إزاي خطر في دماغه الفكرة دي أصلاً؟ هو في إيه ولا في إيه؟

أقرت مهجة:

– عشان هو حيوان.

وبرأيه هي قد ظلمت الحيوانات بمقارنتها به.

أمسك بها حلیم دون تعليق زائد، وساعدها على عبور الطريق

ليجلسا معاً على الرصيف علماً تهدياً وتتماسك، بينما رأسه كان يغلي
من التفكير، وحتى إنه كان على وشك أن يعطيها الحق في شأن كرهها
للرجال وعدائها لهم. زفرت مهجة بحرقه ووضعت يدها على رأسها بيأس
ثم سألته:

– أنا دماغي اتشلت، مش عارفة أفكر، أعمل إيه! معنديش
الجرأة اني أتكلم ولا القدرة إني أسكت.
وإجابته لها تلخصت في جملة واحدة:
– اتكلمي، بس اختاري الوقت المناسب.

الفصل الثامن عشر

(اللي بيكذب بيروح مارينا)

قعد على الأريكة بعيادة طبيبه المتابع لحالته منذ الحادثة والذي سأله مباشرة:

– مفيش أي ذكرى معينة حتى لومش قادر تحدد تفاصيلها جت في بالك؟

أشار سيف برأسه نافيًا:

– لأ خالص، حتى الكلام اللي بسمعه من البيت أو من ريم مش بيفكرني بأي حاجة.

سأله بعدما لمح دبلته الفضية:

– ريم خطيبتك؟

– أيوة.

وأردف وكأنه حقيقة لا مجال لأي شك بها ولا مانع من القليل من المزاح:

– كنا هنتخطب قبل الحادثة، مش بقولك واضح إننا نحس.

وحينها قال الطبيب ضاحكًا:

– وهو الجواز هيكون إيه غير accident (حادثة).

وأضاف بجدية:

– بس ده شيء كويس عامة، استقرارك النفسي وجودك جنب كل الناس اللي تعرفهم ممكن يكون ليه تأثير إيجابي على الذاكرة.

وتوقف سيف عند تلك النقطة.

استقرار نفسي!

هل ارتباطه الرسمي بريم قد حقق ما يتحدث عنه الطبيب؟
لا يمتلك إجابة يمنحها لنفسه على الأقل بالوقت الحاضر.

سأله الطبيب عندما لمح شروده:

– فيه حاجة عاوز تقولهالي؟

وتردد سيف لهنية ثم حاول الشرح علّه يجد حلاً لمشكلته لديه.

– مش عارف، أنا معاها هي بالذات بحس بشيء غريب.

سأله الطبيب:

– غريب إزاي؟

– بحب أشوفها خايفة عليا، بحب أشوف الحب في عنيا وإني
أغلى حاجة في حياتها، بحس إن الشيء اللي ناقصني عندها هي،
بتقربلها، بحس براحة نفسية وأنا معاها لكن في نفس الوقت بلاقي
نفسى بقاومها، مش عايز أقرب ورافض ده وبصدها حتى من غير ما
أفكر.

استند الطبيب على ظهر مقعده وأخبره:

– لإنك يا سيف جواك اتنين؛ واحد عايزك تعيش الحاضر
ومقتنع أنه الصبح والتاني رافض الحاضر ده وبيقولك طب واللي
فات واللي مش عارف تفتكره عادي كده تنساه! وعشان كده إنت
واقف في النص ما بينهم.

وأكمل:

– سيف أنا هكلمك بصراحة، ممكن الذاكرة ترجعلك وإنت
مروح من هنا وممكن مترجعش خالص ده شيء بإيد ربنا سبحانه
وتعالى وإحنا اللي علينا إننا نمشي مع العلاج ومع أي طريق ممكن
يساعد لكن في النهاية مفيش نتيجة مضمونة 100%.

وأتّم حديثه بجملة علقت بذهنه:

– متهملش الحاضر عشان ماضي مش مضمون، عيش وخلي اللي حواليك يفرحوا ويعيشوا هما كمان.

وقد بدأ بتنفيذ نصيحة طبيبه مباشرة؛ فبمجرد أن ذهب للمنزل حادثها على الهاتف كما وعدنا وبعد حديث تعدى النصف الساعة كرقم قياسي أخبرها:

– تصبحي على خير يا حبيبتني.

يا ويلى قال حبيبتني!

لقد كانت طائرة من السعادة منذ أيام عندما فقط أخبرها بـ «تصبحي على خير» وعندما روت لنوال سخرت منها:

– تصدقي صعبتني عليا، فين الاكستنشن يا بنتي! مبتتقالش حاف كده، لازم يحط التاتش الجديد، تصبحي على خير يا ملاكي، تصبحي على خير يا عنيا، تصبحي على خير يا قلبي.

وها هي ليست «حاف» كما وصف نوال، ألصقها بأرق وأجمل جملة قد تسمعها فتاة من حبيها.

الكلمات لا تهم، إن كان فاشل بالتعبير أو «ساقط لغة عربية» حتى لن تبالي هي فقط، ما يهمها نبرة صوته الخشنة التي تحتضن نبتة مشاعرها وتحيطها فتمنحها الأمان، وما يهمها هو وجوده بحياتها وتعويضه لهذا الفراغ العاطفي الذي تعيشه؛ فهو مهما فعل هو يمثل بطل أحلامها بلا منازع.

يكفي أنه يسأل، يهتم ويتقرب إليها بخطوات جادة، ومهما شرحت لن يلاحظ تغيره عداها.

«عادي جداً» إن كان في بعض الأحيان يحبطها ولكن تلك هي الحياة «حبة فوق وحبة تحت» و «الحمد لله إحنا كنا فين وبقينا فين».

وجدت نفسها تقفز على الفراش من الفرحة، وبعدها صممت فجأة

واستلقت بمكانها شاردة.

تلك الكلمة ليست حقيقية؛ لم تخرج من أعماقه، هكذا شعرت، وربما ذلك ضميرها الذي يوخزها بفكرة أنها لا تستحق تلك السعادة.

كانت تمارس رياضة الجري بالنادي القريب من منزلها بلبسها الرياضي الأسود، وسماعات الأذن تمد أذنها ببعض الضوضاء وهذا المطلوب إثباته.

انتهت أن الوقت قد قارب على الغروب ومع الأسف ستضطر للعودة للمنزل، منزل! هل هذا منزل؟ تعتقد أن سرايا المجانين بحال أفضل منه.

توقفت عن الجري وأمسكت ركبتيها كي تلتقط أنفاسها، وبعدها استعادت تفاصيل كل ما يزعجها.

نادر، نادر، نادر، وأتمت داخلها «الله يحرقه».

تذكرت يوم الولادة «قبل أسبوعين» وكيف كانت حالتها، كانت النار تأكل رأسها حتى إنها لم تتحمل وتصمت كما نصحتها حليم، وبمجرد أن سألتها أمها عن سر عصبيتها على نادر أخبرتها بكل شيء وأتمت حديثها بقولها:

– أهو ده نادر اللي كنتوا طالعين بيه السما، نادر ببجيب ورد، بيفسح في الأزهر بارك، مبيقولش لمراته بطلي رغي، وشوية وهتعلموه بطل قومي وينزل هاشتاج كن مثل نادر النادر الوجود! وفي الآخر طلع حيوان و...

والحقيقة أن أمها فاجأتها؛ فبعد أن احتاجت دقيقتين كي تستوعب فيهما ما قالت ابنتها عن زوج ابنتها الأخرى قالت باستنكار:

– أهو إنتي علطول كده يا محسن اللي ميحيش على هواي

تطلعي فيه القطط الفطسانة، أقول إيه، مفترية.

شهقت مهجة:

— إيه يا ماما اللي بتقوليه ده؟ هو أنا هتبلى عليه.

وأمها صرخت:

— معرفش، بس اللي أعرفه إن أختك بتموت في التراب اللي
بيمشي عليه وهو كمان بيعاملها كوديس قوي.

تساءلت حينها بقلق:

— يعني إيه ياماما! هنسكت وهنسيها مخدوعة فيه!

ووضعت الأم جملة الختام:

— آه هتسكتي، عشان مصلحة أختك، وعشان بيت أختك
ميتهدش على دماغنا، وعشان ابن اختك اللي لسه جاي الدنيا
وملوش ذنب.

«أهلاً أحمد، نورت عالمنا اللطيف والكاذب جداً».

ومنذ ذلك الوقت وهي تبتسم كي تخفي، تبكي كي تنسى، وتمارس
الرياضة كي تقاوم، ومع الأسف ذلك الركض اليومي لم يكفها. أخرجت
من جيبها ورقة مطوية عبارة عن إعلان كان يتم توزيعه بالشارع عن
أكاديمية افتتحت حديثاً بالمهندسين لتعليم الفنون القتالية، أمسكت
هاتفها وطلبت الرقم المدون أسفل الإعلان لتتخذ قرارها.

«مممكن أعرف تفاصيل الاشتراك في «الكيك بوكسينج» من
فضلك».

بعد عدة أسابيع...

رحلت قافزة في أول «ميني باص» قابلها متجهة إلى شغفها مؤخرًا،
حيث «الكيك بوكسينج» والطاقة التي تخرجها على هيئة لكلمات.

انشكاح لمجرد التخيل أنها ستفعلها بعد بضعة دقائق:

– جاهزة!

ووقفت مهجة أمام مدرّبتها تبادلها النظرات، بضع لكلمات على أنغام الموسيقى المحفزة للأدرنالين، أخبرتها مرة أن روحها تحملها بقبضة يديها وتلك قوتها الكبرى، وأن حق جسدها عليها أن تحميه من اللكمات المضادة حسب قواعد اللعبة.

– خدي نفس جامد.

أخذت مهجة نفساً من أعماقها وزفرته ببطء. قامت المدربة بفرد ظهرها ثم أخبرتها:

– استرخي، غمضي عينيكي.

وبمجرد أن شعرت أن أنفاسها بدأت تنتظم؛ ضربت يدها بوسادة الملاكمة فجأة لتفتح مهجة عينيها وتنهال عليها باللكمات بالتبادل.

– أسرع يا مهجة، أسرع.

والمدربة ما زالت لا تكتفي ومهجة تبذل وتبذل أقصى مجهود تملكه.

– أسرع كمان، حلو جداً، stop.

ألقت الوسادة جانباً وتوقفت أمامها متأهبة لتدريب نزال معها.

– حطي هدف معين قدام عينك.

في البداية وضعت مهجة يديها أمام وجهها في وضع حماية وقررت أن تجسد نادر أمامها على هيئة خصم واشتهت ذلك كثيراً. تلكمه يميناً ويساراً وتركله بقدميها ثم تطير لتنقض عليه وتلكمه لكمة النهاية.

– هدف لازم تهزميه.

وكان كلامها محفزاً لمهجة؛ فبدأت لا إرادياً تتحرك لليمين واليسار في وضع استعداد ويدها مثبتة أمام وجهها في لحظة تأهب تام.

– أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم.

وسألتها:

– ممكن يهزملك؟

أشارت مهجة بالنفي وجسدها في وضع التأهب للنزال.

– ليه مش هيهزملك؟

– لإن أنا مش هديله فرصة.

وأكدت المدربة كلماتها بتوضيح أكبر:

– مش مهم لو خصمك ضخم أو أقوى منك المهم إنك متديلوش

فرصة يفكر يهزملك.

وأردفت بنفس الحماس والصوت المرتفع:

– تركيزك كله هيبقى مع خصمك، لازم تفصلي أي عواطف

ومشاعري للحظة دي.

وتنفست مرة أخرى بعمق كي تعزل نفسها تمامًا عن أي عواطف

أو ضغوط.

– عينك في عينه.

وركزت مهجة في عمق عينها بتحدٍ.

اقتربت منها المدربة كي تقوم بلكمها ولسانها يردد:

– حركتك سابقاه.

وأوقفتها مهجة قبل أن تلكمها بيدها.

– تتفادي ضرباته وفي نفس الوقت تفضلي تهاجي.

بادلتها مهجة اللكمة وعيناها ما زالت لا تفارق عيونها وكأنها هي

وجسدها أصبحوا على اتفاق وتناغم.

– لو هزمتيه نفسيًا عمره ما هيعرف يهزملك مهما كانت قوته.

وبعدها انهالت عليها مهجة باللكمات والركلات ومدربتها كانت تصدها بنفس سرعتها.

– يمين، شمال، أسرع، أسرع.

وبعدها توقفت لتقوم بضبط وضعية قدمها اليميني المثنية ثم وضعت لها الوسادة لتتمسك برقبة المدربة وتمهال عليها باللكمات والأخرى تحمسها.

– أسرع، أقوى، كمان، برافويا مهجة.

وابتعدت عنها لتخبرها هي بحماس:

– فيه تحسن كبير ملحوظ الأسبوع ده ومع تدريبات اللياقة هتلاقي نفسك أحسن كثير، برافويا مهجة.

ابتسمت مهجة من ثناء مدربتها والذي جاء بعد شهر تقريباً من التدريبات المكثفة والحمد لله.

تركبتها أمام كيس الملاكمة لتمهال عليه باللكمات، وبعدها عادت لاستكمال التدريبات معها.

لوهلة اكتشفت أنها بسبب هذا المكان أصبحت أهدأ، أركز، أكثر راحة وكأنه يمتص كل إحباطها تجاه هذا العالم القبيء. تدخل إليه واحدة وتخرج أخرى أكثر خفة وحياء وطاقاة. خرجت من البوابة ووجدته يقف في انتظارها هو وسيجارته العزيزة ويستند على حافتها، وما أن اقتربت حتى وضعها تحت حذائه وأطفأها.

لو كان قد حدث بوقتٍ آخر لقامت بـ «شرشحته» بالمعنى لأنه تتبعها حتى هنا ولكنها لم تفعل، هي الآن وبعد هذا التدريب عبارة عن ديب فريزر متحرك، أو بمفهوم السكارى «الدنيا حلوة».

وجدته يخبرها:

– أهوكده الواحد ارتاح وعرف فلوسه راحت فين.

امتعضت شفتها خجلاً؛ فالآن تذكرت أنها قد تأخرت عليه بدفع ماله هذا الشهر، قبل أن تفتح فمها لتعتذر منه وجدته يقاطعها ساخرًا بعدما نظر نحو اللافتة وشرع بقراءتها.

«أكاديمية الذهبية لتعليم الفنون القتالية».

– مممم، شكك حطيتي في دماغك تنتقمني من الرجالة كلها.

أشارت برأسها موافقة:

– خاف على نفسك بقي.

وأخبرها:

– بالمناسبة، طالما طلع ده السبب اللي مخليكي تأخري الفلوس

فأنا مش مستعجل عليهم.

سألته بتعجب:

– ده بقا بجدا!

وأردفت:

– غريبة يعني.

– غريبة ليه؟

– يعني تقدر تقول متوقعتش التفهم ده كله.

قال مبتسمًا ابتسامته السمجة المعتادة:

– تقدرني تقولي بحب أشجع المواهب المدفونة.

– مممم وجهة نظر غريبة من راجل، وخاصة لو المواهب دي

تخص ست.

– يادي الرجالة.

ونظر للسماة بمعنى «ارحميني يا رب» تلك الفتاة صاحبة حالة

متدهورة ولا أمل لها بأي شفاء.

خطت معه لتجده يركب دراجة نارية جديدة فسألته:

– بتاعتك! مبروك.

وأردفت بعدما قفزت خلفه:

– الحقيقة جت في وقتها، متكسحة مش قادرة امشي.

أعطاهم الخوذة فمسكتها بيدها وقررت ألا ترتديها، تعشق عيش المغامرات تلك الفتاة!

– امسكي كويس.

تحرك فجأة وبسرعة فاضطرت لأن تتمسك بالمقعد، فحلیم متهور بقيادة الدرجات ولديه إيمان بالقفز من على «المطبات» على ما يبدو، أغمضت عينها مستمتعة بفكرة السرعة والخطر وكان شعورها وكأنها بمدينة الملاهي وتستقل قطار الظلام!

– شكلك إنت اللي عاوز تنتقم.

سألها:

– اشمعني!

وإجابتها بديهية:

– هتموتنا بس.

وقالتها وشردت ثم ضحكت لأنها تذكرت شيئاً.

«مود تهيبس» يصاحبها اليوم، سألها:

– بتضحكي ليه؟

– افكرت حاجة.

وأكملت بنبرة ضاحكة:

– أصلي افكرت المدربة بتاعتي وهي بتقولنا إنها مرة كان دراع

جوزها اتلوح و...

قاطعها حلیم:

– إيه أكلته؟

ضحكت ثم أوضحت:

– لا مكلتوش، بس هي نسيت وبدل ما تعدله افتكرت حركة كانت بتعلمها جديد في التدريبات وفجأة هوب لوحته دراعه، محستش إلا وهو يبصرخ.

– عنيفة أوي المدربة.

وأردف:

– ودي بقا اللي بتدريك؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

فضحكت مهجة حتى شبعت، وكأنها اشتاقت لأن تضحك ففعلت، وحينها أشعل حلیم الكاسيت الذي ألحقه بالدراجة وكانت إحدى أغاني المهرجانات. شاركت مهجة في وصلة الغناء وقد وصلت لقمة «التهيبس». وصلنا لمنزلها بعدما طلبت منه إعادة الأغنية للمرة الألف تقريبًا. مدت يدها له مصافحة:

– ميرسي يا حلیم، كنت محتاجة المود ده.

وبعدها حملت حقيبة الظهر وركضت بينما هو يتابعها وبدأ يشعر أنها محظوظة.

ما أجمل أن تكون مجنونًا في هذا العالم!

في بيتنا كتب كتاب، وليست تلك المشكلة «تؤ تؤ»، ولكن المشكلة تكمن في صدمة المسكينة فسيف قبل كتب الكتاب «حمادة» وبعده «مات حمادة»!

البارحة قد تحجج وأمسك يدها أثناء عبورهما الطريق، وفي السيارة حاول أن يقبلها، ولكنها قد نجحت وهربت منه!

«قليل الأدب السافل!»

وبدأت تفكر كيف ستعامل معه اليوم؛ فمن المفترض أنهم لديهم موعد مع منظمة الزفاف للاتفاق على برنامج الحفل والأغاني التي ستعرض، وتلك التفاصيل، وبعدها سيقومون بشراء بعض الأغراض للمنزل. كيف ستبقى طوال اليوم بصحبته؟ إنها ما زالت خجلة من محاولة قبلته إلى الآن، الوضع تخطى مجرد قرعات قلب، ولا معدل أنفاس مرتفع؛ هي تشعر أن قلبها سيكسر القفص الصدري ويقفز خارجه، إنها حتى لا تحتلم فكرة أن حفل بعد أقل من عشرة أيام.

لم تكن تلك تصرفاته معها بالسابق؛ فقد كان على حد وصفها «محترم، يعني تقريباً»، لم تستوعب فكرة أنه شعر بأنها تخصه، حاله وطريقة ظهور الوجه العابث خاصته، حتى إنه يتصرف بعفوية وتلقائية. بسببها عاد لسيف السابق، الصديق الوقح المقرب ولكن بحدود يضعها مسبقاً ومعها هي بالذات قد تخطت كلمة حدود؛ فهي برتبة زوجة.

شعورها الحالي وكما أنها تعيش مراهقة متأخرة وهربت من المدرسة كي تقابل حبيب القلب الذي يدرس بالمدرسة المقابلة لها كما كانت تفعل بعض الزميلات لها وغير المحترمات، واللاتي كانت ترمقهن بنظرات «ماري منيب» مرددة «بنات آخر زمن» وأحياناً كانت تندمج مع المشهد بالكامل قائلة «جتك ستين نيلة»!

والآن هي معه، بسيارته، والخجل يزداد منسوبه حتى وصل لمرحلة انفجار، انفجار ضاحك على وجهه. منذ أن ركبت السيارة وهي على هذا الحال، لم تنبت شفتاها بكلمة فقط حيثه برأسها عندما ألقى عليها السلام ومن بعدها قررت اعتكاف الصمت؛ الصمت آمن جداً مع هذا الصفيق.

ظلت هكذا حتى لمحت بعينيها مكان ما وعندها أخبرته دون تفكير:

– مستر سيف ممكن تركن هنا؟

– مستر!

والاستنكار كان من ناحيته والتبرير من ناحيتها، قالت بينما كانت تشير له بكلتا يديها أسفة:

– معلش معلش، أصلي من الناس بتاعت الانطباع الأول يدوم وأنا مش بيدوم لاده بيلزق.

تركها على راحتها طوال الليل، تختار الأغاني الخاصة بالزفاف وتستشيرها، ولكن دون أن تنظر نحوه، تهرب عن ناظره قدر الإمكان وكأنهم لن يركبوا نفس السيارة في النهاية، تتحدث بأكثر من موضوع حتى تشتت تفكيره عنها، وتختار الأغراض بأسرع وقت ممكن حتى تنتهي وتعود.

مشكلتها أنها ترى أنه تغير، تحول، أربكها بدقيقة ونظراتها إليه أصبحت تبحث عن تعارف، وربما لأنها تلك ليست المرة الأولى، كانت تعرفه جاد، صفيق، ممل، قليل الكلام وحنون!

فجأة ألصق كلمة تصبح على خير بحبيبتي لينسبه إليها دون مقدمات، وفجأة تقرب منها وبات يحكي لها عن دواخله، ولن تنسى اليوم الذي تحدث عن حلم السفر خاصته مع أنها كانت تحاكيه عن لون حائط الصالون!

وبعدها يعود ليتفوقع، يتعد، يتجاهل ويعسف وكأنه شيء بديهي، ثم يعاود الكرة من جديد فهمتم ويتقرب ويحب. لم تعد تفهمه، بعدها تأقلمت، فكرت أنه رويحياً ينتهي لبرج الجوزاء، يتعامل حسب أهوائه ومزاجه، وبدأت تقتنع.

لم تعد تبالي أو تهتم بفك شفراته، عندما يتفوقع تبتعد حتى لا يخرج الشياطين خاصته فوق رأسها وتنتظر عودة المهتم المتقرب

الحاني الذي أحبته، ولكن...

البارحة قد نسف كل نظرياتها بشأنه لتعود لمرحلة الصفر من جديد. تقربه منها ليس عاديًا، نظراته تحمل شيئًا من الوقاحة وتصرفاته تخطت حاجز الألف ميل بينهما. بدأها بأن أمسك يديها بسوء نية لدرجة أنها شعرت بأنها جسدها قد تصلب من الصدمة، وبعدها ورغم إخراجها أكمل وباغتها بتقربه لقبلة.

«قليل الأدب».

قالها داخلها تلك المرة، وحمدًا لله أنه لم يسمعها، نظرت نحوه بتعجب فسألها:

– ما لك!

ولم تجبه، فقط ابتسمت بمعنى أن كل شيء على ما يرام، وهو أبدًا ليس على ما يرام. هي خجلة منه بدرجة فاقت الحدود الطبيعية، نظرت لساعة يديها وأخبرته مفكرة أنها هكذا تتعامل بطبيعية.

– الساعة واحدة، تأخرنا قوي.

وأخبرها ببديهية:

– عادي، إنتي مش مروحة معايا؟

وقالت داخلها:

«أه عادي طبعًا عادي جدًا».

هل هي كما أخبرتها نوال تضخم الأمر عندما روت له عن تغيره الذي يؤرقها مؤخرًا، أم أنها لم تستوعب تحوله ولم يصلها فكرة اختلاف مشاعره بعد العقد الرسمي؟!

وصلت للمنزل أخيرًا ولم تفهم لمَ منطقتها العزيزة هادئة حتى في عز الصيف وأيام السهر، ولكن هذا هو القدر؛ لا حركة ولا أصوات سوى من كلاب الشارع، وكأنه كان قريبًا منها ليسمعها؛ فقد بدأت الكلاب تنبح

بالقرب من السيارة لأنها بوجهة نظرهم غريبة عن المنطقة.
ارتعدت ريم من مجرد الصوت، أرادت أن تخبرهم أنها من أهل المنطقة كي يسمحوا لها بالنزول من السيارة والعبور إلى منزلها، ولكنها كانت خائفة ومرتبعة منهم، وهم حقيقة لم يكن لديهم أي استعداد للتفاهم وهكذا كانت ترى. أخبرها سيف ضاحكاً عندما لمح هيئتها المرتعدة:

– متخافيش مش هيعملوك حاجة.

ونزل من السيارة ورماهم بأقرب «طوية» ليؤكد لها وجهة نظره فقد رحلوا الأوغاد، رحلوا بعدما أربعوها وكأنه كانت تنقصهم. نزلت من السيارة برفقته وقام بإيصالها حتى بوابة العمارة بينما هي تخبره:

– برستيحي دائماً بيضيع بسببهم.
وأكملت:

– ماما دائماً بتقولي زيك دول مش بيخوفوا بس أنا مش بقتنع.
وأضافت بعفوية:

– نفسي اتجوز عشان أخلص منهم الحقيقة.
وما زالت هناك تتمة للجملة ولكن تخلصها بعض الصمت؛ بسببه،
وبسبب تقربه المفاجئ منها.

– بس يا خوفي الأقيمهم في الآخر جاين ورايا.
وقبل أن تهرب كالمرّة السابقة كان هو يجذبها نحوه بينما قدميه تغلق البوابة الحديدية، وقد نال الصفيق القبلة.

الفصل التاسع عشر

(على أنغام ديسباسيتو...)

الرجل صريح فيما يريد والمرأة ترتبك من كلمة صراحة وتبحث دائماً عن ما يُجملها، هو يرغب بها خاصة من بين فتيات الكون لأنها الوحيدة التي شعر معها بذلك، ولأنه يريد، ولأنها تحبه، ولأنه يعشق رؤية هذا الحب، ولأنها تستحق.

اختارها وأحبها قبلاً حتى ولو لا يتذكر هذا القرار وتفصيله. وجهة نظره بسيطة لا يعقدها بأفكار تخص العشق وتصرفات العاشقين. يتقرب لأنه يرغب، يرغب لأنه معها يعيش، تلك ليست بالمعضلة الجبارة ومع ذلك لا تحسن حلها.

عندما تم عقد القران لم يعد هناك أي شيء يخص تردده بشأن مشاعر كان يحملها تجاهها، وذكريات منسية لا يدري ماهيتها، أما بعد عقد القران الوضع أصبح قمة الجدية؛ لقد أصبحت زوجة وإن كان مع وقف التنفيذ، ولكن هذا لن ينفي كون لها حقوق وعليها واجبات، وبعد تسعة أيام ستصبح زوجة بالكامل وهو لن يتوانى عن فكرة تذكيرها بذلك، واليوم هما معاً من أجل شراء أشياء ضرورية.

بدأوا باختيار النجف والسجاجيد، والآن هي تقوم بشراء بعض اللوازم الناقصة فالقائمة خاصتها لا تنتهي والوقت شديد الضيق.

أجاب على السبّاك الذي كان يهاتفه من أجل أن يخبره أنه سيذهب لشقته كي يستكمل عمله الناقص من البارحة وهو قال له إنه سيأتي بعد نصف ساعة، وريم اعترضت:

– لسه ناقصلي حاجات، كسارة الفستق، عصارة الليمون، طقم الأركوبال الناقص، مقشرة البطاطس، طقم توزيع خشب والأهم ماكينة الزبادي!

سألها بتهكم:

– وإيه ماكينه الزبادي دي كمان! مهو في الآخر هتقوليلي هات زبادي وإنت جاي عادي.

وظلت تشرح له عن أهمية الماكينة والفائدة العظيمة التي ستعمم بها عليهما مع وعد بأنها ستحاول أن تستخدمها قدر المستطاع كونها فتاة مدبرة وتحب الاعتماد على نفسها، وهي لا تعلم أنه قد انتفخ رأسه من أول ربع ساعة، ولم يعد بإمكانه أن يقضي مزيداً من وقته في شراء مثل تلك الأشياء، باختصار «اتخنق»، وما زال طرح القائمة قائم:

– والشماعات بتاعت الهدوم ماما بتقول زودي لإنهم مش هيكفوا.

جذبها من يديها باتجاه السيارة عازماً الرحيل من هنا بينما يهمس في أذنيها بوقاحة:

– قولي لماما مش مهم، مش هنحتاج الهدوم في حاجة.

توقفت لتلومه:

– ما تحترم نفسك.

ويغمزها ويكتفي بقوله:

– ربنا يسهل.

وانطلق بالسيارة ووصل ليجد السبَّاك ينتظره أمام العقار فحملت معه الأغراض ولم يفتها رؤية الهدية المغلفة التي كانت بسيارته وأخذها هو مع بقية الأغراض، ورغم فضولها الهائل إلا أنها فضلت أن تحتفظ بمفاجأة اللحظة: بعد رحيل السبَّاك بالطبع.

وهو قد أنبى عمله خلال ساعة تقريباً، قامت هي بتنظيم بعض الأغراض بالخرزانة خلالها، وبعدما استمعت لصوت الباب يغلق أيقنت أنه الآن هي وهو بمفردهما بالشقة، والتعبير الذي ظهر على ملامحها

عادت له وملامحها قبل لسانها تقدم اعتذارات عدة:

– أنا آسفة يا سيف والله مش قصدي.

وأضافت بتوسل:

– آسفة بجد.

اعتلى ثغره ابتسامة، وتقدم منها خطوتين التصقت هي بسببها في الجدار في محاولة هروب، قررت تحذيره فأعجبته اللعبة:

– سيف إحنا اتفقنا تلزم أدبك ماشي.

وقف أمامها ليغلق بوجهها أي فرصة للهروب.

– أنا عن نفسي متفقتش على حاجة.

وأضاف باستهزاء:

– اللي اتفق ينفذ هو.

وقبل أن تعترض:

– سي...

وعلى ألسان «ديسباسيتو» في الخلفية بدأت القبلة، ابتلع شفاهها وبقية أحرفها وكل اعتراض ممكن، ويدها حررتها من حجابها والذي كان مجرد ارتدائه معه هنا مزحة، والحمد لله أنها قد قامت بعمل جلسة البروتين قبل أيام فكان بين يديه شلال من الحرير وإلا كانت ستبقى صدمته كبيرة، وربما كان قد «طفش» للأبد.

دس أصابعه بين خصلاتها بينما شفثيه تعرف طريقها وهي «بق» لا تستطيع رده سوى بالكلمات أما الفعل «بخ»، فهي وقت الجد أمامه «بطة بلدي»، وهو في النهاية لن يأبه لكلامها أو فعلها، ولكن كان لا بد من رد فعل تلقائي على أصابعه التي تجرأت لتفك لتحرق قيد أزرار بلوزتها العلوية، فأوقفها وقبلته المتملكة على جيدها، كانت كناقوس خطر أشعرتها بأنها يجب أن تتماسك قبل أن تفقد المزيد من السيطرة،

تملصت من بين يديه وجذبت حجابها وارتدته لتقول ببعض الهذيان:
– على فكرة أنا مش جاية هنا تاني وماما تبقى تخلص الفرش
بمعرفتها.

وأضافت بقرار حماية عظمي:

– ومش هنخرج تاني لوحدنا أبداً لحد الفرح.

كررها خلفها:

– أبداً!!

وأكدت:

– لا يمكن.

أخبرها بأحقية:

– على فكرة إنتي مراتي وهتدخلي من الباب رسمي فهبي نظمي
بعد 9 أيام.

رددت بغيظ وخجلها منه ومن نفسها قد وصل للدورة:

– أنا ماشية.

ليوقفها بجملة:

– وأنا اللي قولت هصالحك عشان امبارح وجايبك هدية.

كانت قد وصلت لباب الشقة وفاجأها قبل أن تفتحه وتهرب
ليتعطل كل شيء؛ فالمرأة تضعف أمام اثنين «محشي ورق العنب» و
«اهتمام رجل تحبه». سألته:

– جيتلي هدية بجد؟

لقد رأتها بالفعل ولكنها كانت قد نسيت أمرها تمامًا.

– هو أنا عندي أغلي منك أجيبله هدية.

ووضعها في قبضة يدها ولسانها يردد بفرح:

– ربنا يخليك ليا يا سيف.

ثم قامت بفكها لتفغر فاهها بسبب ما تحويه تلك العلبة المغلفة.
«بيبي دول» قصير أكثر مما ينبغي، شفاف أسود اللون وكأن هذا لا
يكفي ليخبرها مبتسمًا وكأنه شيء عادي:

– عاوزه أشوفه عليكي يوم الفرح.

وأسقطته من يديها على الفور، وكانت القشة التي هربت بسببها
راكضة تلك المرة.

وخرجت من بوابة عقارها واحتارت لوجهتها بالضبط كما احتارت
مشاعرها. وجدته خلفها، يصبح بها ويأمرها كي تتوقف ويضغط على
زر المفتاح الأتوماتيكي للسيارة بعرض توصيل لا يقبل النقاش ولكنها
جادلت:

– بس أنا هروح لخالتو.

وتساءل وما زالت ابتسامته المستفزة لها على وجهه لتذكرها بما
حدث منذ قليل.

– أوديكي لخالتو.

نهفته:

– بس الشقة فيما شغل كثير لازم يخلص النهارده.

أنجز الحوار في كلمة ونص.

– متقلقيش، كله هيخلص.

وركبت بالمقعد الأمامي وهو قعد بجانبها، بمجرد أن عدل قدميه
ليضبطها على البنزين تحركت هي مبتعدة ويدها تتأكد من تمام مظهرها
وزر البلوزة، ومحاولة أن تنفي من عليها آثار ما حدث ما قليل، وأما
عنه فقد اكتفى بتشغيل المذياع وددنة الأغاني مستمتعًا بهيئتها التي

ستنفجر خجلاً، وشردت بعالم آخر، داخلها يغلي، سعيدة بتقريبه منها لن تنكر، أنوثتها المكبوتة أصبحت تتراقص، مشاعرها التي تحملها له تتمنى ألا تفارقه ويظل يلقي على مسامعها كلمات الغزل، وإن كانت لا يتغزل بالمعنى ولكن عينيه تفعل، كلماته تؤكد، وتصرفاته تسرد لها مقدمات عشق، ولكن...

تلك الوخزة التي بمنتصف صدرها مهما تجاهلتها لا تستطيع محوها، تلك الحقيقة التي تخبرها كونها خادعة محتالة مهما تغاضت عنها لن تنفمها أو تمحوها، ومع كل استجابة منه وتقرب إليها يزداد الأمر سوءاً.

في البداية كانت تقنع نفسها أنه يستحق، صفيق يعاملها بخشونة ويتفنن في التقليل منها، وهي بأحجية عاشقة ستنال أحلامها بشأنه وبشأن عنوستها المفروضة عليها، ولكن ومع اقتراب الزفاف ومع تقربه الواضح بات الوضع من أسوأ ما يكون. لن تقوى على التظاهر باللاشيء أكثر.

توقفت السيارة أمام منزل خالتها كما وصفته له وودعته، ثم ركضت نحو العقار فقد كانت بأمس الحاجة للحديث مع مهجة. ستروى لها عن تبدل تصرفاته معها عليها تجد لديها تفسيراً يريحها، هي تعرف أن مهجة أكثر خبرة منها بالحياة وستجد لديها غايتها.

«ويا زين ما اختارت».

فلقد فاجأتها ووضعت الرد في وجهها وخرج من «قفاها».

— عادي كلهم بيعملوا كده عشان أغراضهم الوضيعة.

سألت ريم بقلق:

— يعني إيه؟

وقالت ببديهية:

– يعني بعد ما تتجوزوا ويأخذ غرضه منك هتلاقيه رجوع في الليفل الطبيعي.

«ليه بتقتلوا الفرحة جو انا، حرام يا أخي ليه كده».

شهقت ريم:

– لا، مش للدرجة دي يا محسن.

وأكملت بثقة:

– سيف مش كده أبدًا، إنتي متعرفموش.

ورددت مهجة:

– هيلة.

وأردفت ساخرة:

– لومش مستغربة تصرفاته يبقى بتسألني ليه هاه!

نفت ريم:

– عادي هو اتحول عشان أنا حاليًا بقيت مراته، حاله يعني هو

بيقولي كده.

لوت مهجة شفيتها كما عواجز الفرحة:

– بكرة نشوفك يختي وإنتي قاعدة على الفيس وكاتبة الاهتمام

ما بيطلبش.

وأكملت بتحدي بعدما كتفت ذراعها:

– هابقي ساعتها أجي أفكرك بالكلمتين بتوعك دول.

ألقتها ريم بالوسادة بغيظ.

– الخطوبة مغيرتكيش يا محسن، هتفضلي بأئسة طول عمرك.

ابتسمت مهجة ورفعت رأسها بشموخ:

– الحقايق كده دايمًا بتوجع.

وحينها سألتها ريم بينما يدها تشير لدبلة الخطبة خاصتها:
- يعني مش فاهمة طالما وجهة نظرك في الرجالة متحركتش
أومال دي في صوباعك بتعمل إيه؟

نظرت مهجة نحوها وشردت، وبعدها اتخذت قرارها.

- لا دي موضوع ثاني خالص.

ثم اقتربت منها، فلطالما اشتهت أن تحكي لها عن قصة الخطبة
المزعومة، ولكنها خافت بعد أن تفشي لها بالسر فتعترف ريم تحت
أول ضغط تقابله من أمها، ولكنها الآن أرادت أن تشاركها هذا الشيء
وتستمع لوجهة نظر مخالفة تمامًا عنها وتناقضها عل أشعرتها تستقر
على مرمى.

- بصي هقولك على حاجة بس أقسم بالله لو قولتي لأي حد
لهاجي يوم الفرح أطلع فيكي وفي سيف بتاعك وفي كل المعازيم.

- يا ساتر، قولي قولي متخافيش.

- أنا وحليم مخطوبين كده وكده.

والتناحة والتخلف وكل سبل العته يجب أن يظهرها عليها بتلك
اللحظة.

- كده وكده اللي هو إزاي؟

والصدمة كانت على هيئة أحرف منها:

- بديله ألف جنيه في الشهر!

«يا مُرك يا مهجة».

لم يكن هذا رد فعل ريم؛ فلقد انتفضت كمن لدغها عقرب، تحاول
أن تفهم كيف تجرأت وخدعتهم جميعًا متناسية تمامًا أنها قد فعلت
مثلها وأبشع! كيف حبكت الدور هكذا؟

لم يبدُ عليهما أي غبار، ولم يثيرا أي شكوك؛ فقد كانت الأمور تبدو طبيعية بمنتى الاحتراف. قالت وكانت تنهراها:

– نهارك أسود، إنتي اتجننتي، عارفة خالتو لو عرفت ممكن تعمل فيكي إيه؟

وأجابتها مهجة بمنطق اعتبرته ريم منتى الشلل:

– وهي خالتك هتعرف منين لو إنتي موقعتيش بلسانك وقولتيلها. أخبرتها ريم:

– متضمنيش، مش يمكن هو اللي يقولها؟

توقفت مهجة على كلماتها وعلقت باستنكار:

– مين حلیم! مستحيل.

– يا سلام وإنتي ايه الثقة الفظيعة اللي إنتي فيها دي؟ ده واحد بياخد منك فلوس كل شهر مش عاملها شهامة ولا جدعنة.

أقرت محسن:

– عارفة لو كان الموضوع دخل فيه شهامة وجدعنة كنت خفت منه.

وأردفت:

– وبعدين حلیم مش كده، عرفته كويس وشوفت أهله وبقولك هو استحالة يعمل حاجة زي دي.

سألها ريم وكانت تسأل نفسها:

– وإنتي متخيلة لعبتك دي ممكن تستمر لإمتي؟

والإجابة خرجت على قدر من الوجد رغم هدوء الملامح.

– تستمر بقا متستمرش اديني ماشية لحد يا أما أحس إن خالتك كده هديت وبطلت هيرة العرسان بتاعتها يا إما أهج وأطفش

من البلد خالص.

ثم أكملت ببرود:

– ولو افترضنا إنه حصل وهي عرفت، خلمها تعرف وساعتها هقولها إن المواقف الزبالة اللي حطتني والتتمة أوجعت ريم ككل ما سمعته فقد كانت تحقق مع نفسها لا مع ابنة خالتها:

– أنا أشرت نفسي يا ريم حتى لو بفلوس مش مهم، اشتريتها لإن محدش في الدنيا ممكن يشتريها غيري ولا حتى خالتك.

وتجسدت الحقيقة أمام عيني ريم، هي وضعها أسوأ، على الأقل مهجة لم تخدع نفسها وتخدع شريكها بالحكاية. متوقعة النهاية ومستعدة للرد، وقامت بإعداد كل أوراقها ولا يهمها الحكم.

أما هي فتعيش في طيات الحلم متناسية الحقائق، اعتمدت على تشجيع أمها في التخلص من الشعور بالذنب زاعمة أنه على الأقل هي ليست المذنبة الوحيدة، ومتجاهلة فكرة أنها في النهاية لا تخدع سوى نفسها.

تراخت قدمهاها بياس، وتهاوت جالسة على السرير المقابل لمهجة ولسانها كان يردد بشبه وعي.

– أنا عملت مصيبة.

كررتها مهجة بذهول:

– مصيبة إيه؟

وعلى ذكر المصائب لم تنجح في استجوابها؛ بسبب ضجيج خارج الغرفة خرجت على إثره، وكانت منال للتو قد وصلت لمنزلهم وتقريباً تزعق مع أمها مرددة بنبرة غريبة عليها:

– مهجة فين يا ماما؟

وخرجت لتستفهم وتبعثها ريم بعدما أزال آثار دموعها:

– أنا أهويا منال يمالك؟

والأخرى قالت بصياح صدم الجميع فتلك لم تكن قط طباعها:

– نادر حكالي على كل حاجة.

والرد أكثر من متوقع خاصة فيما يخصه:

– وإيه اللي حكهولك الزفت ده؟

تدخلت أمها:

– مهجة!

ومهجة عينها ستخرج من مقلتها بانتظار إجابة، ومنال لم يعجبها ردها بالطبع.

– مسمحكيش يا مهجة.

وأتمت ووضع «على الطين» «بله».

– مش كفاية اللي عملتية وكمان بتكلمي عنه بالأسلوب ده؟

وما زالت لا تكتفي.

– طول الفترة اللي فاتت ومن ساعة الولادة ممسكيش بحرف
عشان ميزعلنيش وإنتي ما شاء الله مش مراعية إنه جوز أختك
الكبيرة يعني المفروض تحترميته وتعتبريه كبير العيلة.

استنكرت مهجة وهذا المتوقع.

– كبير العيلة!

ثم قالت مصححة لها:

– كبير العيلة اتوفي من وإحنا صغيرين يا منال.

وأكملت بسؤال قبل أن تعطي لها أي فرصة للرد:

– قالك إيه عني؟

ومنال رفعت رأسها لتخبرها بعيون دامعة:

– قالي إنك بتتهميه إنه قال كلام غريب يوم المستشفى وعشان كده من ساعتها بترمي له كلام في الطالعة والنازلة وكل ما تشوفيه.

سألها مهجة:

– بتبلى عليه يعني؟

وقالت الأم التي لا يعجبها ما يحدث الآن، بل وتتمنى أن تسقط فاقدة الإدراك ولا ترى ابنتها تتشاجران بهذا الشكل الذي قطعاً لن ينتهي بسلام.

منذ أن جاءت منال وقد لمحت في عينها قراراً تتمنى لو من كل قلبها لو يختلط علمها التفسير.

زعقت بكليهما:

– اسكتوا انتو الاتنين واتفاهموا زي النبي آدمين.

قالت مهجة:

– ثواني بس يا ماما مهو أنا لازم أفهم.

ووجهت حديثها لمنال بينما يديها تشير لأذنيها:

– قالك بقا اني سمعته وهو بيقول للدكتور يضحي بيكي وينقذ ابنه؟ قالك إني مسكت في رقبته قدام كل الناس وفضحته الحيوان ده ولا قالك إنه مسكين غلبان وإني الشريرة الي بتبلى عليه؟!

شهقت ريم ووضعت يدها على فمها بصدمة:

– هو نادرقال كده؟

زعقت منال وكأنها تنفي التهمة عنه بكل ما أوتيت من قوة:

– مقالش.

وأردفت متجهة بعينها نحو مهجة:

– هو إنتي عشان متعقدة مفكرة كل الرجالة زي ما إنتي متخيلة.
وأكملت بدموع:

– ولا إنتي مستكتره عليا الحاجة الوحيدة اللي مخلياني عايشة.
صرخت مهجة:

– بس بس اسكتي.

ووضعت يدها على رأسها قبل أن تجلس على المقعد بشبه سقوط:

– إنتي بتصدقني الغريب وو اقفة معاه على أختك!

ونظرت نحو منال فلمحت كون عيناها ترددت ولكن لسانها نطق:

– نادر مش غريب، ده جوزي وأبو ابني.

ولحقتها بالقول قبل أن ترحل:

– سيبيه في حاله يا مهجة، دي آخر مرة هقولها لك فيما،

متخلنيش اختار بينكوا، لأنه أبو ابني.

حاولت أمها أن تذهب خلفها وتوقفها ولكن مهجة منعتها بقولها:

– سيبيها يا ماما، هي من الأول جاية ومقررة.

وبعدها ذهبت لغرفتها وأغلقت عليها الباب بالمزلاج، ولم تمنح ريم

أي فرصة للحديث معها بل أخبرتها:

– رّوحي إنتي يا ريم أنا هنام بدري.

وريم لم تستطع الرحيل قبل أن تطمئن على خالتها وتمنحها كوبًا من

«الكركاديه الساقع» قبل أن يرتفع ضغطها، وعندما أيقنت أن الأمور

مستتبة إلى حد ما رحلت، رحلت وظلت تتمنى لو ما جاءت إلى هنا اليوم.

الفصل العشرون

(كل الطرق تؤدي إلى سيف...)

خطوات ثقيلة متباطئة، قرار اتخذته وتعلم أنه لا مفر منه، مخاوف وهواجس سوداء تطاردها بكل لحظة في الصحو والمنام.

حركة قدمها كانت تتعمد تأخيرها، كل خطوة كانت تخطوها تجاهه كانت تمثل حلم يقظة مرعب عاشته بالأيام السابقة، ونهاية متوقعة لحكايتها إذا لم تتدخل وتغير المسار.

كوابيس تحرمها النوم وأحلام يقظة وتداخل كل منهما بالآخر حد إفقادهما عقلها، لم تعد تفرق حتى بين واقعها وخيالها.

عاشت كل فكرة بكل حواسها، وكل ارتعاد قابله قلبها كان حقيقًا؛ فكان لا بد من خطوة تصرخ باحثة عن حل.

قررت في الصباح أن تكتب ختامًا لذلك العذاب، ستذهب إليه كي تتوسله، تبحث عن غفرانه، تعلمه بما تخفيه عنه وتنتظر رد فعله الذي تستحقه. قرار ربما تأخر، ولكن أن يأتي متأخرًا خيرًا من ألا يأتي أبدًا.

خطوة خطتها بعد تفكير لتعبر شارع الشركة خاصتهما، وتوقفت أمام الشركة تتأمل لافتتها بشرود.

خطوة مثلت حكاية سعيدة انتهت بكارثة؛ فما بنى على باطل فهو باطل، تتيه بين كابوس هاجمها ذات مرة لتستفيق وتكمله بحلم يقظة مُر وكأنها تعاقب نفسها وتجدها. يمر أمام عينها وهمها الذي يتجسد حيًا بلحظات وحدتها فيثقل ضميرها بـم لا تحتمل، ترى بعين خيالها المستقبل.

كانت على اتفاق مع ابنتهما على مفاجأته في عيد زواجهما الخامس. انتهت للتو من تعليق الزينة والبالونات بالصالون، وكعكة الاحتفال

الرائعة التي صنعتها بنفسها ستخرج من الفرن بعد خمس دقائق.
ملابسها على أكمل وجه، ثوبها أسود قصير كما يحبه، زينتها
بسيطة كما عودته وابنتها تماثلها بلون الثوب وشكله؛ فكانت وكأنها
قطعة صغيرة منها تتحرك حولها.

وضعت الكعكة على الطاولة وأحاطتها بخمس شموع.

الأولى تمثل الحب.

الثانية تمثل الاشتياق.

الثالثة من أجل السعادة.

الرابعة ابنتهما وفرحة العمر.

الخامسة تمثل الأمان الذي لم تشعر به سوى معه وتحت كنفه.

ظلت في انتظاره ساعة والثانية وقبل الثالثة كان تهاتفه كي
تستعجله؛ اليوم تحديداً لا يجب أن يتأخر بالعمل ويندمج حتى وقت
متأخر، اليوم يخصه ويخصها فقط.

هااتفته لتتفاجأ بصوت امرأة تجيب عوضاً عنه وتخبرها أنه كان
نائماً لديها!

أخرى علمت فيما بعد وهي تقوم بكسر كل محتويات الشقة على
رأسه أنها زوجة أخرى تزوجها عليها في السر. لم اختار اليوم تحديداً كي
يؤلمها هذا الألم المميت؟

لقد كانت منذ ساعات فقط تظن أنها أكثر الناس سعادة وأكثرهم
حظاً، رفعها للسماء وجعلها ترتطم بالأرض الصلدة دون أن يرأف بحالتها
ويدم بارد.

سألته ودموعها قد عاشت المشهد وتناست ما فعلته به يوماً ما
مستغلة ضعفه ونقص ذاكرته وتشوشه:

— ليه الغدريا سيف؟! —

والإجابة فاجأتها حقًا.

– إنتي اللي بدأتي الغدر.

سألته بتعجب وجسدها ينتفض من أجل الفكرة:

– إنت افتكرت؟!

وفاجأها بقوله:

– من 3 سنين.

تلعثمت وكانت الصدمة قد خدرت حواسها:

– اتجوزتها عشان تنتقم مني؟!

أكد لها:

– اتجوزتها عشان أوجعك في الوقت اللي اشوفه مناسب.

صوت حارس الأمن بتحيته المعتادة هو ما أنقذها من السقوط بهوة الألم المعتادة، فحركت رأس بتحية روتينية لتكمل خطواتها القدرية.

مرت من بوابة الشركة بهيئتها الفوضوية وروحها المتجمدة حد أن تصل لقرار كانت ترفضه بقوة، ولكنها أصبحت تعترف لا حل تملكه في الوقت الراهن سواه. خطوة أخرى وتوقفت أمام المصعد تتأمل الأرقام المتغيرة على لوحته بدموع لاحت في عينها وشرعت في كبتها، وهاجس آخر يمثل حقيقة كانت من الممكن أن تحدث بسهولة أيام الخطبة، لقد فعلت ما أرادت ونالت لقب عروس بل أجمل عروس بين الأهل والأصحاب.

أصبحت خطيبة ذات شأن وأهمية وكيان وبعد عدة أشهر ستصبح زوجة وربة أسرة. كانا يتقابلان بحجة الخطبة والتعارف وبمعرفة الأهل، وكان التقارب يزداد بسبب فكرة أن هذا الشخص سيصبح الزوج، وستعيش معه تحت سقف واحد بعد شهر وأكثر، منحه كامل الثقة

كان متوقعًا وبديهياً، مشاعرها امتلكها منذ زمن وبأمر الحب أساساً فهل ستبخل عنه بالثقة؟!

ثقة لم تظن قط أنه يستغلها هكذا ليدمرها. تذكرت المشهد وتفاعلت معه وكأنه يحدث للتو من جديد، سألتها حينها إن كانت تحب المعجنات الجاهزة فقالت له بابتسام «نعم، أعشقها بالجبن والبسطرمة وساخنة حد أن أرى دخانها أمام عيني».

خرج من السيارة واختفى عن ناظرها دون أن تنبت شفتاه بكلمة رغم أنها نادته تستفسر أين سيذهب وعاد لها بعد ربع ساعة بطلبها كما طلبت وكان ساخناً بدرجة مغرية لها، بدأت تلتهمها بسعادة وعيناها تتابعه بعشق، تتساءل هل في العالم سعادة توازي ما تشعر به الآن ما تملكه من مشاعر؟ رأسها يثقل مع الوقت وابتسمت، وفسرت هذا على أنها ليست معتادة على كل هذا الاهتمام؛ فلماذا رأسها لا يتقبل.

بدأت تشعر بالدوار بمجرد أن امتدت أصابعه تمسح بقايا الجبن السائل على جانب شفتيها بإغراء وبلحظة ازداد اقترابه حد تقبلها. التهم الجبن وشفتيها دفعة واحدة، ولحظتها لم تصدق، فكرة اقترابه نفسها مثلت لها صدمة.

هو في النهاية مجرد خطيب لا يجمع بينهما أي عقد شرعي يعطه الحق فيما يفعل، حاولت دفعه واقترابه يزداد، تدفعه بقوتها الواهنة ورأسها الثقيل ووعمها الذي يتضاءل دون سبب.

وهو!

هو الآن يشق ملابسها ويكشف صدرها ويتلمسه بشهوة، ينزع ملابسها ويسعى لامتلاكها ويفعل، لا تتذكر ما الذي حدث بالضبط، ولكنها واثقة من أنه قد وضع لها منوماً بالفطائر، استيقظت وهي في شقة متطرفة مخيفة باردة كما جسدها الذي ينتفض خوفاً منه، ترتعد كما لو أنها تجلس على الجليد.

استعادت وعيها بفرع عندما وجدت نفسها شبه عارية أمامه؛
فثوبها كان ممزقاً بالكامل وما تبقى منه لا يغطي من جسدها أي شيء،
ضمت يديها على صدرها في شبه محاولة ستر، ثم تفوهت بصوت ضائع
باهت فقد ملامحه مثلها:

– ليه ياسيف؟ ليه؟ ليه غدرت.

والإجابة خرجت مدوية منه وكأن نبرته باتت أكثر غلظة لتكتشف
للتو أن حتى نبرة صوته كانت خادعة ككل شيء يخصه:

– إنتي اللي بدأتي الغدر.

تسللت أصابعها المرتجفة لتمسح دموعها ببطء وكانت لا تقوى
على تحريكها من الأساس:

– أنا مغدرتش.

صاح بها:

– إنتي هتستهبلي، مش اتفقتي مع الست الوالدة على الفيلم ده
من الأول عشان تدبسوني في الجوازة؟

نهضت بالكاد ولسانها يتساءل بخوف:

– إنت افتكرت؟

ضحك كما يضحك الأشرار بالأفلام الأمريكية:

– أنا منسيتش أساساً عشان افتكر.

أغمضت عيونها تستقبل إجابته ببسالة ثم أخبرته ونبرة صوتها
قمة الضياع:

– أنا عملت ده عشان بحبك والله بحبك، وعارفة إنك عمرك ما
هتبصلي، أنا أنا مقدرتش استغني عنك ممكن أموت، سيف سيف.

وأكملت بتوسل:

– إنا هنتجوز بعد شهر؟

ولا تعلم إن كان هذا سؤالاً يحتاج جواب أم أنها تتوسله ليفعل، أعاد ضحكته التي تخيفها ثم أكد لها قبل أن يرحل ويتركها في هذا المكان المخيف:

– أنا مش بتاع جواز.

سعلت بحدة، لم تفهم هل أزالوا كل ذرات الهواء من داخل المصعد قبل أن تدخله أم أنها هي التي تختنق، حاولت أن تخفف من إحكام حجابها على أمل التحسن وتحركت خطوة للأمام استعداداً للخروج من المصعد، خطوة تمثل هاجس آخر محتمل للغاية، رغبة بدأت بغريزة وانتهت باستسلام تلاه صحوه متأخرة منها على فكرة أنه كان يجارها من أجل انتقام مؤجل!

كانت تعيد في ترتيب ملابسها في الخزانة، ذهنها شارد بزواجها، بل ورطتها التي لا تعلم لها نهاية، جسدها يتميل بلاوعي على النغمات كرد فعل أنثوي بحث لا علاقة له بحالتها الذهنية الضائعة، ضائعة حد غفلتها عن وجوده معها بنفس الغرفة، اقترابه، أنفاسه الدافئة بقرب عنقها فاجأتها فانفضت بشهقة كتمها بضغطة قوية لصدره، وهمس باشتياق منه قابلته بمقاومة اعتاد أن يهزمها بسهولة.

عناقه دافئ، حميم، متطلب، وشفته تتابع حركة أنامله على جسدها برقعة، حنان، احتياج، دفء وشهوة هزمته تلك المرة فخضع لها وأخضعها معه، دموعها كانت تسأل بلا كلمات وقبالاته تمنحها الأمان وهمسه المطمئن المخدر للنهية بأنها الزوجة وهو صاحب الحق.

وإن كان صاحب حق فلم يكن له استعجاله قبل أوانه، وكيف تلمه وهي استعجلت قصة زواجها كله، ونالت الرجل رغم إرادته، رغم نقص ذاكرته، ولكنه لن يتخلى عنها، لن يتركها، هو وعدها وهي تصدقه.

كررت تلك الكلمات لعقلها عدة مرات وهي تستعد لقدمه لمنزل

عائلتها، زيارة خاطب عادية، وكانت عادية قبل أن يتحول الخاطب لزوج مع إيقاف التنفيذ، والليلة يأتي بعدما أصبح زوجها مع التنفيذ الكلي والكامل؛ لذا لم يكن من المنطقي أن ترفض قبلاته ولمساته والتي تحكم بها بفعل وجودهما بغرفة الضيوف بمنزل عائلتها.

رفض العشاء وتعلل بمواعيد لإنهاء العمل بالشقة، وذهب مع وعد بمكالمة ليلية طويلة، مكالمة لم تصل قط؛ فبدلاً عنها وصلتها رسالة نصية تحمل كلمتين.

«إنتي طالق!»

تتذكر أنها سألته وقتها في عالم الكوابيس خاصتها لتحيا وجع الفكرة وكأنها حقيقة:

– ليه الغدريا سيف؟!!

وجوابه كان مرآة لحقيقة حاولت تجاهلها مرارًا:

– إنتي اللي بدأتي الغدر.

توقف المصعد أمام الطابق المنشود ودار رأسها، منذ متى وهي مستيقظة لا تدري بالضبط، حسب ما تخمن منذ ستة وثلاثين ساعة قد فارقتها النوم تمامًا فيما عدا خمس دقائق يومية تسقط خلالهما فاقدة الوعي، وتستيقظ بعدها لتستكمل الساعات الطويلة مع أفكارها التي لا تتوقف.

تماسكت ببسالة حتى تتوازن وخطوة أخرى خطتها خارج المصعد ويجب أن تسترد كل قواها من أجلها ومن أجل أن تكمل ما قطعت كل تلك المسافة كي تنهيه، خطوة مثلت نهاية أخرى لحكايتها المعقدة، خطوة ترددت باتخاذها فهي هوة خيالاتها السوداء تتسع أمام عينها. حركة قدمها لا إرادية.

همسات العاملين حولها نهبتها لتجمد قدمها بمكانها وكأنها تبيست

تمامًا بل شلت حركتها، أخذت تراقب المكان وكأنها غريبة، آدم عندما يسقط على كوكب المشتري، تتعجب الناس وكأنها ليست منهم، تراقب حركتهم واندماجهم بالعمل وكأنها لم تكن ضمنهم في يوم ما. هي الحقيقة أصبحت تشعر أنها خارج أي دائرة وكأنها بلا هوية. غريبة حتى عن نفسها.

أجبرت قدمها على التحرك، خطت خطوة جديدة أخبرت أن مكتبه بنهاية الرواق ولم يعد يفصل بينهما سواه، وصلت لمكتب إيناس بصعوبة وكأنها كانت تشق طريقًا بين الجبال؛ أنفاسها تعلو وتهبط وكأنها في سباق ماراتون، روحها مشردة وحالتها مثيرة للشفقة، قدمها تطلبها بالعودة من حيث أتت وهو اجسها تدفعها في اتجاهه. تعجبت إيناس من مظهرها، لقد كانت وكأنها شبيهة باهتة لها، عيون متورمة ووجه شاحب وظلال سوداء قاتمة تحت عيونها وهيئتها غير مهندمة بالمرّة وكأنها تسير في جنازة عزيز لديها؟! سألتها بقلق:

– إنتي كويسة؟

وكيف ستكون بخير وهي كانت بطلة ألف قصة وحكاية مأساوية، وكان آلام الناس جميعًا جعلوها حصيرة لها وحدها، هزت رأسها موافقة واستجمعت صوتها لتسألها:

– سيف هنا؟

أخبرتها بعقل شرد في حزنها القابع بعيونها فخرجت إجابتها بمنتهى التردد:

– عنده اجتماع، شوية ويخلص.

وأرادت المزاح معها بغرض التخفيف من حالتها السيئة، ولكن لا التوقيت ولا المكان ولا حالتها تسمح بذلك.

– إيه يا عروسة هو الجواز بيععمل كده في الناس؟

ولم تجبها، لم تقو على فتح فمها بابتسامة تجامل بها المسكينة والتي من إخراجها لشعورها بتدخلها فيما لا يعينها أشارت لها بصمت كي تجلس على مقاعد الانتظار وتنتظره حتى ينتهي عمله، وخطوة أخرى خطتها نحو أقرب مقعد لتهاوى عليه.

أسقطت جسدها فوق المقعد وعقلها يجاهد ليمنع التقاء جفنها معاً، فمجرد تلك الحركة يتدافع معها كابوس آخر لم يرحمها باليومين الماضيين، أحلام تهاوى وقتما علمت حقيقة الشيء الذي كان يخفيه عنها، هو متورط بالمخدرات حتى أنفه، أدمنها لدرجة أنه لا أمل بعلاج أو غيره، بدأ الوضع بالحشيش وأقلمها على فكرة كونه مجرد أداة للترفيه عن النفس، وبعدها انغمس مع الفكرة لدرجة الهيروين والكوكايين وكل ما هو أبيض قاتل، لم يكن يبدو عليه قبل الزواج أي أمارات توحى بورطته وربما هي التي كانت معمية عن حقيقته بسبب الحب، أو بسبب أنها كانت لا تريد رؤية أي شيء سوى أنه الفارس الذي سينتشلها من العنوسة المتوقعة.

عاشت عامين من أسوأ ما يكونان، رعبها كل يوم عليه يزداد خوفاً من إفراطه بالجرعة وهو بالخارج ولا يجد من ينقذه، نوبات غضبه عليها لا تتوقف.

يصفعها ويقتلها ضرباً عندما تعارضه ويتحول الوضع لكارثة إذا فكرت بنصحها، يجن جنونه، يكسر كل ما تطوله يده فوق رأسها، مرة يكسر لها قدم وأخرى ذراع، وعندما يستيقظ لا يتذكر السبب ويعتذر منها ويطلب منها ألا توجد بطريقه!

انغمس في حالته البائسة حد الغرق، يندم ويقرر البعد والنجاة، وهي تتأمل ليفاجئها بالعودة إلى الصفر من جديد، مرة يسرق أموالها ومرات أخرى تكتشف نقص في مصوغاتها وأثاث المنزل، وحتى مرة تجرأ

وسرق أباهما وهو لديهم، وعلى الرغم من فقدانها الأمل به كلياً إلا أنها لم تتنازل وتستسلم بعد لفكرة حتمية انفصالها عنه؛ فتلك الحياة لا يمكن احتمالها، وذلك الوضع المأساوي يجب أن تقوم بردعه، لكنها لم تفعل، ذنبها في حقه يقيدها وجرمها السابق الذي لم تقوَ على مصارحته به يثقل كاهلها ولا يمنحها رفاهية النجاة.

تريد أن تظل معه؛ لأنها أجمرت بحقه مسبقاً، وذلك أقل شيء قد تقدمه له، واليوم عاد من الخارج أسوأ، لقد أفرط بالجرعة حد عدم الرؤية.

يتخبط بطريقه للغرفة ويصارع حتى لا يسقط فاقدًا الوعي، يشتهي النوم حتى عدم الاستيقاظ ومجهد بدرجة ما قبل الإغماء.

وهي!

هي حمقاء توقفه باحثة عن شجار ومجرد شعارات بلهاء لا يتحملها أو يتقبلها بأي شكل كان.

— لحد امتي يا سيف؟

والتمتة صارخة.

— سيف أنا خلاص ماعدتش قادرة.

ومن غيظه وجدته يقذفها بعيداً عن طريقه لترطم رأسها بحافة السرير بشكل عمودي، ولم يستعد وعيه الضائع سوى بعد رؤية الدماء تسقط من أنفها لتعلن الروح الرحيل والجسد السلام، قضية مقتلها خاسرة؛ لأنها لقد كانت المتهم الأساسي والمدير الرئيسي فيها، ومع ذلك سعدت؛ ربما لأنها ستتخلص من حياتها البائسة المحكوم عليها بالإعدام قبل أن تبدأ.

فقط الآن هي آمنة.

فأي أذى ممكن أن يلحق بها وهي بعيدة عن بني البشر؟!

ارتعد جسدها على السيرة وشعرت وكأن روحها تتألم لأجل مثلتها في العالم الآخر الموازي، لقد قُتلت أمام عيونها وهي صامتة لم تستطع حمايتها، وشيء ما داخلها يخبرها أنه هكذا أفضل لها، تلك النهاية متوقعة اليوم أو غدًا ما الفارق!

وكان إيناس شعرت بها في تلك اللحظة فناولتها كويًا باردًا من الماء أتمد القليل من نيران صدرها، وحينها استيقظت وعادت للواقع، هي الآن بمنتصف الشركة على بعد أمتار قليلة من مكتبه.

فكرت، كيف وصلت إلى هنا؟

كيف استطاعت أخذ القرار أخيرًا بعد كل هذا الخوف التردد؟! وقبل أن تفكر بالإجابة كان باب مكتبه يفتح معلنًا عن نهاية اجتماعه
...و

المواجهة المنتظرة.

– أنا أم عيالك يا سيف!

وتلك كانت البداية، جملة لفظتها سريعًا بكل خوف العالم وتردده وبكل يأسه أيضًا، جملة بحثت بها عن خلاص فكانت المعنى الحقيقي للأسر.

والشباك!

غبية، كما أخبرتها مهجة بالضبط عندما جاءت إليها تستفهم عن ماهية كلماتها الغامضة في آخر زيارة لها والتي قاطعها مجيء منال وما ترتب عليه من حالة انقلاب عظيم بالمنزل.

بمجرد أن جاءت مهجة تسألها انهارت واعترفت لها بكل شيء، بوح مهجة لها بسرها منحها القليل من الشجاعة كي تصارحها. كم اشتهت أن تخبرها مهجة بأنها على صواب، أن تؤيدها بالفكرة فهي أيضًا قد عايشت

مثلها فكرة الضغط، وكيف من الممكن أن تؤدي لتهور أو انفجار، والحقيقة أن مهجة منحتها من التوبيخ واللوم ما يكفي مدينة بأكملها. لم تحدثها عن فكرة خداعها له فقط، ولكنها فتحت عيونها على ما هو أصعب.

– إنني اتجننتي إزاي عملي كده؟

– أنا حبيته.

وتفوهت مهجة على الفور:

– وإنني ايش ضمنك إنه كويس، مش يمكن نصاب ولا حرامي ولا واطي زي نادرولا سادي ولا بلا ازرق فوق دماغك.

توقفت عن البكاء لتسأل بصدمة:

– يعني إيه سادي؟

وبختها مهجة:

– نعم! هو إنني مش معانا على الكوكب خالص؟

وعندما شرحت لها المعنى فتحت فمها على اتساعه، صدمة أخذتها دفعة واحدة ضد العالم، ومهجة ظلت تسألها وما زالت تأمل بإجابة مقنعة:

– تضميني منين إنه يطالع شخص سوي؟!

ولم تجد إجابة تمنحها إياها، مجرد مشاعر تملكها نحوه ولا تعلم عنه سواها، شعور بأنه جيد ولا تملك ما ينفيه، ومهجة كانت ستجن من تصرفها، كيف تجرأت؟ كيف نفذت خطتها ومن أين أتتها كل تلك الثقة؟ ماذا تعلم عنه سوى اسمه ووظيفته حتى تستلم للفكرة وتصدقها، بل وتحيكها على مقاسها بمنتهى الحماسة؟!

وكانت محقة، فهل فكرت أساسًا قبل أن تبدأ خطتها الساذجة؟!

هل منحت نفسها الفرصة كي تدرس أبعادها، تسأل وتستفسر،

تتأكد مما ظنته!

خلقه، طباعه وهل لديه ظلًا آخر يخفيه بالوجه الجاد العملي
المستقيم؟!

كيف قدمت نفسها له على طبق ساخن شهي سهل المضغ بينما
كانت لا تعلم عنه شيئًا سوى اسمه وطريقة توبيخه لموظفيه!
كيف علمت استقامته؟ كيف تأكدت من أنه لا يملك عدة وجوه
يتقلب بينها؟

تاجر سلاح، مخدرات أو ربما صانع عاهرات ووجدها فرصة سهلة.
كيف تيقنت من فكرة فقدان ذاكرته تلك؛ فربما كانت فخًا وهي
كالخرقاء وقعت به بإرادتها الحرة؟!

التصقت به، بل وضعت فيه كل آمالها، والأدهى أنها هددته بالانتحار
كي يظل معها وبجانها وبعدها وضع خاتمه في بنصرها أغلقت رأسها على
الفكرة وقلبيها على المشاعر الوردية التي رسمتها وصنعت لنفسها جدار
عازل عن الجميع خوفًا من أن يخترق أحدهم تلك السعادة.
هي حتى كانت خائفة على جدارها العازل من سيف نفسه!

تتقبل منه ما يؤيد فكرتها وتتغاضى عن البقية، تتأقلم على طباعه
المتغيرة وتفسر أي تصرف له على أنه رومانسية. تتجاهل شعور الذنب
المقيت الذي يجرمها الفرحة من أجل أن تصل لما تريد، أن تصبح
عروس، فستان أبيض وباقة ورد، رقصة ناعمة أمام الجميع، وفرحة
تشتهيها أمها فتمنحها إياها، ورجل تحبه وتعلم أنه لن تجد من تعشق في
العالم سواه، فارس واقعها والأحلام، وأجابت مهجة على مبرراتها بسؤال:

— طيب وهو ذنبه إيه؟

وأكملت وكانت تشعر وكأنها تصفعها بالكلمات أو الحقائق التي
تتغاضى عنها.

- هو من حقه يختار.
أجابت بيأس:
– عمره ما كان هيختارني.
وصرخت بها مهجة:
– من حقه يقرر، حقه هو مش حقا.
وأردفت بما هو متوقع:
– إنتي لازم تعترفيله بكل حاجة.
رفضت ريم الفكرة على الفور وأخبرتها بهستيرية:
– أترفله، مقدرش مقدرش، أترفله بعد إيه؟ اتأخرت قوي.
أمسكتها مهجة كي تسيطر على ارتعاد جسدها وتشنجه:
– متأخرتنيش، ممكن تلحقي.
وأخبرتها بعيون مشفقة عليها:
– بعد كده مش هتعرفي ترجعي أبدًا مع إنك هتتمني ده كل يوم.
وقعدت مقابلها واحتضنت أصابعها:
– ممكن يكون هو مش وحش ويكون أحسن واحد في الدنيا بس
هو ملوش ذنب في أحلامك ولا في حبك ليه، مش من حقا يا ريم.
قالت ريم بدموع لا تتوقف:
– أنا خايفة أخسره.
أكدت مهجة:
– لازم تخافي.
وأضافت:
– وبعدين تضميني منين رد فعله بعد ما يفتكر؟

وهمست لها قبل أن تحتضنها:

– خليها تيجي منك قبل ما يعرف لوحده.

والأخرى تركت لها نفسها لتحتضن شهقاتها ومخاوفها بينما تؤكد

لها:

– لو هو بيحبك نص حبك ليه ولو هو كويس زي ما إنتي بتأكدي

يبقى هيسامحك يا ريم.

وأردفت:

– دي آخر فرصة ليكي، بعد كده استحالة يبص في وشك ده لو

مقتلكيش فيها.

استفاقت من أفكارها على صوت إيناس تناديه وربما تفعل منذ

وقت.

– ريم، إيه رحتي فين؟

– هاه...

أخبرتها:

– الاجتماع خلص، ومسترسيف مستنيكي تقدري تدخليله.

جمعت حاجيتها وكانت تلملم ما تبعثر منها، حاولت تأخير خطواتها

قدر الإمكان وكأنها تخطو نحو النهاية، كل خطوة كانت تمثل لها شيئاً،

الخطوة الأولى سامحني، الثانية أحبك، الثالثة لا تتركني، طرقت الباب

وابتلعت ريقها عدة مرات ثم دخلت ونطقت الخطوة الرابعة على هيئة

أحرف ودموع.

– أنا أسفة!

الفصل الحادي والعشرون (بحر الهوى غدار)

قررت إنهاء تلك الحماسة، أن تعترف له بذنبها، تتخلص من هذا السم وتلك الكذبة المشينة قبل أن تقتلها وتابعها، لا تصدق أنها أخيراً تجرأت واتخذت الخطوة وربما سوء حالتها هو ما جعلها لا تنتبه لخطواتها حتى وصلت إليه، والآن هي أمامه، دخلت المكتب وأغلقت بابه وبعدها تسمرت، فكرة أنه لم يعد يفصل بينها وبينه عدة سنتيمترات أرعبتها ولا تراجع.

فقدت الإدراك للحظات، كانت كمن سقط من طائرة مروحية بمنتصف صحراء دون خريطة سير، ولن تنجو إذا ما وجدت حلاً ولن تجده إلا بعد محاولة أو مخاطرة، ربما هي لا تمتلك شجاعة تكفي رهبة هذا الموقف، ولكن هي توقن أنها آخر فرصة وإن كانت ضعيفة، خافتة، ضئيلة الأمل ولكنها موجودة وإذا خسرتها ستفقد نهائياً.

إذا لم تخبره بنفسها والآن إما سيقتلها أو سيتركها والاثنان برأيها سيان. يجب عليها أن تمهد وتبرر وتصلح كل ما أفسدت بحكمة، ولكن من أين ستأتيها؟ فقد ضاعت الكلمات والأحرف وما تبقى عبارة عن دمعة حائرة فقدت هويتها وعيون تائهة وشفاه مرتجفة تتلعثم بأحرف غير مفهومة في حالة هذيان، وهو بمجرد أن لمحها بتلك الحالة الغريبة ركض نحوها دون تفكير، توقف أمامها وأمسك وجهها وعيونه القلقة عليها تنطق قبل لسانه:

– ما لك!

وكان رد فعلها على سؤاله هو إغلاق عيونها لتعتصرهما ويخرج الفيض الكامن من الدموع وهذا ما أخافه عليها أكثر، لقد حاولت آخر يومين التعامل معه بطبيعية حتى لا تشعره بالبركان الذي يسكنها،

وظلت تضغط وتضغط حتى انفجر الوضع عليها، ولم يعد بإمكانها السيطرة عليه بأي شكل وطريقة. وجدته يصبح بها وصياحه كان نابغاً من خوفه عليها، هي لا تتحدث وتظل تبكي ليفقد عقله. ضمها إليه في صمت لتحيطها ذراعيه بينما لسانه يتفوه:

– خلاص إهدي.

وذهب ليناولها كوباً من الماء تجرعت منه القليل وبعدها أعادها لأحضانها، قرر الصمت حتى لا يضغط عليها فهو لم يرها قط بتلك الحالة، لم يشعر بهذا الشعور من قبل ولم تتمكن منه مخاوف بهذا القدر مسبقاً.

ماذا أصابها فجأة؟ ماذا حدث حتى تصل لتلك المرحلة من الانهيار؟ رغم أنه قرر ألا يضغط عليها بأسئلته إلا أنه قد خلف قراره بعد عدة ثوان وسألها:

– حد جراه حاجة؟ أهلك كويسين؟!

حركت رأسها بنفي فأردف:

– طب فيه إيه؟

سمعتها تهذي تلك المرة بكلمات شبه مفهومة:

– أنا عملت كده إزاي؟

استعاد انفاسه، تهد، زفر بقوة، لم تعد إليه أنفاسه، بل عادت روحه بعدما اطمأن قلبه؛ لقد ظن أن هناك كارثة حلت على منزلهم. ماهذا الذي فعلته ويزعجها هكذا! ألا تعلم أن كل شيء يمكنهم تلافيه ما دامت هي وذويهما بخير، قال بأريحية:

– هو إيه بقا اللي عملتيه ومزعلك قوي كده؟

وأكمل وبعدها أمسك ذقنها بمحاولة مزاح:

– وبعدين إنتي تعملي اللي إنتي عاوزاه أساساً.

وتاهت في عينيه، وكأنها لا تسمعه، تنظر نحوه وكأنها تحاول أن تحفظ ملامحه جيدًا وكأنها المرة الأخيرة. لم ترتب كلماتها بعد، ما زالت في حالة شبه وعي، بين أحضانه وجسدها غائب، معه وروحها وحيدة، هنا ولكنها لم تحضر إلى الآن!

– أنا أسفة يا سيف!

ليتصلب جسده، لم تعتذر؟ ما الذي فعلته حتى تعتذر منه بالتحديد؟ هو اليوم يحاول الهرب من كل ما يراه فيها، ذلك الندم والأسف لمحبه بعيونها منذ الدقيقة الأولى وتجاهله، تلك النظرات التي ترمقه بها تعمد عدم فهمها؛ ولكن أسفها مع حالتها الغريبة هو باختصار كارثة على الطريق.

– أنا بحبك، عملت كده عشان بحبك.

وظل يفكر ولا يصل لمرسى، يحاول الاستيعاب، أن يسألها حتى تجيبه وتنهي حيرته، أن يفك شفرة كلماتها المهمة وكل محاولاته تفشل.

– كنت حلبي، حلبي الي صدقته.

وبدموع أمت:

– صدقته كأنه حقيقة، مكنتش بكذب.

أخبرها بعد دقيقة صمت كانت على كلاهما دهرًا:

– أنا مش فاهم حاجة!

أمسكت يده لتقربها من وجهها ولا تعلم إن كانت تودع قلبه أم أنها تستقوي بوجوده:

– كل حرف قولتهولك بعد الحادثة عشته كأنه حقيقة.

ابتعد عنها، قعد على حافة مكتبه وكان قدميه لن تقوى على حمله أكثر، وكأنه يستعد لاعترافها الذي خرج من شفثيها فجأة!

– إحنا مكانش فيه بينا حاجة قبل الحادثة.

وصمتت لتردف:

– مش أكثر من مدير وموظفة.

وبعدها ظلت تبكي وبالكاد أكملت:

– دي كانت الطريقة الوحيدة اللي كانت ممكن تقربني منك.

هكذا بمنتهى البساطة، تخبره أنها أرادت ففعلت وتنتظر تعاطفه!

– بس والله أنا بحبك.

وشردت أكثر:

– بحبك من أول يوم دخلت فيه الشركة.

وتحكمت في شهقاتها لتتطرق:

– بس إنت كنت بعيد بعيد قوي.

وحاولت جاهدة ألا تنظر نحوه، بكل ما امتلكت من قوة وفشلت،

خافت أن ترى تلك النظرة بعينه.

رأت فيها غضب جارف، حنق من العالم وجهه إليها، رأت خيبة أمله

فيها، رأت أنها فقدته وأنه لن يسامحها مهما فعلت. كانت الصدمة لم

تفقد تأثيرها فيه، كمن يشاهد مشهداً من بعيد ولم يدرك بعد أنه بطله.

أمسكت دبلتها الذهبية بأصابعها بيأس؛ لم تنتقل لليد اليسرى

بعد، ولكنها لم تعد من حقها.

ظلت تحركها يميناً ويساراً وبعدها تراجعت، لم تستطع فعلها؛

أن تقتل أملها هكذا بنفسها، أو ربما لعلمها أنها إن فعلت ستنزح عنه

حقاً آخر من حقوقه، من حقه أن يتركها حتى وإن كانت تأمل بالغفران

المستحيل حدوثه. سقطت منها دمعة أخيرة قبل أن تخبره:

– آسفة، آسفة قوي.

وحاولت أن تتطرق بالمزيد ولم تفعل. حالتها أصبحت أسوأ؛ فتلك

النظرة لن تنساها ما دمت أنك حييت. ركضت من أمامه وتركته في صدمته مع جراحه.

تجمد، تصلب، تحجر. كل تلك مرادفات قليلة على وصف حالته، وما من الممكن أن يكون أقسى على رجلٍ يعلم الآن أنه قد تم خداعه ممن اتخذها زوجة، هو المدير الناجح، الخبرة الواسعة، صاحب الصولات والجولات مع الفتيات.

من كان يفهم دواخلهم بمجرد نظرة، ومن كان يتجول بينهما ويفلت من أي ارتباط كما يخرج الشعر من العجين، تأتي فتاة خبرتها في الحياة معدومة لتجعل منه أكبر أحق بالعالم. فتاة قرر بسببها أن ينسى نقصه واكتشف فجأة أنها من استغلت هذا النقص، خدعته ببراءتها، بدموعها.

ضغطت عليه بالانتحار حتى ينصاع لرغبتها، ذاكرته المفقودة جعلها تصنع منه لعبة، سلسال وضعته برقبته!

طرق على المقود بقوة وود أن يصرخ، منذ متى وهو يقود السيارة لا يعرف، تفادى أكثر من حادث باللحظة الأخيرة. لا وجهة له ولا مستقر.

هاتفه لا يعلم إن كان بحوزته ولا يهتم لمعرفة ذلك، أفكاره لا تسمح له بالتهرب، وشيطانه يضع الملح على غضبه، وكأنه يرى نفسه بمرأة السيارة، استغلت وضعك لتصبح لعبة. لعبة. لعبة.

واعترفت لك بوقت التراجع فيه مستحيل والاستمرار أيضًا. يبدو له أن توقيت اعترافها جزء من لعبتها أيضًا.

زاد من قيادة السيارة بدرجة جنونية ولا يعلم كيف وصل للمنزل دون أن يسطدم بعمود إنارة أو تدهسه مقطورة، دخل لمنزله بنصف وعي متجهًا لغرفته.

بشروء يغيبه عن الواقع؛ لم يستمع لصوت أمه التي رحبت به ولا شقيقته التي تربه الفستان الذي اشترته كي تحضر به زفافه، تدور وتتحرك أمامه سعيدة برقته ولونه الأرجواني الذي تعشقه.

صاحت بها أمهما:

– اقلعيه بقا يا ميادة عشان ما يتوسخش.

وحينها تدخلت بسنت قائلة بمزح:

– أنا هبقى عروثة ياثيف وهلبث (هلبس) أبيض زي ريم.

وكأن اسمها هو فقط ما جعلته ينتبه حينها استعاد كلماتها من

جديد.

«إحنا مكانش فيه بينا حاجة قبل الحادثة».

«مش أكثر من مدير وموظفة».

تساءلت أمه بقلق:

– ما لك يا سيف؟

وهو نظر لها مطوِّلاً دون أن ينطق وبعدها نظر حوله، يرى نفسه يكسر تلك المرأة الكبيرة فيفتتها حتى يهدأ، ويمزق ذلك الأثاث في حالة هياج، ينزع فساتين أخوته ويجمعهم جميعاً ثم يحرقهم، وفي النهاية يطرق رأسه على الحائط عدة مرات حتى يفقد الوعي بالكامل وليس مجرد عامان جعلاً منه أضحوكة.

والحقيقة أن أمه لمحت في عينيه تلك الثورة التي يكبتها فاتجهت نحوه وحينها أدرك أنه ما زال محله، لم يفعل أي شيء مما سبق، فقط يُقسّم نظراته بين أمه وأخوته. ماذا عليه أن يفعل بالوقت الراهن؟ هل عليه أن يفضحها أمام الجميع؟ ولكن الفضيحة بالنهاية ستطاله.

ستدمر سمعته، عمله، أحلامه وكيانه وسينكسر أمام عائلته وذويه وأمام الجميع، وإن وافق على استكمال الزيجة كيف سيستمر؟

كيف سيعيش معها تحت سقف واحد دون أن يقتلها؟ كيف سيثق بها مرة أخرى؟ هل من الممكن أن يغفر لها ذنبها بحقه؟ وإن غفر هل ستكون زوجة مخلصه ويصبح لها زوجًا مثاليًا؟

هل بإمكانه أن يصبح زواج طبيعي وقد كانت بدايته كذبة؟
ربما من حقه أن يتركها، ينتقم منها ويبحث عن حب آخر حقيقي لا مزيف ولكن عائلته وسمعتها وكرامته أمام الجميع ألا يمتلكون لديه حقوقًا أيضًا؟ وماذا عن نفسه؟

أليس أقل شيء يقدمه لها هو أن يطردها من حياته ردًا لاعتباره؟
ماذا يفعل وكيف يتصرف لا يدري ولا يملك قرارًا بعد.

سألته أمه بقلق بالغ:

– حصل حاجة يا سيف؟ فيه إيه؟

أومأ برأسه نافيًا وخرج صوته بأعجوبة مرددًا:

– محصلش، تعبان وهدخل أنام.

ودخل مغلقًا عليه باب غرفته بالمفتاح وحينها علقت بسنت:

– هو أبيه ماله؟

وقامت أمها بصرفهم إلى غرفهم:

– ملوش، أدخلوا ناموا الوقت أتأخريلا.

وبعدها توقفت أمام بابه مفكرة بطرقه ثم تراجعت، وحمدًا لله

أنها فعلت.

أخبرتها مهجة عندما حادثها بانهيار أن تأتي إلى منزلهم فورًا حتى لا تواجه أمها وهي بتلك الحالة، وقد فعلت، تماسكت عن البكاء أمام خالتها بأعجوبة ثم هربت إلى غرفة مهجة متحججة بالإجهاد والرغبة في النوم، ومهجة تولت أمر خالتها وأبلغتها أن ريم ستنام لديهم هربًا من

زحام المنزل وأمها رأت أن هكذا أفضل؛ حتى لا تصاب بالعين.
ناولتها كوبًا من اللبن ووضعتة على المنضدة الجانبية منها، وحاولت
أن تنزع عنها الغطاء لتساعدها على النهوض، ولكنها قد تمسكت بها:

– ريم إنتي مكلتيش حاجة النهارده، عشان خاطري.
ونهضت لتتساءل وتبحث عن إجابة لدى مهجة لأنه لا يوجد سواها
من تشارك معه أفكارها وتساؤلاتها ومخاوفها:

– هيسيبني!

وتهاوت مهجة على السرير المقابل بيأس، لا تعلم بماذا تجيب ولا
كيف بإمكانها أن تطمئنئها وتساعدها.

– مش عارفة.

وبعدها سألتها:

– هو مقالش حاجة خالص؟

أشارت برأسها نافية، وضعت يدها على وجهها ولم تتحمل الأفكار
التي تراودها بشأن ذنبا وبشأنه.

وحينها حان موعد السؤال المتوقع جدًا.

– وإنتي هتعملي إيه؟

سالت دموع ريم ونطقت بيأس:

– مش عارفة.

– ولو مجاش الفرح؟

وأكملت مهجة:

– نقول لخالتو وأونكل؟

تفوهت ريم سريعًا:

– لا.

وأردفت:

– أكيد هو لو حابب هيجي ينهي الموضوع الصبح.

– و افرضي مجاش!

مسحت ريم وجهها بيدها:

– وممكن يجي.

تعجبت مهجة:

– لسه عندك أمل!

ولم تمنحها إجابة، ولا تحتاج لنطقها من الأساس، ربما هي الآن تعيش بفضل هذا الأمل، ربما سيتفهم تصرفها ويعذرها، ربما.

كانت بانتظاره داخل غرفة العرائس بمركز التجميل وهي بكامل هيئتها، بثوبها الأبيض الزاهي ووشاحها الملانم لملامحها والمثبت عليه تاجًا من الفضة وبزينة وجهها التي حاولت على قدر الإمكان ألا تفسدها بدموعها الخفية داخل مقلتها على استحياء كرد فعل طبيعي منها على حالة الخوف الشديدة التي تعيشها.

وهو تأخر، تأخر حد أن تفهم أنه لن يأتي وتعلم أنها تستحق فما فعلته لا يعد سوى جريمة أبدًا لا غفران لها.

أغلقت أهدابها على عيونها مستعيدة كل تلك الأحداث الصاخبة وكأنها لم تكن تتخيل أن تصل بها إلى هنا وهي حتى لا تملك حق الاتصال به والسؤال عنه فهي محرومة من وصاله ما دام لم يخبرها بالعكس، نطقت داخلها بأقوى ما فيها:

– يا رب.

قاطعتهما أفكار صوت والدتها التي جاءت إليها تسألها:

– سيف أتأخر ليه؟

وريم لم تجد إجابة تمنحها إياها؛ فهي لم تعرف عنه أي شيء منذ آخر زيارة بمكتبه، ولولا رؤيتها لأهله لظنت أن تلك الزيجة قد انتهت، ولكن هذا لم يمنحها اطمئنان كامل، فمعنى عدم اتصاله بها وتأخره عن مواعده لا يعني سوى تركه لها.

– كلميه شوفيه فين كده هنتأخر على معاد القاعة.

ومنحتها هاتفها في قبضة يديها وهي أمسكته بارتجاف، كيف تحادثه بحق الله وخاصة بعد تلك النظرة النارية المتوعدة التي منحها إياها في نهاية مشهد اعترافها، وضعت الهاتف على أذنها دون أن تجري أي اتصالات بالفعل.

– إيه رد؟

وهي قالت متدمرة وغازبة:

– لسه.

رمقتها أمها بنظرة تحمل ألف سؤال وتهربت منها ولم ينقدها من سؤالها المتوقع عن سبب تغيرها وعصبيتها سوى صوت زغرودة أم عريس قادمة من الخارج لتطمئن أمها وتتجمد هي، تحركت بخطوات بطيئة حتى وصلت أمام المرأة، وهناك فقط التقطت أنفاسها، وبعد عدة ثوان تماسكت وخرجت كي يستقبلها عريسها والذي كان يقف أمام السيارة الخاصة بهما ولم يتحرك ناحيتها حتى بعد توقفها عن السير.

لم تجد حلاً سوى بأن تذهب هي إليه كي لا يشك أي شخص بأمرهما، وبمجرد أن وصلت إليه توقفت أمامه برأس خجل منكس وملاحها تحمل كل توسل واعتذار ممكن وهو اقترب ليمس بأذنها مردداً بطريقة أثارت ذعرها أكثر مما هو عليه وكأن وجوده أمامها لا يكفيها:

– مبروك يا عروسة.

الفصل الثاني والعشرون

(مولد وصاحبه غايب...)

فرح ينقصه فرحة.

مولد وصاحبه غايب.

الكل يرقص على ليلاه!

رقصٌ لا يتوقف ولا يقل حماسه مع الوقت. صديقات العروس مقابل أصدقاء العريس وكأنهما في حلبة سباق، كل منهما يريد إثبات أنه الأكفأ، أنه الصديق الأقرب وصاحب صاحبه، أنه الأجدر والأكثر اهتمامًا بفعل الواجب!

زفاف اشتعل من أول أغنية بعد أن رفض العريس رقصة «السلو» مع العروس، اعتبر هذا البعض غيرة والآخر احترام، أو «أفورة» منه! فقط قلة قليلة مندسة هي ما تشعر بأن هناك شيئاً غريباً على وجوه العروسين، ترى خطأ ما لا تستطيع لمسها فكتمته والقلة تمثلت في أقرب الأقربين؛ أمها وأمه ومهجة وحيزونات كل زفاف والتي لا يمكن أن تفوتهم أي تفاصيل، والبقية على حاله. إما يرقص أو يقدم التهاني أو يستقبل المعازيم، أو في حالة انتظار «للبوفيه»!

— ألف مبروك يا جماعة، بجد لا يقين على بعض جدًا.

وكان هذا زميل آخر بالعمل، جاء من أجل التهئة وتسبب في زيادة التوتر، كلما يأتي أحدهم ترمقه هي بحذر ويرمقها هو بغضب، وكلما يقرر أي منهما ويأمر عينيه أنه لا تلاقيا تتلاقى في النهاية كأقدار مفروضة لا مفر منها أو هروب.

كانت مهجة تجلس على طاولة عائلتها والتي كانت قريبة من الكؤوشة بدرجة كافية للمراقبة والحقيقة أنه ألمها قلبها. نظرات سيف تتأرجح

بين الغضب والشroud، لم يبْدُ عليه السلام ولا التسامح والرغبة بالنسيان أو البدء من جديد. كان يبْدو أنه ما زال في دائرة حنقه.

لماذا جاء إذن؟! ما دام لم يسامحها ويتفهم أسبابها فلماذا لم يُنه كل شيء ويرحل.

تصرفه هذا لا يعني سوى شيء واحد لا غيره، إنه لديه حسابات أخرى.

إن كانت عودته من أجل الانتقام كيف ستتحمل ريم؟ كيف بإمكانها التعامل مع الموقف أو حتى الفكرة؟ وهي، هي لا تتحمل فكرة أنها قد قذفتها بنفسها إليه كي يؤذيها، أرادت تصحيح الموقف دون أن تفكر أنها ربما تكون تدفعها إلى الخطر. ماذا تفعل؟

هل بإمكانها أن تأخذ ريم من يديها وترحل؟! لن تقوى على فعلها ولا ريم نفسها ستقبل أن تجاربهها ولا خالتها ستسمح لها، ولا الأعراف ستحل قيودها عنها وإن كانت نياتها بريئة، وإن أرادت حمايتها؛ سيضعون بينها وبين ريم ألف حائل وحائل.

اليوم تأكدت، قد نضحي بأنفسنا، ولكن لا يمكن أن نتحمل أن نعرضها لأي فضيحة، الناس وألسنتهم لدينا أهم منا. خرجت من شرودها على صوت أمها تسألها:

– هو حلِيم جاي؟

وأخبرتها مهجة بعد أن حركت شفيتها بمعنى «لا أعلم».

– معرفش.

– أو مال مين اللي يعرف؟

نطقت مهجة بعدم رضا:

– اسألني مراته.

شبهت أمها:

– مراته!

وتبعها بسؤال أحرق خراج منها من شدة تفاقؤها:

– هو حلیم متجوز؟

قالت مهجة بشرود:

– يمكن، كل واحد عنده جانب مظلم في حياته.

اعترضت شيرين:

– جانب إيه ومظلم إيه إنتي بتتفلسفي عليا يا بت؟

نفث مهجة بضيق:

– أبدأ، بس طالما مجاش الفرح مع اني مأكدة عليه برسالة الصبح وسيادته شافها ومردش عليها يبقى أكيد هو متجوز ومخي عليا.

وبعدها صمتت، ما بالها تقمصت الدور أكثر من اللازم! لقد تحولت لسيدة نكدية أصيلة فجأة وتندب حظها، وحينها قررت أن تبتسم؛ ما شأنها وشأنه إن كان لا يريد المجيء لا يأتي.

كما تريد يا حلیم، كما تريد.

ولكن أيضًا عدم حضوره قد يضعها بموقف محرج، لن تنكر أنها قد تدبر أمورها بهذا.

ما يزعجها هو شيء آخر، إنه تجاهلها؛ فتح رسالتها ولم يهتم بالرد، عامدًا متعمدًا، وعادات وانكماش ملامحها من جديد.

رفعت شيرين حاجبها باعتراض وبتعجب، ابنتها تبتسم وترسم على وجهها «التكشيرة» بنفس التوقيت.

«سبحان الشافي المعافي».

– عشان مردش على الرسالة جوزتيه في ثانية؟ والله انتوالاثنين

دماغكم جزم.

– شكراً.

لفظتها سريعاً ثم وجهت ملامحها نحو ريم من جديد، تتعاطف معها وتفكر بأي طريقة تنقذها وتفشل، حينها وجدت سيف ينهض مستغلاً انشغال الجميع بافتتاح البوفيه، وكأنه ملّ من التهاني ومن المجاملات، وهو الحقيقة لم يحاول أن يضع على ملامحه أي ابتسامة زائفة، لم يتصنع أي شيء ومع ذلك قد مل كلمة «شكراً» التي لا يتفوه بسواها.

خرج من القاعة وريم تتبعه بعيونها، ترجوه بصمت ألا يهرب ويتركها وحينها توجه إليها صديقاتها وأقاربها في لحظة مرح وسيلفي كن ينتظرها من أول الزفاف.

تبعث مهجة سيف، بحثت عنه حتى وجدته في آخر الحديقة يقعد على بقايا سور قديم، توجهت نحوه، ربما هذا أول حديث لها معه بعد التعارف وعدة مقابلات قصيرة المدى، ولكنها يجب أن تحادثه من أجل ريم ومن أجل سلامتها.

وجدته يشعل سيجارة ويشرد في البعيد ولا تعلم إن كان رآها أم أنه يتجاهلها، سألته:

– ممكن اقعد هنا؟

نظر نحوها ولم يجيبها ولكنها مضت في طريقها وقعدت

– إنـت ليه مسبتهاش؟

نطقت أولاً بالسؤال الأهم لديها ليرفع عيناه نحوها في تعجب، تعلم إذن، أخبرتها، من يدري من يعلم أيضاً، وسخر داخله، ربما هو مخطط عائلي. نفث العديد من الأنفاس المتتالية، وكأنه قرر أن يستخدم خيوط تبغ في الإجابة عليها عوضاً عن لسانه.

– مستغرب إنـي عارفة! للأسف أنا عرفت متأخر لو كانت حكـتلي

من الأول يمكن كنت منعتهما.

وأضافت بشبه دموع:

– الطبيعي والمفروض إنها تصلح غلظتها وتقولك، من حقا تعرف وتقرريا تسامحها يا تسيبها لكن إنك تيجي وتتمم الجواز من غير تكون سامحتها ده كان احتمال مش وارد خالص.

وانتظرت قليلاً ولن تنكر أن صمته التام هذا يزيد من مخاوفها، ولكنها مضطرة أن تخبره ولو كانت تحادث نفسها.

– إنت ظالمها على فكرة، ريم أبسط كتير من الكلاكيك اللي بتوسمها دماغك دلوقت.

وعادت إيماءاته الساخرة تعتلي وجهه. أهو الطرف الظالم الآن؟! هي المظلومة!

وجدها تشرد بالحديث، بذكريات عُمر، بطفولة وصبا، كما زرع بالدنيا توأم انشطرت بويضته شطرين؛ فتقاسما الملمح ستجد هناك توائم روح تقاسموا الحياة بحلوها وحامضها.

– إنت متعرفهاش زي ما أنا عارفها، ريم مبتبصش لبعيد، مبتعرفش تشوف صور كاملة، بتشوف من الألوان الوردى بس ومن وسط الموت بتدور على أمل صغير يعيشها، هي حبتك قوي، شافت فيك الفارس وشافت فيك الجائزة على كل اللي شافته.

وكأن مع كلماتها هو يزداد عصبية، أنهى سيجارة والآن يسعى لحرق الأخرى وعيناه تسيطر عليه ضباها.

– خالتو صعبة، صعبة قوي، فارضة عليها وضع هي مش عاوزه، كانت مستعدة تخليها تتنازل عن حاجات كتير عشان تتجوز قبل فولانة أو بنت علانة، كانت بتقعد قدام العرسان وأمهاهم وتتفرج عليهم وهما بيبيعوا ويشترؤا فيها ومتقدرش تتكلم، ليه؟ لإن خالتو

موافقة.

وبعدها فركت أصابعها، هي الأخرى قد ذاقت بعضًا من هذه الكأس رغمًا عنها في فترة من الفترات.

– كبريائها ادمر والبننت لو حسنت إنها خسرت كبريائها بتضيع وهي ضاعته، اتعودت متاخذش قرار لإنها عارفة إن اللي بتقوله مش هيتسمع وعشان كده أول قرار خدته كان كارثة.

وأضافت مصححة فكرة خافت أن تزور عقله بسبب ما تشرح:

– هي معملتش كده عشان تهرب بيك من حصار خالتو هي عملت كده لإنها عارفة إنها عمرها ما هتعرف تتجوز غيرك وإن قلبها متحركش إلا عشانك.

وأكدت رغمًا عن عينيه التي تزداد حنقًا مع كلماتها:

– توقيت الحادثة والكلام اللي طلع بعدها صورلها إن دي آخر فرصة، آخر أمل عشان تتجوز اللي بتحبه ويتمناه قلبها بجدة.

وأردفت بتنهيد:

– بس فضلت مش مرتاحة، مقدرتش تفرح، كل ما كنت بتقرب كانت بتستغرب، معاملك السيئة لهما في الأول خلتها تحس إنه ده التمن ورضيت بيه وأما اتغيرت معاها مقدرتش وحست إنها متستاهلش السعادة دي كلها.

لانت نبرتها من أجلها؛ علَّه يشعر بما تشعر به تجاهها، علَّه يراها مثلما تراها هي.

– هي كانت من أول يوم عارفة إن اللي عملته مصيبة بس خافت ترجع، خافت تسيبها وخافت تتحرم من وجودك حياتها ومع ذلك أول ما لقت حد واحد بس قالها ارجعي إنتي اللي جواكي صح واحسني قرارك بقا رجعت مع أنها متعرفش إيه التمن، رجعت في وقت محدش

تاني كان ممكن يرجع فيه.

وبعدها نظرت إليه مطوِّلاً، بدأت تشعر بعدم جدوى كلماتها، ولكن يجب عليها أن تخط كلمة النهاية وتتركه لضميره:

– أوعى تأذيها يا سيف، هي كانت شجاعة وواجهتك ولو كانت متأخرة بس عرفتك وإدتك الخيار، يا تفهمها وتصدقها وتكمل يا تسيبها وساعتها هتخسر من سمعتها وكرامتها أكثر منك بكثير، مينفعش بعدها تواجه شجاعته بإنك تنتقم منها.
وأكملت بثبات:

– وقتها إنت اللي هتكون جبان وضعيف ومتستاهلش واحدة زيها، هتكون تستاهل اللي حصلك وأكثر بكثير.

وعندما لم تجد منه أي تعليق سوى تعبيرات وجهه المهمة لها رحلت. رحلت ولا تعلم إن كان حقاً قد استمع لها.

عادت للحفل، وكان الفاصل «البوفيبي» على وشك الانتهاء. ذهبت لطاولتها ووجدت منال تجلس بالقرب من أمهما، تضع رأسها على قدميها ثم تحتضنها والدموع في عينيها.

منذ بداية الحفل كانت تجلس مع حمايتها وعائلتها على طاولة منفردة وكأنها تخبرهم بأنها قد تحولوا لأحزاب وهي اختارت الحزب الآخر وعلى ما يبدو أنها لم تحتمل هذا الجفاء لمدة أطول فذهبت لأمها تطلب سماحها ورضاهما، ولكن ماذا عنها؟

هل أخرجتها من الصورة من أجل أن تُرضي زوجها؟ أو ربما هي انتظرت أن تهض حتى تأتي لأمها،

لا لا، ليس لتلك الدرجة، منال ليست قاسية هكذا، ولكن لم لا أليست من قبل أخرجتها من حياتها حتى لا يحزن «الشملول» زوجها،

تبًا لهم جميعًا!

كانت تستدير وتذهب بعيدًا عنهم وحتى لا تقطع هذا الجو الدافئ الرائع، ولكن منال لمحتها فتعلقت نظراتها بها، ومن بعدها لا هروب، يجب عليها أن تتحرك نحوها.

إما تتجاهلها أو تنهرها أو تصفحها أمام الجميع، لا تضمن ردة فعلها ولا تأمنها، والحقيقة هي مغتازة منها أكثر من اللازم، مغتازة منها لدرجة أنها ودت لو تجرها من شعرها وتنظف بها بلاط القاعة.

ما بالها تتعمق مع أفكارها الشيطانية هكذا!

اهدأي مهجة.

«سيكاها، سيكاها» أو اهدأي بلغة «قفشات الأفلام».

وبمجرد أن قعدت توترت، فركت أصابعها وفرقتها وعضت أسنانها على مرأى من شقيقته التي ابتسمت من مظهرها الضاحك؛ كانت تبدو وكأنها ستنفجر من الغيظ، وقفت أمامها وفركت أصابعها هي الأخرى على استحياء ولسانها يتفوه ببطء:

— محسن!

وبعدها داعبت وجنتها ومهجة أدارت وجهها ثم أخبرتها زاعقة:

— ابعدي عني بدل ما افرج عليكي القاعة كلها.

ومنال خافت أن تقترب منها فمهجة لن تتردد في أن تفعلها، أخذتها من يديها وتحركت بها إلى ركن في آخر القاعة، احتضنتها بأسف وحينها بكت مهجة حد إفساد زينتها بجدارة.

— منال إنتي كسرتيني.

وأردفت بعد لحظة صمت، لحظة عنت لها الكثير:

— يوم ما جيتي بزعايبك ومشيتي، إنتي عارفة أنا حسيت بإيه؟

حسيت إني وحيدة، يتيمة وتايهة ومليش حد.

نكست منال رأسها ولسانها يردد باستحياء:

– محسن أنا آسفة أنا يومها...

وقاطعتها مهجة:

– إنتي تعرفي إن من يومين دخلت لقيت ماما على الأرض، متخيلة

أنا كنت عاملة إزاي وتايهة ومش عارفة اتصرف.

شبهت منال ووضعت يديها على فمها:

– ماما! ماما مالها؟ إنتي مكلمتنيش إزاي؟ إزاي متعرفنيش؟

زعقت مهجة، أخرجت كل توترها وضيقها فيها:

– جاية تلوميني بعد ما اخترتية؟ بعد ما كذبتيني وصدقتيه،

ماما كان ضغطها عالي، مستحملتش تشوفنا واقفين قصاد بعض

بالمنظرده.

والتممة اللازمة...

– من يومها وهي بتداري بس أنا عارفة إنها تعبانة قوي، تعبانة

بسببك إنتي.

خفضت منال رأسها ونطقت:

– أنا يومها مكنتش في وعيي، قلت كلام ملوش لازمة، أنا أنا...

وكأن الكلمات تاهت عنها وضلت طريقها فاختمت بقولها:

– مش عارفة.

حينها نظرت لها مطولاً ولم تتردد في إخبارها:

– بيضحك عليكي يا منال، نادرده...

قاطعتها منال بتوتر:

– مهجة ممكن نقفل على السيرة دي، أنا مش جاية عشان أتكلم

في الموضوع ده.

وتفوهت مهجة ببطء:

– هوده أصلاً، هي دي المشكلة.

كادت ترحل منال لولا أن مهجة تشبثت بمنال ودموعها أوشكت على أن تتساقط؛ وكأن ما عاشته الأيام الماضية وقاومته ببسالة يخرج عليها الآن.

– أعصابي باظت، مش عارفة ألقها منين ولا منين! منك ولا من ماما وريم ولا حليم!

وحينها انتهت لصوت طرف ثالث يتدخل بالحوار:

– أهو حليم جيه بنفسه يشوفك زعلانة عليه.

رفعت ناظرها نحوه، سيطرت على رد فعلها ناحيته قدر المستطاع، حانقة عليه هو الآخر، حانقة للغاية. أرادت منال أن تمنحها لحظة انفراد على ما يبدو أنهما بحاجة إليها، احتضنتها وقبلتها وأخبرتها قبل أن ترحل:

– مهمما حصل إحنا ملناش غير بعض ماشي.

وأقرت مهجة برأسها وابتسمت لها وعادت تنظر نحو حليم، أخبرته:

– منال مشيت ممكن دلوقت تشيل الماسك وتوقف التمثيلة!

شرد بنظراته قليلاً، وبعدها سألها:

– وأشيله ليه؟

وحينها تحركت مقلتها، لا تدري، لا تجد إجابة، ولا تعلم لم طلبت منه هذا الطلب، ولا لم تريده أن ينفذه أكثر من أي شيء، ربما هو فضول هائل منها، تساؤل عن كيفية تعامله معها خارج اللعبة. طباعه، ما يكره وما يريد، وجدت نفسها تصحح سؤالها بسؤال آخر:

– مردتش على رسالتي ليه؟

وجاء رده ديناميكياً أكثر من اللزوم:

– المهم إنني نفذت.

وأكمل موضحةً:

– جيت الفرح عشان نظهر قدام عيلتك أحسن كابل في العالم.

نهرته مهجة:

– حلیم!

غضبت، هل يظنها لا تهتم سوى بهذا! جماد بلا إحساس.

سألته:

– هتمشي؟

نظر لساعته ثم أجابها:

– مش عارف، لوعاوزاني أقعد أنا ممكن...

قاطعته بقولها:

– حلیم إحنا في مشكلة.

وشردت في حديثها مع أمها في اليوم الذي فقدت فيه وعيها بسبب ضغطها المرتفع، قالت لها حينها أن العمر قد ينتهي بلحظة واقترحت عليها أن تزوج هي وحليم معها بالشقة حتى تتحسن ظروفه. حاولت التنصل والتهرب ولكنها حاصرتها تمامًا بالكلمات والدموع أيضًا.

– ماما مصرة إننا نعجل بالجواز، حتى لو معاها في الشقة.

صمت لهنيئة، أخبرها بتعجب:

– أكيد مش هنتكلم في الموضوع ده هنا!

أشارت بإصبعها للخارج:

– في كافيه لازم في القاعة، ممكن نروح هناك.

سألها:

– والفرح!

وسخرت داخلها:

فرح! أنا لا أرى أي أفراح.

وبعدها قالت:

– مش هنتأخر.

ذهبت وتحرك هو بعدها، لا ينكر أن طلتها جميلة؛ بهذا الفستان
الزهري الرقيق والذي لاق مع شعرها القصير، طلتها جميلة ككل
الأوقات!

قعدت وهو مقابلها، طلب الشاي ولها «نسكافيه بلاك»، أخبرته
بكل ما أخبرته إياه أمها من جديد وبعدها سألته:

– هنعمل إيه؟

وجدته يبتسم ولا تفهم ما سر ابتسامته!

– إنتي عاوزة إيه؟

حركت رأسها دون وجهة؛ نفي وإثبات بنفس الوقت:

– مش عارفة.

حينها أخبرها وعادت ابتسامته إليها من جديد:

– لو حابة نكملها جواز بيس.

وأضاف بعدما رفع حاجبيه:

– بس ساعتها الاتفاق أكيد هيتغير.

سألته بعد وهلة تداركت فيها صدمتها بكلماته:

– لو كملنا واتجوزنا، إيه اللي ممكن يتغير في اتفاقنا.

وحينها ضحك، فهم سر توترها الظاهر، سخر منها واغتاضت منه،

أخبرها:

– معرفش، على فكرة أنا مكنتش بتكلم بجد.

ثم سألها:

– عارفة ليه؟

وأردف:

– عشان إنتي أصلاً مش عارفة إنتي عاوزه إيه.

وضعت يدها على رأسها بيبأس:

– مش عارفة، الموضوع صعب، يعني في الأول موضوع الخطوبة

ده بسيط، يعدي، إنما جواز!

وبعدها سألته:

– إنت بالنسبة ليك الموضوع عادي قوي كده؟

أخبرها:

– مش عارف.

وأكمل:

– لما تاخدي قرارك الأول وتعرفي إنتي عاوزه إيه ساعتها هابقي

أفكر.

رفعت رأسها بصدمة؛ كلماته تخيفها، تربكها أكثر، الفكرة نفسها

بالنسبة إليها غير محتملة، لا لا لن تستطيع أن تجازف بنفسها وحياتها

واستقرارها النفسي، لا بد من وجود هناك حلاً ما، أي حل عدا هذا

الجنون، قالت له بعدما نهضت وحملت حقيبتها:

– أنا واخدة قراري، مش هقدر، محتاجة منك تكمل معايا

اتفاقنا كام شهرزيادة أظبط فيهم أموري.

ولم يتفوه بحرف، نهض في صمت وعرض عليها إيصالها للمنزل لو

أرادت، ولكنها أخبرته بثبات وكانت تقصد شيئاً آخر:

– طريقنا مش واحد يا حلیم.

دخلت وقعدت على فراشها الأبيض وبعينها رمقت الغلالة «الأوف وايت» التي جهزتها أمها بجانب منامة سيف الحربية؛ كل شيء مثالي، وكل شيء مُعدّ بمنزلها كما تمننت وأكثر.

رعما الحالي الشيء الوحيد الذي شرد عن التوقعات.

انتهيت لصوت قدميه يتقدم باتجاهها، لمحت ظلاله من تحت الباب، استندت على أقرب جدار في رعب تنتظر قدومه، شعرت بأصابعه على مقبض الباب، دقيقة وثانية وأخرى ثم رحل في النهاية صافقاً باب المنزل خلفه، تركها، وربما للأبد.

انزلقت قدمها وتراخت حتى سقطت بها إلى الأرض، حينها فقط همست:

– سيف!

وبعد عدة ساعات فتحت عينها بسبب ضوء النهار، لا تدرك كيف ومتى غفت، هي فقدت الوعي من شدة البكاء على ما يبدو. نامت على الأرض وبفستان الزفاف، نهضت ببطء بعد سويغات غفت خلالهم، حركت رقبته المتيبسة يميناً ويساراً، تبحث عنه، فتحت باب الغرفة الأخرى ووجدت جاكيتته بها وهاتفه أيضاً ملقى على فراشه. يبدو أنه لم يعد قط، ولكن هل فعلاً قد رحل؟ بطريق عودتها لغرفتها وجدت الباب ينفتح، توقفت وتوقف، خفضت ناظرها فتحرك هو ليغلق باب الشقة ويتقدم نحوها، اقترب منها، وقف أمامها لهنيئة يتأملها بحنق وبعدها مر من أمامها، سياسة جديدة ربما قرر أن يتبعها، أسىظل يتجاهلها حتى تقتل نفسها؟ نادته بياس:

– سيف!

ولم يتوقف، سألته ببكاء:

– إنت، إنت رجعت ليه دلوقت؟ رجعت ليه البيت وجيت ليه الفرح يا سيف!

استدار نحوها، جز على أسنانه وبعدها توجه نحوها:

– رجعت بيتي، بيتي اللي طلع عين أبويا فيه عشان يطلع بالشكل اللي يرضي عروستي، بيتي اللي رميت فيه كل أحلامي، أحلام مختلفة تمامًا عن بيت وروتين وزوجة.

وأردف بعدما قبض على ذراعها:

– اللي اتمنيت تكوني فيه النهارده قبل بكرة، بيتي اللي كان ممكن يكون لواحدة تستاهل عنك وتكون بتحبني وأحبها فعلاً.

وذراعه يقبض عليها أكثر:

– بيتي اللي دمرتبه وحرمتيني من أبسط حقوقي فيه وحولتيه لجهنم بسبب كذبك وخداعك.

توسلت إليه بدموعها:

– سيف أنا والله بحب...

ترك ذراعها وعينيه تحذرهما:

– أوعي تنطقها تاني.

وأكمل بقسوة:

– أصدق مثلاً إنك تقولي كنتي عاوزه توقعي عريس، تتجوزي وخلص، تهربي من بيتكم ومن حياتك، لكن حب وكلام فارغ من ده يا شيخة قولي كلام غير ده.

شعرت بحرج بالغ، أرادت أن تنشق الأرض وتسقط فيها، تحركت كي تبعد عنه وعن كلماته التي مثل طلقات الرصاص ولكنه أوقفها كي يسألها:

– اللي مش قادر افهمه، إنتي ليه اعترفتيلي؟ ليه؟
تلعثمت، تاھت المبررات وتاھت هي شخصيًّا، احتاجت دقائق كي
تستجمع نفسها وتخبره:

– مقدرتش أكمل في الخدعة، كان نفسي تفهمني، نبدأ حياتنا
على صفحة بيضا.

سخر منها، صفحة! وهل تركت له أي صفحات قد يفتحها؟ لقد
حرقت كل أوراقها وخانت ثقته فيها، سألها بخيبة أمل فيما:

– كان يستاهل اللي عملتيه عشان شبكة ومهر، فستان وفرح!
وأكمل بعدما هز رأسه:

– أنا فعلاً قرفان أبص في وشك.

انتحبت من شدة البكاء ودموعها لم تعد تشفع لديها عنده، لقد
فقدت ذلك الامتياز، أردف سائلاً إياها:

– عايزة تعرفي أنا رجعت ليه؟

واقترب من أذنها هامساً:

– هافجئك.

وبعدها انتبه كلاهما لجرس الباب، أهلها جاءوا من أجل مباركة
الصباحية، وابتسامته التي تلاعبت فوق شفثيه كانت أكبر من تحملها.

الفصل الثالث والعشرون

(حلاوة روح)

اعتصرت جفنيها بألم ولفظت اسمه بياس:

– سيف!

وأكملت وكانت تتوسله:

– أنا مقدرش أعيش من غيرك، سامحني، سيف أنا أنا آسفة.

أشار برأسه لها رافضاً كل ما تقوله:

– آسف دي تقوليهالي لما تكوني نزلي من البيت من غير ما

تقوليلي ولا في خناقة عادية زعلنا فيها من بعض شوية.

وأردف بنبرة ساخرة منها ومن الموقف ككل:

– مينفعش تقولها بعد ما تخدعيني وتسرقني مني حياتي، الكلمة

مش مناسبة خالص على فكرة.

واقترب منها خطوة وعيناه الغاضبة تخيفها:

– آسف! أسفك ده بالنسبالي وقاحة.

وأشار صوب الباب الذي لا يهدأ رنينه:

– أنا مش هشارك معاكي في أي مسلسلات، لعبتك كملها

لوحذك.

وأضاف بتقزز واضح منها:

– وإنتي متمكنة قوي في المواقف اللي زي دي وهتعرفي تلاقي

كذبة مناسبة، أنا واثق فيكي.

وأمام صمتها التام كان يخبرها بلهجة تحذير:

– ونصيحة وعشان مصلحتك طول ما أنا في البيت مش عاوز

أشوف وشك.

قذف بكلماته ودخل للغرفة التي خصصها له على ما يبدو وأغلقها، وهي كانت بين صدمتها فيما قال وكان فوق تحملها، وبين جرس الباب الذي لا يتوقف.

نظرته قبل أن يتركها كانت تؤكد ما أخبرها إياه، وبمعنى تحملي أنت ما صنعتيه، أنا لن أشارك بأي شيء، لن أكون بطل فيلم لم يقرر المشاركة به من البداية، أكملني طريقك وحدك وبرري لمن حولك كما تشائين؛ فكما رأيتك بارعة بالكذب والخداع بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف. استيقظت من حالة صمتها على صوت رنين هاتفها، يبدو أن أمها قد ملت من الانتظار أمام الباب وأرادت إيقاظها عن طريق مهاتفها. على أساس أنها عروس وتلك صباحيتها! حملت ثوبها وتحركت نحو غرفة النوم، أمسكت هاتفها وضغطت على زر الرد ثم شردت أو ربما فقدت قدرتها على الحديث، كان صوت أمها على الهاتف يناديها:

– ريم!

وتساءلت عدة مرات:

– ريم إنتي فين؟ سامعاني؟ يا ريم؟

وخرج صوتها بأعجوبة حتى سألتها:

– حد برة معاكي؟

أجابتها أمها بقلق:

– أخوكي رامي بس.

وذهبت وفتحت لها الباب وحينها أطلقت أمها بداية زغرودة سرعان ما قضمتها بسبب رؤيتها لها بحالة سيئة وبفستان الزفاف، قالت لرامي سريعاً:

– خد الحاجة دي مني دخلها المطبخ، متقفلش كده.

وبكت ريم وركضت للغرفة ودخلت أمها خلفها وأغلقت الباب،
صاحت فيها خوفاً:

– حصل إيه؟

وريم ازداد بكاؤها وبصعوبة تفوهت:

– هو بابا فين؟ أنا عاوزة بابا.

شبهت أمها ووضعت يديها على صدرها بينما رأسها يغزوه الكثير
من السيناريوهات السيئة، ولكن ريم كانت تمتلك سيناريو مختلف حقاً.
أن ترتعي بأحضانه فتهدأ بين ذراعيه، يمتص خوفها ويمنحها
الأمان، أن يعطيها رأيه عن الصواب وينصحها بما تفعل، ينتشلها من
نفسها فتعود الطفلة الصغيرة التي تركض حول أبيها حتى يحملها على
قدميه ويمنحها حلواه وقبلاته.

في تلك اللحظة تحديداً شعرت بالمسافة الواسعة بينها وبين أمها،
هي حتى لا تشعر برغبة في أن تفضفض لها عما ما بداخلها من حروب
ومعارك، لا تظن أنها ستستوعبها حتى لو كانت هي من قذفها إلى كل
هذا، سمعت أمها تقول بدهشة لم تفارق ملامحها:

– إيه اللي هيجيب أبوكي دلوقت؟

وسؤالها جر خلفه المزيد.

– سيف عملك حاجة؟ ضربك؟ خوفك؟ انطقي يابت هتموتيني

مشلولة.

وحينها أجابتها ريم بالمزيد من الدموع:

– سيف خلاص عرف كل حاجة ومش طايق يبص في وشي.

اتسعت عيون أمها وبرزت مقلتها للخارج:

– افكر؟

أومات ريم برأسها بمعنى «لا» وحينها سألتها:

– أومال عرف منين؟

أخبرتها ريم بصعوبة:

– أنا... أنا اعترفله بكل حاجة قبل الفرح.

توقفت أمها غاضبة:

– نعم! وعملي كده ليه؟ اتجننتي ولا جرا لعقلك حاجة.

صرخت ريم وكانت صرختها تشبه انتفاضة الشعب البائس ضد الحكومات الظالم:

– مقدرتش أخدعه وأخدع نفسي أكثر من كده.

وأردفت وعضلات وجهها ترتعد:

– كان نفسي يفهمي، يسامحي يا ماما.

اعترضت أمها:

– وأهوفهمك يا عيون ماما، فهمك قوي يا روح ماما.

ثم أمسكتها من ذراعها:

– إنتي عارفة لو طلقك النهارده دي معناها إيه؟

ثم عادت تلطم على وجهها:

– يا فضيحتك يا هناء وسط الناس، يا وكستك في بنتك.

سألها ريم بيأس:

– اعمل إيه؟

أخبرتها أمها بعصبية بعدما نهضت ووضعت الشال على شعرها:

– جاية دلوقت تسأليني؟ زي ما روحي قلتيله اتصرفي بقا

وصالحيه، أنا مش عاوزة أسمع حاجة عن الموضوع ده فاهمة،

تتشقلي وتصالحيه إن شالله توطي وتبوسي رجليه وتستسمحيه.

وأكملت وكانت وكأنها تحادث نفسها:

– أوعي تفكري تتطلقي إنتي فاهمة، تقولي لأبوكي ما تقوليلوش
براحتك إنما طلاق قسماً عظماً لأهج من الدنيا كلها وما تعرفوليش
طريق.

نادتها ريم:

– يا ماما!

– بلا ماما بلا زفت بقى.

وخرجت من الغرفة وأخذت أخاها الناعس ورحلت؛ تركتها مع
أمواج أقدارها وتخبرها أن تصارعها كي تبقى، ولكن لا يدرك سواها أنها
قد غرقت وانتهت أنفاسها منذ أمد بعيد وما عاشته مؤخرًا كان مجرد.

«حلاوة روح».

«طريقنا مش واحد يا حلیم».

وانتصب جسدها وتنفست بعمق كما طلبت منها مدربتها

– غمضي عنيني واسترخي.

وفعلت ما قيل ولكن بنصف عقل.

«حلیم إنت عاوز إيه بالظبط؟»

– الوقت يا مهجة، لازم تهزمي الوقت وتتصرفي أسرع من اللي
قدامك.

وبعدها دارت حولها ثم أردفت بنبرة أقل وأكثر تركيزًا:

– دلوقت مفيش غيرك إنتي وخصمك، ياتهزميه ياتهزميه.

ثم تابعت:

– الخسارة مينفعش يكون ليها احتمال في دماغك.

«مهجة أنا نفسي أفرح بيكي قبل ما أموت».

«بعد الشريا ماما».

ثم فاجأتها المدربة بأن دفعت بالوسادة المعلقة نحو وجهها فكادت تفقدها توازنها:

– تستعدي لكل حركة من خصمك، وتفاجئيه إنتي قبل ما يفاجئك.

ثم وضعت الوسادة أمامها لتبدأ الأخرى لكلماتها:

– يمين، شمال، أسرع، أسرع.

«إنتي أصلاً مش عارفة إنتي عاوزة إيه».

وبعدها أوقفت الوسادة بيدها، أخبرتها بلوم:

– مهجة إنتي مش مركزة في التدريب خالص.

وأردفت بكلمات واضحة بعدما أشارت نحو الباب:

– عودي نفسك بمجرد ما تدخل من هنا تسيبي الدنيا كلها برة.

ثم أخبرتها:

– خدي بريك وبعدين نكمل.

وحينها وضعت مهجة يديها على ركبتيها في محاولة لالتقاط الأنفاس،

تفوهت بشبه توصل:

– ينفع نكمل الكلاس الجاي؟

وحينها ربتت المدربة على كتفها الأيمن مجيبة عليها بابتسامة

متفهمة:

– مفيش مشكلة.

بدلت ملابسها وحملت حقيبة الظهر، وقبل أن ترحل توقفت

لتلمح طفل ينظر لها من بعيد،

إنه عُدي؛ هذا الطفل الذي تعرفت إليه منذ أسابيع وقد كان

بصحبة أمه، يبدو بعمر الرابعة وينتمي لأطفال الروضة الملتصقة
بأكاديمية الفنون القتالية خاصتها بالفترة المسائية.

بالمرة الماضية بالكاد مزحته وتعرفت اسمه، ومنحته قطعة
حلوى، ويبدو من نظراته لها أنه ما زال يتذكرها، انحنت أمامه ثم
أخبرته بمشاكسة:

– إزيك يا معلم، إنت فاكراني؟

أشار لها برأسه فسألته:

– طب إيه مفيش حضن وبوسة؟ مش صحوبية دي.

وابتسم لها الطفل ببراءة ثم اقترب منها ليمنحها أجمل قبلة تحرك
لها قلبها.

جميل هو، من الأطفال التي لن تنساها طيلة حياتك، ناعم البشرة
صغير الملامح وشعر «كيرلي» كبير نوعاً ما وعيون ملونة، باختصار
يجوز أكله. حلالٌ حلال، قبلته مهجة هي الأخرى ثم عادت تسأله:

– هي مامي فين؟

– في السغل (الشغل).

– والميس جوة؟

أشار لها بمعنى «لا أعلم» فاصطحبته من يده حتى داخل الروضة
وهنا كانت الكارثة.

مرت للداخل تفتش عن المكان المخصص للأطفال بعمره، ولحت
العاملة واقفة وأمامها على السرائر ما يقرب من عشرة أطفال رُضع
نائمين بعمق، وفي يديها قطارة تعطيهم عن طريقها بضعة نقاط من دواء
السعال ولا تعلم مهجة أنها تكررهما كل ساعة؛ كي لا يستيقظ أي منهم
قبل موعد استلامه.

ظنت العاملة أو «الدادة» أنها أم أحد الأطفال وخاصة بسبب

الصغير المتشبهت بيديها فارتبكت وارتجفت أصابعها. سألتها مهجة
بترقب:

– إنتي بتدبهم إيه؟

وزعقت بها الأخرى على عكس المتوقع:

– بقولك إيه هو إنتو ترموا العيال وأنا أشيل، مش بتستحملوا
عياط عيالكم وأنا مطلوب منهم استحمل كل دول!

شهقت مهجة وأمسكت بعلبة دواء السعال:

– دواء كحة!

والأخيرة أخبرتها:

– خليم يتهدوا شوية، زن زن نافوخي ورم.

زعقت مهجة حتى اجتمع كل من بالخارج على صوتها:

– أنا هوديكي في داهية، هما ولاد الناس لعبة! أهالهم سايبينهم
أمانة تقوموا تعملوا فهم كده؟ فين المدير اللي هنا أقسم بالله
لأوديكم في داهية كلكم.

وجذبها مساعدة المدير في محاولة لتهديتها وفشلت.

– تعالي بس قوليلي إيه المشكلة وأنا هتصرف.

استنكرت مهجة:

– تتصرفي! المكان ده لازم يتقفل، إنتو ناس معندكوش ضمير.

وزعقت أكثر:

– عايزة صاحب المخروبة دي.

والأخيرة أخبرتها بصوت خفيض:

– البش مهندسة بتول مش موجودة دلوقت.

وحاولت أن تخبرها بأن صاحبة الروضة لم تأت منذ عشرة أيام

لظروف صحية، وتتابع معهم سير العمل من خلال الهاتف، ولكن مهجة لم تكثر لَمْ قِيل، ولم تتحرك من المكان قبل أن تأتي صاحبته بعد ساعتين تقريباً.

اصطحبتها بمجرد قدومها لمكتبها ولم تهاجمها مهجة؛ لأنها كان يبدو على وجهها الوهن الشديد وصوتها كان مسموعاً لها بالكاد عندما سألتها عما حدث.

– أنا بتدرب هنا في المركز اللي جنبكم ودخلت بالصدفة ولقيت الدادة بتاعتكم بتدي الأطفال دوا ينيمهم لا وبكل بجاجة بتقولي اعملكم ايه؟ أنا لو ابني هنا اقسم بالله لكنك رفعت عليك قضية.

كان من الواضح أن السيدة تجد صعوبة بالتنفس ولكنها تتماسك، ضغطت على زر بجانبها ونادت على مساعدتها والمسئولة عن المكان ورغم ضعفها الشديد إلا أنها تمتلك من الرزانة والوقار ما يجبر كل من أمامها على احترامها، بررت لها مساعدتها:

– تلاقى عملت كده عشان سعاد مشيت فجأة زي ما حضرتك عارفة ومفيش بديل وهي أكيد مش ملاحقة على الأطفال و...

طرقت على المكتب ولا تدري من أين داهمتها القوة، ولكن ما سمعته كان فوق احتمالها:

– خدي بطاقتها وأديها حسابها ومشيتها حالاً وعرفها إن لو حد من الأطفال جراه حاجة أنا هسلمها للقسم بإيدي.

وأردفت بلوم:

– أغيب كام يوم تقوموا تخربوها كده، هي دي الأمانة اللي سبتهالك يا صفاء؟

والأخيرة كانت تخبرها ببيكاء:

– والله العظيم أول مرة أسمع عن الموضوع ده، الوقت ده

بيكون زحمة ومش بعرف اتحرك من الريسبشن وكمان أنا عمري ما تخيلت أنها تكون بتعمل كده.

ولولا أنها مساعدتها منذ أربع سنوات وتعلم أمانتها بالعمل لكانت طردتها هي الأخرى ورغم ذلك أخبرتها بتحذير بعدما سعلت عدة مرات:

– مش مسموح بأي غلط تاني سواء أنا موجودة أو مش موجودة ولو مش هتقدري عرفيني من دلوقت عشان أشوف حد غيرك.

والأخيرة نكست رأسها:

– هرکز أكثر حضرتك وهكون عند حسن ظنك وأكثر.

وأمرتها بالتحرك بعينها وبعدها سكنت في محاولة جديدة لالتقاط الأنفاس، شكرت مهجة بامتنان واضح:

– بشكرك جدًّا على أمانتك، لولاكي مكنتش هعرف اللي بيحصل

هنا من ورايا.

وأردفت:

– رغم إنك مش أم لأي طفل إلا أنك مسكتيش عن الحق، لوكل الناس زيك كان زمان حالنا أفضل بكثير.

ونهدت مهجة مصافحة إياها:

– لا شكر على واجب وبعندر لحضرتك عن عصبيتي وإني جبتك

لهنا وإنتي مريضة كده.

وأغمضت بتول عيونها في محاولة شكر جديدة ثم تفوهت ببطء:

– ممكن أطلب منك خدمة؟

هذا كل ما تحتاجه لتعرفه عن المرأة والرجل. النساء مجانيين، الرجال أغبياء، والسبب الرئيسي أن النساء مجانيين هو لأن الرجال أغبياء.

– جورج كارلين.

سهرة رجالية بحتة.

قهوة شعبية ورفيق ونرد «لعبة الطاولة» وشاي بالخمسينة وقهوجي يسأله بصوت خشن:

– أجيبيك شاي تاني يا هندسة؟

وأخبره حلیم في حينها:

– هاتلي معسل.

ثم ناداه:

– وشاي برده.

ورفيقه أخبره بينما كان يلقي بالنرد:

– شكلك ناوي تكسب عشان كده متقل في الطلبات، بس بعينك.

وأخبره حلیم بتحدٍ:

– ورينا شطارتك يا أخويا.

ورفيقه ابتسم بسخرية والسخرية كان لا بد لها من تهيدة قوية تشرح مدى عمقها وحقيقة مهما تجاهله كلاهما إلا أنها تظهر في أول بداية كل ضحكة أو ابتسامة يهربان عن طريقها من واقعهما.

سأله عماد صديق الكفاح بالكلية في جامعة القاهرة نفسها والعامل في محل تصليح هواتف حتى إشعار آخر:

– طب مش عيب اتنين شباب زي الورد خريجين كلية إعلام قسم صحافة يبقوا قاعدين كده على القهوة!

وأردف:

– بدل ما نروح نكتب مقال عن حادثة ولا حتى لقاء مع نانسي

عجزم.

نهره حلیم:

– متكلمش في السياسة يا بني انت.

وعماد سألہ:

– بزمتك عاجبك الحال ده؟ عدی شهور وشهور ومفیش أي

جديد.

وأضاف بضيق:

– تقديم، يمتحنونا، وبعدين...

والتتمة كان لا بد لها من صمت:

– فوت علينا بكرة يا سيد.

وقاطعه والحمد لله صوت رنين هاتف بجانبهم واستفرت فيهما الضحك فقد كانت لائقة بالموقف وكأنها رسالة موجبة.

«ارمي هموم الدنيا يا صاحبي، ايدي في جيبي وماشي براحتي».

أشار له حلیم بأرجيلته ودخانہ الذي نفثه في وجهه:

– سمعت؟ اخرس بقى.

ثم أضاف مقلداً – عم متولي بفيلم جاءنا البيان التالي – رفيق البؤس عبر الأجيال والأزمان.

– وعشان ملكش قراب مهمين، لازم كان يحصل فيك كده.

وقتها ألقى عماد النرد وأخبره بفرحة:

– كسبتك.

وأخبره حلیم مدعيًا الروح الرياضية:

– صعبت عليا بعد الكلمتين اللي قولتهم وقولت أعطف عليك.

سألہ عماد ساخرًا منه:

– يا سلام!

وأردف:

— طبعاً مهو تلاقيمهم بيقبضوك في البنك قد كده وكمان خاطب
ومحدثش قدك.

ثم سأله:

— مش عارفة واحدة زهها زي القمرو افقت عليك ازاى؟

ضربه حلیم ضربة على كتفه:

— ما تحترم نفسك يا بني، بتعاكس خطيبيتي قدامي!

والأخير برر:

— عيب يا بني، خطيبتك أختي، بس بجد مش فاهم لحد دلوقت
إنت طلبتها وو افقوا ازاى من غير ما تكون جاهز! قولي السريمكن
اتشجع واخطب الغليانة اللي قربت تخلل جني دي.

كالعادة حلیم لم يمنحه ما يرضي فضوله.

«رَخامة» لا أكثر.

— دي حاجة لو عرفتها تبقوا عُمَد.

وبعدها أشفق على صديقه فأخبره:

— لو بتحبوا بعض، اتكل على الله وزي ما تبيجي.

وبعدها شرد بحاله. صديقه يسأله عن وضعه وهو يتحدث عن
وضع آخر لا يخصه، بدأت الحكاية بصفقة عرفها عن طريق الصدفة؛
صفقة استفزت فيه كل ذرة من خلاياه، هو يعاني من أجل وظيفة
وعيشة كريمة مقبولة، يكافح ويمين من نفسه من أجل ألفين جنماً
هذا غير الخصومات والضرائب، وبلحظة وضعت هي أمام عينيه نصف
راتبه سيأتيه بالقليل جداً من الجهد.

مدللة ولعبة، الوضع مريح ومسلي للغاية، ومع الوقت بدأ الصورة
تتضح عن قرب، هي ليست مدللة كما رآها، بل غارقة في عقدة لا أول

لها ولا آخر.

مشكلة زوج شقيقتها هزت ثباته لن ينكر، من بعدها بدأ يعطيها بعض الحق فيما تفكر وتعيش.

أفكارنا ليست بصنع أيدينا، بل هي نتاج ما يفعله الآخريين من حولنا. أدرك وقتها أنها ليست جافة كما تبدو، بل تحمل من الحنان ما يغمر كل من بجانبها وحولها وكأنها أهمهم التي قررت حمايتهم من خطر وحدها تعرفه وتحذرهم منه، هشة ووحيدة وتحارب هذا الشعور عن طريق الهجوم.

يفهمها نعم، ولكنه رجل في النهاية وأفكارها يدرك أنها تشمله، ولا يهيمه ما تفكر به؛ فهو وهي شركاء بلعبة ولا يحق له التفكير بأي درجة من الجدية، ولكن هناك أشياء تخرج عن المسار. مسافات تتقلص بدعوى صداقة. تفاصيل تخصها تتسلل منها بعفوية.

جنونها عظيم.

انطلاقها حياة.

تفردا بطولة.

و... عيونها تلك الكارثة التي تشبه أغنية كلاسيكية تراقص عليها الغواني!

بعد ثلاثة أشهر...

لم نخطئ في الحب، لكننا تسللنا إلى قلوب ليست ملكنا؛ فكان العقاب مؤدياً جداً.

#نبيل_شاه.

وعقابه لم ينته بعد، رغم مرور ثلاثة أشهر وعدة أيام، لا يحادثها ولو عن طريق الخطأ، لا يأكل من يديها ولا يسمح لها بلمس ملابسها

وغرفته منطقة محرمة عليها.

أمام الجميع تزوجت نعم، زواج مع وقف التنفيذ، بل مهدد بالانهيار كل لحظة.

كل ليلة تمر عليها تتخيله يدخل عليها غرفتها، يلقي عليها يمين الطلاق ويأمرها بأن تجمع ملابسها وتذهب إلى الجحيم، ولكنه إلى الآن لم يفعل، ولم يصارحها بما سيفعل، أصبحت تدرك أنه يدخر لها شيئاً ما وستعلمه بالوقت الذي يراها ملائماً، ولا تملك سوى أن تنتظر مفاجأته.

خلال تلك الفترة نصب قوانينه الخاصة، التحدث معه ممنوع، التجول بالمنزل أثناء وجوده ممنوع والذهاب للعمل أو حتى خارج المنزل ممنوع.

إجازة مفتوحة من الحياة وحتى انتهاء عقوبتها.

وأبوها بات يعلم ما حدث هو الآخر بعدما صارحته بلحظة خوف أو يأس، ولا يلومه لا أحد بالعالم بإمكانه أن يلومه، هي من أَلقت نفسها في تلك النار بإرادة حرة، هي وأمها مسئولين عن تلك الكارثة ووحده هو الضحية، هم الجناة وعلى الجاني أن يتحمل عواقب ما يفعل.

سأله أبوها مرة برأس منكس إن كان يود أن يتركها فهو على استعداد للتنازل عن كل حقوقها، ولكن سيف لم يبالي بما يقوله، لم يتفوه بكلمة ولم يصدر قراره.

هم عليهم الانتظار ولتتأكل قلوبهم من الحيرة وهذا أقل عقاب يقدمه لتلك العائلة الكريمة وحتى يرتب حياته وأموره.

وهي على الرغم من بأسها الشديد واستحالة أن تنال عفوه وغفرانه إلا أنها ما زالت تأمل، تتمسك بآخر الخيوط، تتمنى تفهمه يوماً ما.

وتلك هي القلوب العاشقة تفتش بين المستحيلات عن آمالها

الواهنة.

لا تصدق أنها الآن بعد كل هذا الجفاء تقف بغرفته وهو نائم فيها، تتأمل جدرانها وتشتتم ملابسه في وجوده، تفعل كل هذا صباحًا في غيابه، ولكن في وجوده الأمر مختلف، الاشتياق أكثر واللوع أمرٌ والعذاب يصل لأقصى درجاته، حتى إنها نسيت تمامًا أن أمه تنتظره على هاتف المنزل، ولهذا السبب هي خالفت أوامره ودخلت. نسيت نفسها وعالمها وذنبيها في حقه واقتربت كي تشبع عينها برؤيته عن قرب.

تذكرت المرة الأولى التي أعدت فيها طعامه المفضل، أرادت أن يأكل من يديها ولو لمرة يتيمة، ولكنه فعل أكثر شيء يجيد فعله بالكون، التجاهل؛ تجاهلها وكأنها ليست موجودة، وتحرك نحو غرفته وحينها سألته بنبرة يائسة وصلت لأقصى مراحل الضعف وعدم التحمل.

– لحد امتي هتفضل تتعامل معايا بالطريقة دي؟

توقف يومها لينظر نحوها بغضب كان نتاج استفزازها له فأوضحت:

– لا بتاكل الأكل اللي بطبخه ولا بتفتح بقك بكلمة طول ما انت جوة البيت، لو انت مش طايقاني كده سايبني على زمتك ليه؟ وهو لم يجب عليها بسوى:

– والله ده اللي عندي واللي مش عاجبه يشرب من البحر.

كلما تفكر بأن تهرب وتعود لمنزل أبيها تتراجع، قلبها الساذج يخبرها بأنه ربما ينتهي غضبه عليها يواسيها ويطلبها بالصبر والتروي.

هي تعلم أنه محق بتصرفاته معها؛ لا تضع الحق سوى على نفسها فيما يحدث معها ولكنها كأى إنسان فقد حرته ويتمنى انتهاء محكوميتها يومًا ما.

بالطبع لا تتمنى رحيله من حياتها، ولكن انتهاء حكمه يتمثل في

مسامحته فإن كان تجاهله عقابًا فرحيله يعد بمكانة حكم إعدام لروحها ومشاعرها.

رفعت يدها وكانت ترتعد في طريقها للملامسة وجهه، يقتلها الشوق ويؤلمها البعد ويؤذيها نبذها من حياته، وبتلك اللحظة فتح عينيه المغلقة على صورتها أمامه. هل يتخيل وجودها أمامه؟ أم أنه قد حرمها على واقعه فتسللت إلى أحلامه؟ انتفاضتها ورجوعها خطوة للخلف على إثر استيقاظه هو ما جعله يخرج من تساؤلاته، لقد جاءت إلى هنا، دخلت غرفته المحرمة، تجرأت!

كادت تبكي من نظرتة الحانقة التي حرقها حية ثم رددت بارتباك:

– طنط على التليفون عاوزاك.

ترك فراشه وتحرك من أمامها فأردفت:

– عازمة خطيب إيمان وأهله على العشا وقالتي إننا كمان

هنروح.

لم يخبرها بأي شيء وكأنه أقسم ألا يأخذ أي ما تقول على محمل الجد أو... الصدق.

تحدث مع والدته بالقليل ويبدو أنها قد طلبت منه إحضار بعض الطلبات بطريقه فقد كان يسجل شيء ما بورقة. أغلق الهاتف ونظر نحوها في صمت فتساءلت:

– هنروح؟

وأكملت بتبرير واهٍ:

– أنا حابة أساعد طنط هي أكيد ملخومة في تجهيزات كتب

الكتاب والفرح.

وأضافت بتردد:

– بس لومش حابب إني أروح، زي ما أنت شايف.

ونفض من الأريكة ولسانه يردد على عجال:
- اجهزي.

عودة متأخرة نوعًا ما بسبب عملها الإضافي الذي أضيف على عاتقها، عمل رفضته أمها من باب المبدأ وعدم الحاجة، ولكنها لم تجد ما تفعله سوى أن تقبل خاصة بعد تمسك بتول البالغ بها، يومها سألتها:

- ممكن أطلب منك خدمة؟

ومهجة لم تتوقع قط أن تطلب منها الإشراف على الروضة لأن غيابها رغمًا عنها سيتكرر. أمأت مهجة برأسها ببداية رفض دبلوماسي:
- أنا طبعًا بشكر حضرتك على ثققتك بس أنا بشتغل أوريدي ومفيش وقت بجد.

ولم تياس الأخرى من إقناعها:

- مش مطلوب منك وقت طويل، ساعتين تلاتة كل يوم، أنا من الصبح هركب كاميرات وهتابعها من البيت، بس.
وأضافت:

- بس الموظفين محتاجين يشوفوا حد بيتابع بشكل يومي وإلا إنتي بنفسك شوفتي الكارثة اللي حصلت.
ثم أمسكت يديها وتلك المرة بتوسل:
- لو سمحت، حاولي.

ومع إصرارها الشديد لم تستطع الرفض، قبلت ويومها زرع بداخلها رهبة ما زالت لم تفارقها إلى اليوم. رهبة تصاحب حجم المسؤولية، الثقة التي وضعتها بالكامل فيها، وصداقة نشأت بينهما خلال الأيام.

رغم أنها قد قبلت الأمر في البداية كتجربة وكوضع مؤقت إلا أنها مع الوقت قد انسجمت معه، بل وأصبحت تنتظر تلك السويغات بفارغ

الصبر بسبب الأطفال وارتباطها بتول. تقربت منها، هناك أشخاص تقابلهم في حياتك فجأة، وتنسى أنك قد تعرفت إليه في فترة قصيرة، وكأن الأرواح انسجمت مسبقًا في عالم آخر.

تلك السيدة رغمًا عن معاناتها تمتلك أجمل ابتسامة وأكبر رضا، كلماتها قصيرة، ولكنها بالغة الأثر.

ترشق بالقلب مباشرة فتحتله، ومؤخرًا أصبحت تزورها بالمنزل، تروي لها مستجدات العمل وتتحدث معها بأي موضوع يخطر ببالهما، وتلك قمة المتعة.

تخرج من عندها خفيفة، وحتى ولو كانت لم تشاركها أي تفاصيل تخصها، في البداية لم تخبرها عن حليم مثلًا، لم تسألها عن ماهية الشيء الذي تفعله رغم أنها تحب أن تأخذ رأيها بكل المواضيع التي تطرأ على رأسها وحتى الآراء السياسية؛ وذلك لأنها لا تحبذ أن تكون محور أي حديث يخصها.

الفكرة نفسها توترها، ولكن مع الوقت اندمجت معها لدرجة أن روت لها عن حليم وقصة الخطبة المزيفة وأثارت فضول وقلق الأخرى عليها.

دخلت للمنزل والإجهاد يصاحبها، تشتهي رؤية فراشها فتلقي بجسدها عليه بعد حمام دافئ يحتوي عضلاتها، وبمجرد أن دخلت للمنزل وجدت منال تجلس في حضن أمهما وتبكي، وبعدها رمقت الحقيبة خاصتها بجانبها، لم تسألها عن شيء وأساسًا هي كانت ستخفي عنها.

منذ آخر مشكلة ومنال تحاول قدر الإمكان إزالة نادر من بينهما حتى لا تتوتر علاقتهما مرة أخرى.

لا تذكره بالإيجاب أو السلب، ومهجة أيضًا تعاملت على أنه ليس موجودًا بالوجود، والآن أيضًا ستفعل.

– أنا مش قادرة هموت و أنام، تصبحوا على خير.

تهدت منال، حمدًا لله لم تسألها، لا تعلم بماذا كانت ستكذب عليها، لن تستطيع إخبارها بالحقيقة وإشعال النار مرة أخرى وهي أساسًا مشتعلة.

نادر يُصر على إنجاب طفل آخر بأقرب وقت وهي ليست على استعداد بتكرار التجربة، بالإضافة إلى أن ابنتها ما زال صغيرًا للغاية وبحاجة إلى رعاية، وهي أيضًا صحتها لن تسعفها على ذلك في الوقت الراهن.

جميعهم عاشوا معها معاناة الحمل فكيف يطلب منها تكراره بعد أشهر قليلة، نشب شجار عالٍ بينهما انتهى بأن حضرت حقيبتها وحضرت إلى منزل أمها، أوصت أمها بصوت خفيض كي لا تسمعها أختها:

– ماما مش هوصيكي متحكيش لمهجة أي حاجة.

وحينها قالت أمها بعيون دامعة:

– وأنا اتجننت عشان أحكيلها؟ ساعتها مش هتسكت إلا لما تخليكي تتطلقني منه وإحنا ماصدقنا إن المية بينك وبينها رجعت لمجارها.

قالت منال بخوف:

– المرة دي الموضوع كبير، شكله كده مش هيتحل، نادر مصمم قوي مش فاهمة ليه كان حد يبجري ورانا، واللي على لسانه إنه مش عاوز عياله يبقوا لوحدهم في الدنيا وإنه عاوزهم عزوة يتسندوا على بعض.

وأردفت بحرقة:

– وأولع أنا بقى!

وقالت أمها سريعًا:

– بعد الشرع عنك.

ثم أضافت:

– أنا ليا كلام معاه، هو فاكر إنه عشان ملكيش راجل يقفله
هيحكم ويتحكم؟ ليه هو إحنا مستغنين عنك بعد الشر!

وتوسلت لها منال:

– طيب كلميه بس بالراحة يا ماما مش لازم خناق يعني.

وقتها خرجت مهجة من الغرفة وكانت لم تبدل ملابسها؛ فقد
استبدلت حذاءها بأخر رياضي، أخبرت أمها بابتسامة:

– أنا هنزل أجيب حاجة من تحت، محتاجة حاجة؟

أشارت لها أمها بالنفي وبعد خروجها انتهت لمنال تسألها:

– مسمعتش حاجة مش كده؟

وأما قالت ببديهية:

– لو كانت سمعت كانت هتسكت مثلاً؟ منتي عارفها بوتجاز.

قدماها تتسابقان على التحرك، وكأنها ليست تلك التي كانت تحلم
بفراشها منذ دقائق، الدمعة التي رأتها بعيون شقيقتهما بسبب هذا الوغد
هي آخر قشعة. استقلت أول سيارة أجرة قابلتها، أغمضت عيونها محاولة
السيطرة على أعصابها ونجحت.

بشكل ما ممارسة «الكيك بوكسينج» جعلت ردود أفعالها أهدأ.
أمرت السائق أن يتوقف أمام منزله، هاتفته:

– أنا تحت البيت، إنزل عاوزاك.

هكذا أخبرته ثم أغلقت الهاتف وبقيت في انتظاره أمام الكراج، نزل
سريعاً وعيونه تتساءل قبل لسانه:

– منال حصلها حاجة؟

دخلت لداخل الكراج وهو تبعها، تنفست بعمق ثم أغمضت عيونها وكانت تشعر بأنها في جلسة تدريب والمدربة تلقي القواعد على أذنيها، ولكن تلك المرة التدريب على الهواء مباشرة والخصم تشتهييه وبشدة. لم يفهم متى اقتربت منه وانقضت عليه لتلصقه على الجدار، وذراعها على رقبته في وضع خانق شل حركته بينما تخبره بوعيد:

– إنت متستاھلش ضفرها.

ووجهه يحمر ويختنق ويحاول التملص منها، ولكن معها بالذات هو أجبن من المحاولة حتى، وخاصة مع ثباتها الانفعالي الرهيب؛ فقد كانت على علم ويقين بكل حركة تفعلها، وكل كلمة تخرج من فمها. أزدادت من ضغط ذراعها ولم يعد يحتمله فحاول دفعها فركلته هي في المقابل؛ ركلتين بالمعدة وأخرى من بين فخذه والثالثة كانت لكمة في وجهه.

– مع الأسف هي مقررة تكمل معاك، بس عارف ده معناه إيه؟
كان يتأوه ألمًا ووضع يديه على فمه وأفزعه إثر الدماء على أصابعه.
– تحطها جوة عينك.

وأردفت بوعيد:

– وإلا المرة الجاية أقسم بالله ما هسيب فيك حته سليمة.
كانت سترحل ولكنها عادت إليه ومنحته لكمة أخرى:
– ودي بقى عشان متحكيش لمنال على اللي حصل دلوقت.
وأضافت بابتسامة جلية:

– حتى عشان شكلك مايقاش وحش قدامها.

الفصل الرابع والعشرون

(ما تفوتنيش أنا وحدي...)

عزومة بسبب عودة «محمود جمال» من بلاد الغربية بالسلامة حتى يتم زواجه بعد أيام قليلة من «إيمان» كريمة «آل عمران» ربة الصون والعفاف.

عشاء معتبر يحمل من الأصناف ما لذ وطاب، وما يدمر أي حمية غذائية باستحقاق وعن جدارة، أخبرتهم أمها بقسم مشدد:

— هو الحلومش عاجبكم ولا ايه؟ يمين تلاتة ما انتو قايمين قبل ما تخلصوه أنا عندي بنات وعاوزة أجوزهم.

مقولة شاعت منذ القدم ونصيحة ألا تترك طبقًا أو كوبًا قبل أن تنهيه ما دمت في منزل يقطن به فتاة أو فتيات لم تزوجن بعد حتى لا تسبب لهن بسوء الحظ والعنوسة، ولينفجر المعدة وليتضخم القولون وليزداد الوزن عدة كيلوجرامات أخرى لا يهم، المهم ألا تخالف المتبع وتدمر مستقبل فتيات المنزل، ولهذا أرغم كل فرد نفسه على إكمال طبقه ولأنه لا يمكن مقاومته أيضًا.

«حجج فارغة!»

دخلت إيمان للمطبخ حاملة أطباق الحلوى الفارغة فأخذتها ريم من يديها رغم إصرار الأخرى على أن تقوم هي بغسلهم.

— والله ما يحصل إنتي عروسة.

شردت إيمان بها قليلاً ثم أخبرتها:

— تسلمي يا ريم بجد عقبال ما نتعبلك في ولادتك قريب.

ابتسمت ريم بسخرية لم تنتبه لها الأخرى فقد شردت مجددًا في فاجعتها الكبرى وورطتها التي لا ترى أي مخرج منها.

- ما لك يا إيمان؟
ثم تركت الطبق الذي تقوم بغسله وأردفت:
– مش عاجباني خالص النهارده.
ابتسمت إيمان وكانت ابتسامتها هروب.
– أنا هطلع بقا عشان عيب أسيب الناس برة لوحدهم.
خرجت وقعدت بجانب حماتها في خجل واضح وحينها تفوه محمود:
– أنا هعدي على المأذون في طريقي عشان أسأله على التفاصيل،
اديبي بطاقتك احتياطي عشان لو احتجناها في حاجة.
وعندما لم يجد منها إجابة سألتها:
– إنتي لسه ملقيتهاش من يومها؟
أشارت برأسها نافية فسألتها أمها:
– هي بطاقتك ضايعة!
وأجابها محمود:
– بقالها يومين...
ثم وجه حديثه لإيمان:
– أما لقيتك متكلمتيش في الموضوع من يومها قلت أكيد لقيتها.
سأله أبوها:
– انتوكده هتأجلوا كتب الكتاب ولا ايه؟
وامتعضت ملامح العريس:
– لا نأجل إيه! دي كل حاجة اتحجرت خلاص وأجازتي كلها
شهرين عُمي.
نهرتها حماتها العزيزة «بالمستحي»:«
– ودي حاجة تضيع في وقت زي ده يابنتي، ده كلام برده.

تدخل سيف حتى لا تكون شقيقته في موضع اتهام بالإهمال مدة أطول:

– أنا بكرة هاخدها السجل المدني وأشوف أسرع طريقة نطلع بدل فاقد.

وأردف بثقة كي يطمئنهم:

– مفيش حاجة هتأخر عن معادها إن شاء الله.

لتغمض إيمان عيونها، لا مفر من الحقيقة، ستتكشف مهما ماطلت وتهربت، وستنقلب الأوضاع رأساً على عقب وعلما هي أولاً.

وحتى إن أمها كانت ترمقها بتعجب، لم تخبرها عن ضياع هويتها والآن بدأت تلاحظ أن تعبيرات ملامحها غريبة وتلك الحاسة السابعة لكل أم، وفي ذهاب سريع للمطبخ جاءت رويتر المنزل أو توتة بالخبر اليقين الصادم:

– أبله إيمان مخبية البطاقة تحت المرتبة بتاعتها.

ولا أحد يسأل بسنت عن مصادرها ولا هذا وقت مناقشتها في أي شيء، هناك كارثة على الطريق وتراها بوضوح. تسللت للغرفة دون أن ينتبه أحد مستغلة انشغال الجميع بتبادل الأحاديث بالصالون، قلبت فراشها وفتشت في كل جوانب مرتبة سريرها، وفي النهاية وجدتها، أمسكت الهوية بين أصابعها بدهشة وصدمة بالغة. لماذا تخفيها؟ بل والسؤال الأقرب والأوقع والذي لا بد له من إجابة فورية «لم تهرب من الزيجة؟»

خرجت والهوية في يديها وما زالت في حالة صدمتها، تبادلت عدة نظرات متوترة مع ابنتها سرعان ما تجاوزتها بأن منححتها لخطيب ابنتها مرددة بصوت مختلف الوتيرة تارة مرتفع وتارة منخفض ليعكس تناقضها الحالي الداخلي ما بين احتواء الموقف، وبين صدمتها فيما

حدث ومحاربتها للأفكار التي تتلاعب برأسها الآن.

– لقيتها جوة أوضتي مش عارفة إيه اللي جاها عندي.

تهدت أم العريس وقالت بفرح:

– المهم إنك لقيتها يا أم سيف.

ونفض العريس ليأخذها من حماته ثم تبعها بقوله:

– يادوب بقا نمشي.

أخبره والد سيف:

– ما انتوقاعدين يا بني.

ومحمود قال في عجال:

– يدوب ألحق المأذون قبل ما يمشي.

وقام الجميع بإيصالهم حتى باب المنزل عدا هدى؛ كانت في انتظار رحيلهم حتى تخبر ابنتها الواقعة مقابلها كطفلة في الروضة تنتظر عقاب أمها.

– فيه حاجة عاوزه تقولها لنا يا إيمان؟

والسؤال تكرر، ولكن تلك المرة بنبرة أعلى وبعد أن اقتربت منها وشدت ذراعها ناحيتها بقوة ألمت قلبها قبل ابنتها:

– فيه إيه يا إيمان اتكلمي ما توجعش قلبي.

واقترب سيف منهما وكان لا يفهم أي شيء كالبقية، كانت السهرة طبيعية إلى حد كبير وخرج الضيوف من منزلهم مبتسمين فما الذي حدث كي تكون أمه على هذا القدر من الغضب!

صرخت برضوى ابنتها:

– خدي اخواتك وادخلوا جوة يلا...

ثم اقتربت من إيمان وسألتها بكل وضوح:

– مخيبة بطاقتك تحت المرتبة ليه؟

– إيه؟

وكان سؤال أبيها والذي شعر وكأنه سقط من فوق جبل فجأة ومازال لم يستوعب ذلك،

نظرت إيمان نحوه بعيون دامعة ثم سقطت على الأريكة باكية بينما تردد مكثفية:

– عشان خفت يسيبني!

والبداية كانت منذ عام ونصف، كانت للتو خارجة من تجربة خطبة فاشلة، ورغم أنها كانت هي التي قد أنهت أمرها إلا أنها عاشت ضغطاً يتمثل في نظرات من حولها؛ لأنها ثالث خطبة لها ولم يكتب لها الاكتمال، انزوت على نفسها ودخلت في عزلة، ابتعدت عن كل المقربين منها، تهرب من أصدقائها ومن كل حياة تحاوطها عن طريق المسلسلات الطويلة والنوم.

تسهر علي هاتنها والعالم في سباته وتنام بمجرد استيقاظهم من جديد. عكست قوانين الكون ودخلت فوقعتها بإرادة حرة ولم تخرج منها إلا بعدما دخل هو لحياتها.

علمت أنه قد رآها مرة في حفل زفاف ابن عمه وصديقها التي تعرفت إليها منذ سنوات عن طريق الفيس بوك وباتت أكثر من شقيقة لها، ترددت فترة قبل أن تخبرها بموافقها، تلك الخطبة الرابعة لها وإن لم تكتمل ستكون تأكيداً لم يُنطق على عيب ما فيها يجعل كل الرجال يهربون منها، ستتدمر نفسياتها المتعبة وستزداد نظرات الخلق إيلاًماً لها. ستنتهي تماماً.

ووافقت ببساطة؛ لأنها تحتاج أن ينتشلها من كل هذا. وافقت

وخرجت إلى الحياة بطاقة وتفاؤل تجدد بعد إتمام الخطبة.

وبعد ثلاثة أشهر تقريبًا من استقرار منحى سعادتها وظنها أن الأمور على خير ما يرام فوجئت أن عُمر خطيبها أصغر مما أخبرتها صديقتها بعام كامل وهنا كانت بداية الأزمة، فكرت ربما لأنه لم يسألها عن عمرها قط فمؤكدًا هذا بسبب ظنه أنها بعمر زوجة ابنة عمه وصديقتها والتي لم تكن وقتها قد تجاوزت عمر الثلاث والعشرين، وعقلها يخبرها إن هو كان بعمر السابعة والعشرين وولد في شهر مارس فليس هناك مشكلة؛ لأنها من مواليد سبتمبر أي يكبرها بستة أشهر، ولكن بعد هذا الخطأ الفادح باتت هي الأكبر عمرًا ومن حقه أن يعلم.

يوافق أو يرفض.

ظلت فترة بعدها تتهرب من مكالماته وتتحجج بامتحانات الدراسات العليا خاصتها، والحقيقة أنها تتهرب من نفسها، لا تقوى على قرار أن تتركه من أجل كرامتها فتدهسها أكثر بعدما تسجل خطبة جديدة في دفترها.

خطبة أخرى ستنتهي وينتهي معها كل آمالها في الاستقرار والحب والأسرة والذرية،

وإن صارحته لن يختلف الوضع كثيرًا.

إذا رفض ستنتهي كل آمالها ليس بالزواج وفقط بل بالحياة بأكملها وإن أكمل شهامة منه كيف ستتحمل هي إن أخبرتها حمايتها أو أي من ذويه يومًا ما بعد الزواج بأنه قد تنازل وتزوج من تكبره بالعمر وعليها أن تحمد ربها وتشكره لأنه قد تكرم عليها، أو أخبرها بهذا بنفسه ذات مرة في لحظة غضب، لن تتحمل كلمة كتلك أبدًا وستقتلها قهرًا.

وظل الوضع مائعًا يحتاج شجاعته التي لم تحضر، كانت في انتظار أن يسألها عن عمرها مرة حتى ينتهي كل شيء ولكنه لم يفعل، أجلت الأزمة ومع الأيام كبرت وازدادت صعوبة وارتبطت هي به أكثر وارتبط بها.

بات الاعتراف بما تخفيه وتخافه أملاً بعيداً تنشده وتتمناه ولا تستطيع فعله، حتى وصلت إلى هنا، عقد القران بعد يومين ويليهِ الزفاف.

كيف تسربت الأيام من بين أصابعها هكذا لم تفهم، محاولتها لإخفاء هويتها كان تصرف خرج من دون وعي كامل منها، مذنب يحاول أن يؤجل عقابه قدر الإمكان ويعلم أنه سيناله بنهاية المطاف، ولكن وقبل أن تقوم بوأد أحلامها عليها أن تقف بكل تماسك وتقدم مبرراتها وكشف حسابها، على الأقل هو وأهلها يستحقون هذا التبرير.

وبعدما انتهت من سرد حكايتها كان سيف يسألها بوجه واجم ونبرة حزينة مصدومة بشقيقته وما فعلت:

– إنتي يا إيمان عملي كده؟

وأردفت بتثاقل وكأنه لا يريد أن تخرج تلك الكلمة من فمه، ولكنها الحقيقة وما أصعب الحقائق تلك الأيام:

– تخدعيه! ليه يا إيمان وعشان إيه؟

أجابته باكية:

– خفت.

وأردفت بدموع كانت تعتصر داخلها:

– الناس كانوا هيقولوا عني إيه.

وهو أجابها بنبرة أعلى ارتعش لها جسدها فزعاً:

– ملعون أبو الناس اللي عملي كده عشانهم.

وشعرت أمها بالدوران فأمسك بها زوجها وأسندها وتمنى أن يجد من يسانده في مصابه ويجعله يصدق ما سمعه من ابنته. احتار بين غضبه منها، وبين حزنه على ما سمعه منها من مخاوف وخواطر بشأن المستقبل جعلتها تقلب حياتها رأساً على عقب، بينما الغاضب الآخر ما

زال لم يستعب مبرراتها، عقله يفكر بالآخر الذي قامت بخداعه، نسخة أخرى منه واستعاد معه غضبه وفورانه وهذا الشعور البغيض الذي يحاول أن يتناساه كلما تذكر أنه كان مجرد لعبة في يديها.

كيف فعلت شقيقته هذا! كيف سمحت لنفسها بأن تخذعه، كان كبيراًؤها أهم من أي شخص فما الذي جد وماذا حدث؟

صاح بها بينما كان يرمق خاصته بنفس النظرة:

– أنا مش فاهم، انتواتجننتوا ولا جرالكم لدماغكم حاجة.

نكست ريم وجبها وسالت دموعها التي كانت تكبتها فهي الوحيدة التي تعلم شعور إيمان وماذا عاشت حتى تفعلها، وحتى إن تلك المواجهة وتلك اللعنات والاتهامات التي تحملها نظراتهم قبل ألسنتهم تشعر أنها موجهة لها هي.

نهضت شقيقته من على الأريكة وأمسكت هاتفها مرددة بعصبية نبعث من ضغطه على أعصابها التي ستنفجر بالأساس:

– كفاية يا سيف، هكلمه وهقوله يرجع ياخذ شبكته، هقوله قبل ما يعرف لوحده وهو حر، حلوكده؟

وقال سيف باستنكار بالغ:

– جاية تعترفيله بعد إيه؟

ثم أكمل بضيق وشعر أنه يختنق:

– بعد ما فات الأوان.

لم تتحمل ريم كلماته فأخبرتهم بصوت خفيض:

– أنا هروح أشوف البنات.

أوقفها سيف بعدما أخذها من يديها وتحرك باتجاه الباب بينما لسانه يردد:

– أنا ماشي، تقويله ما تقويلوش براحتك.

وصفق الباب خلفه فهربت إيمان إلى غرفتها هي الأخرى، ظلت تبكي لما يزيد عن ساعة وبعدما شعرت أن قلبها انفطر وجفت دموعها أمسكت هاتفها بأصابع ترتجف واتصلت بخاطبها عدة مرات، ولم يُجب على مكالماتها.

حالة توتر عامة بالمنزل، شد وجذب، أسئلة لا تنتهي عن رد فعله الذي لا تعلمه بعد، هذا غير رأسها الذي لا يرحمها في حال تركوها وشأنها، هو لم يجب عليها البارحة ولم يتصل مجددًا، وهذا لا يفسره أي شيء سوى أن كل شيء بينهما قد انتهى.

أمسكت هاتفها بعصبية تتفقدته مجددًا ككل دقيقة، لم يجب عليها ولكنه متاحًا على الإنترنت،

أغمضت عينها بيأس ثم أرسلت له رسالة على الواتس أب:

– شوفت البطاقة صح؟

والغرابة أنه شاهد الرسالة والآن يكتب رسالة إليها هو الآخر وقد تأخر في كتابتها فعلى ما يبدو أنه يحتار فيما سيقول وينتقى كلماته، وبعد دقيقة كاملة وجدته استبدل ما أراد قوله بكلمة واحدة:

– شوفتها.

لتتألم كرامتها ويوجعها قلبها، قررت أن تقول ما أراد قوله عوضًا عنه وترفع عنه حرج الموقف.

– محمود أنا جهزت شبكتك، تقدر تيجي تاخذها في أي وقت.

الفصل الخامس والعشرون

(من الخوف ما قتل...)

(إن أخطر ما يهدد حريتنا ليس السجن، ولكن مشنقة
في داخلنا اسمها القلق)

—مصطفى محمود—

والقلق استبد بها، امتلكها وأسرها وعى عيونها، حرمها السعادة والراحة ومنحها عوضاً عنهما التوتر والجبن، والجبن منعها من اتخاذ أي رد فعل ربما كان يطفى نار حيرتها، فضلت الصمت فصمتت للأخير، اصطفت تأجيل الأزمة حتى إشعار آخر فوضعت نفسها في مأزق أكبر دون داعٍ بشهادة كل من حولها. أخبرتها أمها يوم عرفت بأمر الهوية وهاجس فاروق العمر بينها وبين خاطبها أنها عزيزة لديهم، وكرامتها يجب وأبداً أن تكون فوق الجميع وفوق أي اعتبار.

وماذا عن من حولنا يا أمي؟

وكان جوابها «فليحترق العالم وتبقين أنت».

وحينها ترددت، تشوش تفكيرها بدرجة فاقت احتمالها. لم تخبرها أمها تلك الكلمات مسبقاً، ربما لو قرأت تلك الكلمات في عينيها مرة ما كانت عانت كل هذا العناء، ما وصلت لتلك المرحلة ووضعت مصيرها وربطته بين يدي رجل.

حسناً هي لم تجربها على أي شيء بحياتها، كانت تتقبل قراراتها بصمت، ولكنها لم تُخف عنها حزنها في كل مرة تفسخ بها خطبة ولم تطمس معالم اختفاء الفرح من حدقة عيونها. قالتها بعد أن فات الأوان برأيها، فلقد تدمر كبرياؤها وانتهى.

ظلت في انتظار قراره، أن ترى تمسكه بها في أول محطة وأول اختبار

حقيقي لهما، أن ينتسلاها من قلقها بشأن تركه لها ويُعلن أن أفكارها ما هي إلا أوهام احتلت رأسها وحدها، ولم يفعل.

صمت، تغير عليها، لم يجب على اتصالاتها ومع ذلك تنازلت خطوة أخرى، خطوة تمثلت في رسالة رأت بعينها تردده في الإجابة عليها، خطوة جديدة تمثل تنازل آخر فكان الأخير.

اشترت كرامتها وأعلنت الفراق بعد أن أخبرته بأن يحضر كي يأخذ شَبْكَتُهُ ولتبقى أحزانها وخزيها بصدرها وحدها، لن تهين نفسها أكثر من ذلك، أرسلت الرسالة وأغلقت الهاتف ومعه باب غرفتها ودخلت للوقعة من جديد، بل وندمت أنها قد خرجت منها بسبب وهما أسموه «الأمل».

والخوف والأمل عدوان، يتصارعان كي يبقى أحدهما بعد أن يقتل الآخر، وهي خوفها لم يمت رغم تراجعها في بعض الجولات فكانت له ضربة النهاية.

مر يوم كامل بصباحه وليله، ولم تخرج من الغرفة، ولم تضع الأكل بفمها إلا بعد أن أرغمتها أمها. نامت بأحضانها تلك الليلة، واستيقظت وكانت أقوى، وضعت ابتسامة متجاهلة لكل شيء على شفرتها، ابتسامة ستنسى بها أن اليوم هو كان المقرر لعقد قرانها، وأن الغد كان حفل زفافها وبهجتها واليوم الذي تنتظره كل أنثى.

ستتعامل وكأنه لم يحدث شيء، إنها بخير، وتعلم داخلها أنها ليست كذلك، حتى إنها عازمت أن تعطيه أغراضه بنفسها وقت مجيئه وبرأس مرفوع، ستره عكس ما تحوي، ستهر الجميع وأولهم نفسها، وظلت بانتظار تلك اللحظة كل دقيقة وكل ثانية.

طرق أخيها عليها الغرفة ودخلت ولاحظت أنه أهدأ كثيرًا عن البارحة، وكأنه ترك عواصفه بالخارج من أجلها وحينها شعرت أن اللحظة قد حان موعدها وربما محمود ينتظرها بالخارج الآن.

نهضت وكأنها تبهى نفسها ولكن سيف أشار لها بالقعود، قعدت على استحياء ولم تخرج من شفيتها كلمة بسبب خجلها منه ومن الموقف الذي وضعتهم فيه جميعاً، وهي مسحت الدمعة التي سقطت من عيونها وقالت وكأنها تنفي رؤيته لها. صمت قليلاً ثم أخبرها:

– غلطتي.

وهي أجابته بقولها:

– غلطت ومعترفة.

ثم أردفت بعدما تجددت دموعها من جديد:

– بس أنا عاوزاك تعرف حاجة، والله لو كان سألني مكنتش هكذب عليه، بس هو مسألش.

وهو احتار، اختلطت أفكاره، لا يدري أيصدها ويقف بجهة شقيقته التي يعلمها أكثر من أي شخص بالحياة! أم يساند الآخر الذي كان مرآة له ومهما فعل سيتفهم مشاعره ويقدر إحساسه، ولكن ستظل في النهاية هي التي أخطأت بتفكيرها ووجهة نظرتها للأمر برمته قبل أن تخفيه عنه، أوضح لها:

– إنتي غلطتي لإنك خبيتي، لإنك وطيبي راسك وخفتي، 6 شهور مش حاجة كبيرة تقفوا عندها، كان لازم تقويله وهو لو شايف إن دي أزمة تبقى المشكلة فيه هو مش فيكي، لكن انك تخي عليه وكمان تخي بطاقتك خلاكي تتحطي في الخانة دي.

ثم أضاف ليضع ما فعلت أمام عيونها:

– عارفة إيه الخانة دي! إنك خدعتيه و اتعمدتي ده وبصراحة أي حاجة هيعملها دلوقت هيكون حقه وهتكوني إنتي السبب فيها.

رفعت رأسها نحوه تتأمل كلماته فأردفت:

– كان من حقه يعرف وقراره وقتها ماكانش هينقص منك، لو

فكرتي فيها هتلاقي إنك في الحالتين كنتي هتكوني كسبانه.

رددت خلفه:

– كسبانه!

أكد لها:

– أيوة كسبانه، لو سابك للسبب ده يبقى هو مش شاربيكي من الأول و إنتي نفسك مش فارقة معاه ويبقى ساعتها خسارته مكسب.

وأكمل كلماته:

– ولو اتمسك بيكي هتبقوا على نور من الأول وهتتأكدي إنه الإنسان المناسب ليكي وهتعرفي مكانتك عنده.

والتمتة كانت لها الأثر القاتل:

– لكن اللي عملتيه ده خلاكي لا تطولي سما ولا أرض، وقفتي في النص ويا ريت بس كده، إنتي قللتي من نفسك قوي يا إيمان.

ازداد بكاؤها مع كلماته التي صفعها بما فعلت في وجهها فاقترب منها واحتضن رأسها بينما يردد:

– لازم تعرفي وتتأكدي إنك غالية قوي.

تذكرت محمود فأجابته من بين دموعها:

– ده عندكم إنتو بس.

أمسك وجهها بكلتا يديه كي تواجه عينيه وكأنه يناشدها بأنه يجب أن تكون أقوى من تلك التي تقعد أمامه بكثير:

– أما تشوفي نفسك غالية وكبيرة كل الناس هتشوفك كده.

وأردف متسائلاً:

– تمام؟

وأقرت بعدما تمهدت:

– تمام.

مسح دموعها قبل أن يخرج من الغرفة فنادته:

– سيف.

نظر نحوها فأخبرته:

– شكراً.

ابتسم لها ولم تحن الفرصة كي يجيها فلقد داهم هاتفه اتصالاً وكان من محمود. أغلق الباب من جديد ففهمت هوية المتصل وما يريد، صاحت:

– متردش عليه، أنا محضرة حاجته وقت ما يحب يجي ياخدها.

تجاهل سيف ما قالت، قعد على حافة السرير بجانبها، بدأ وأنهى مكالمته وهي شاردة في أفكاراً ترسم بها العديد من السيناريوهات الحزينة والتي تليق بالمشهد، انتهت له يقول:

– مش عارف يوصلك من امبارح، ومخرج يجي البيت.

أخبرته بصوت متحشرج:

– لو مخرج يجي نبعثله حاجته، زي ما يحب.

قال بنبرة أعلى وشاها بعض العصبية:

– عاوز تتكلموا يا إيمان ومستنيكي في مكان برة، وحقه.

وأمرها:

– قومي البسي وأنا هوصلك وهستناكي في العربية.

ولم يترك لها مجالاً للرفض، بل هي التي لم تترك لنفسها القرار من البداية، الأمر والنهي والقبول والرفض في يد محمود من الآن.

وصلت للمكان المنشود، تحركت بآلية وكأن عقلها فقد تركيزه

واتصاله بجسدها، لو سألتها لن تتذكر متى ارتدت ملابسها وبماذا كان شاردة في سيارة أخيها وكيف وصلت إليه؟

إليه!

وكأنها أدركت للتو أنها قد وصلت. رؤيته لها جعلتها تستعيد جزءاً من وعيها، وعددها لنفسها بأن تواجه الموقف بشجاعة هو ما نبه عقلها للحضور، جذبت المقعد الذي يقابله وفركت أصابعها في توتر منتظرة أن يبدأ حواراً بأسرع وقت ممكن.

أمر النادل بأن يحضر لها عصير الليمون بالنعناع الذي قامت بطلبه في كل المرات التي قاما خلالها بالالتقاء بعد الخطبة مباشرة وقبل سفره، ارتشف القليل من قهوته وسألها:

– ممكن أفهم؟

وحان وقت سؤالها وكانت تنتظر إجابته كما ينتظر الطالب نتائج امتحاناته:

– ولوفهمت، هتفرق؟

– أكيد.

خرجت من فمه بكل ثقة انتقلت إليها بالتبعية، ولكن ومع هذا كانت ما زالت تبحث عن بداية لما ينتظره من شرح للموقف.

ساعدها بقوله:

– مقولتيش ليه؟

قالت بدورها:

– إنت مسألتيش.

وأضافت:

– ودعاء كانت قايلالي سنك أكبر بسنة وأما عرفت كان عدي على

خطوبتنا وقت وبصراحة خفت.

التقط من بين كلماتها الأخيرة:

– خفت!

أكدت له:

– أية، خفت كل حاجة تبوظ بعد ما بدأت حياتي تتعدل أخيراً،
خفت إنك وأهلك متقبلوش إنك تتجوز واحدة أكبر منك، حتى لو
الفرق شهر واسمها أكبر منك.

وأضافت بدموع حية خرجت من سطوة عينها:

– خفت تسييني وخفت أخسرك.

وأتمت دون أن تنظر للامحه وكانت خجلة:

– أنا مش بقولك ده عشان أصعب عليك ومتسبينش، أنا بقولك
ده عشان من حقك تعرف إنه مكانش قصدي يحصل كل ده.

وما زالت تتحدث وغائبة عنها نظراته الحانقة:

– وأي قرارهتاخده أنا هتقبله أنا وأهلي.

صرخ بها:

– كفاية يا إيمان.

ثم أردف متسائلاً:

– للدرجة دي شايفاني تافه قوي كده؟

لم تفهم ما قال وحركت أهدابها كرد فعل جسدي لعدم فهمها
وترقيها لما يقول، أكمل:

– مرة تخبي عني الموضوع وتقرري لوحديك إني لوعرفت هسيبك
وكمان تخبي بطاقتك عني وتقولي إنها ضاعت عشان معرفش سنك
وطبعاً ده كان واضح جداً من تصرف مامتك ولخبطتها امبارح.

وأتتم كلماته بقوله:

– وامبارح تقولي لي تعال خد شبكتك وتقولي تليفونك ودلوقت
كمان لسه مصرة تتعاملي بنفس الطريقة.

بررت له:

– أنا قولت كده لإنك مردتش على تليفوناتى وساعتها حسيت إن
خلاص كل حاجة خلصت.

مزعجة، بل أكبر مزعجة؛ كلماتها تضايقه، تثير جنونه. ما ظنّها به!
هل ترى أنه سيوقف حياتهما بسبب هذا الفارق؟ وإن كان هذا يحدث
بواقعنا، وإن كانت هناك زيجات تتدمر قبل بدأها لهذا السبب، ولكنها
من المفترض أن تفهم كيف يفكر، أن تعلم وقوعها في قلبه، أن ترى
نفسها مثلما يراها، كيف سيتخلى عنها وهي الوحيدة التي شغلت قلبه
وعقله؟! كيف سيتركها؟ فهل يتنازل المرء عن نفسه؟ كيف تخيلته
وكيف تراه؟

منذ أن رآها بحفل زفاف ابن عمه وهو شعر أنها اكتماله ونصفه
الأخر، أنها ستكون الزوجة والأم والحبوبة، رفيقة الأيام والليالي بحلوها
ومرها، إنها من كانت يبحث عنها.

وقتما أخبر ابن عمه عنها علم عن طريق زوجته أنها مخطوبة، انتابه
الضيق وشعر أنه قد تأخر، أصبحت الأيام من دون مذاق بعدها حتى
علم أنها فسخت خطبتها فاستعادت مذاقها الحلو وأنيرت حياته مجددًا
بعدما منحته موافقتها. هل هو أحق حتى يتركها بعدما عثر عليها؟ والآن
ما زالت تبكي أوهامها وهواجسها لتزيد من حنقه.

– أنا كنت مبردش لاني اتضايقت منك، كنت بفكر إنني شايفاني
ازاي عشان تفضلي مصرة إنك تخبي موضوع زي ده.

وأوضح:

– مش فرق السن اللي لخبطني يا إيمان، تصرفاتك.

وأكمل بعصبية:

– وعلى فكرة أنا عارف، كنت عارف من قبل ما اتقدم ومفرقش معايا في حاجة.

كررت بصدمة:

– عارف!

أقر قائلاً:

– أنا عارف عنك كل حاجة.

وأردف بضيق:

– بس واضح إنك إنتي الي متعرفنيش.

قالت بتلعثم:

– أنا أسفة، من كتر ما كنت خايفة مكنتش بفكر، أنا غبية قوي بجد ومعرفش ازاي ده حصل.

ودموعها لا تنتهي وسيغرق العالم بسبب غبية مثلها، قال بنبرة أهدأ، وكان ينتظر قرارها.

– إيمان أنا اللي هسألك، إنتي متأكدة إنك عاوزة تتجوزيني؟

وتوقفت دموعها كي تراقبه، لا تصدق أنه من يتأكد من موافقتها، قرأت مشاعره التي أخفاها عنها الخوف يوماً، شهدت تمسكه به في كل ملامحه للمرة الأولى، أشارت له برأسها وأعلنت كل خلاياها رغبتها في استكمال الزيجة:

– متأكدة.

ونطقتها وكان ما زال الخجل يطغى على نبرتها وتلك طباعها ويعلم، وقال وكان يضع نقاطه الأخيرة على أحرفها:

– أنا معرفتش حد من أهلي وطالما الموضوع حساس بالنسبة

ليكي يبقى خلي كل ده بينا.

والحقيقة أنها قد سألته أمه عن عمرها قبل تقدمه لها، وكانت تبحث عن أي سبب ترفضها به عن طريقها؛ فبرأيها هي فتاة غريبة لا تعلم من هي ومن يكونوا عائلتها، وهناك فتيات كثير بالعائلة بإمكانه أن يختار من بينهن ما يريد، ولأنه يعلم كل هذا منحها إجابة مراوغة:
«24 أو 25 باين».

وكان غرضه وقتها أن يقطع كل الطرق على اعتراضاتها، واليوم غرضه حمايتها من أي كلمة قد تجرحها في غيابه ولن تتحملها.
انتبه لها تقول:

– تمام.

وحينها قال مبتسمًا:

– اشربي العصير، يا مدام محمود بعد كام ساعة.

وحينها ضحكت من قلبها، ضحكة انتزعت من صدرها بقايا مخاوفها، وأزالت عن عينيها دموع ليالي طويلة.

– من يخشى أن يتألم يتألم مما يخشى.

– أبقراط.

كانت تقوم بغسيل الأطباق وتتابع تحضير العشاء عندما جاء والتصق بها من خلفها، أخبرته بعدما أراحته عنها:

– نادر أبعد، ورايا حاجات كثير لازم أخلصها.

وابتعد وغضبت ملامحه، يشعر بتغيرها بعدما عادت من منزل أهلها وهي نفسها لا تفهم سر تخبطها الأخير، ربما كنت.

اتصل بها في اليوم التالي للشجار وصالحها وتوسل إليها كي تعود،

وفعلت، بمجرد أن دخلت للمنزل ووجدته على حالته يومها، كدما بأنفه وعلى شفثيه وقدمه إلى الآن تؤلمه، وعندما سألته منتفضة عما حدث له بغياها أخبرها بثقة:

– حرامية طلّعوا عليا وكانوا عاوزين يسرقوا العربية ويقلبوني.

شبهت وسألته بلهفة حمقاء:

– حبيبي إنت كويس؟

وهو قال لها:

– متخافيش أنا مش قليل برده، ضربتهم وهربوا، مفكرين نفسهم مين عشان يسرقوني.

ها هو شمشون الجبار الذي يقوم برسمه وتصويره لها يحضر ولكن مع الأسف لم تعد تنطلي عليها كذباته. باتت تعلمه الآن أكثر، تحفظ ردود أفعاله، تشعر متى يكذب وكيف يلقي لها بالطعم وتستقبله هي بإرادتها، وتلك المرة أصبحت واثقة أن لشقيقتها دورًا ما في تغييره معها.

كان قبل تركها للمنزل يعاند ويصر ويرغمها على فكرة الحمل ويضغط عليها به بعدما اتبع طريقته السهلة بأن يخبرها ما يريد برومانسية عاشق لم تغير من رأيها بسبب أن المطلوب يفوق قدراتها الحالية، وقتها صاح وغضب وتركها ترحل من المنزل دون أن يمنعها ويصالحها وفي يوم وليلة يتغير ويخبرها بأن لها حرية التصرف فيما تريد وما تشاء، مهجة في هذا الأمر هي واثقة من ذلك.

لم تغضب منها بل العكس سعدت كثيرًا؛ لأنها ليست وحيدة ولن يشعر هو بعد اليوم أنها قطعة صلصال يشكلها حسب ما يرى وما يريد، وعلى الرغم من كل ما أصبحت واثقة منه، ومن حقيقة أنه قد تخلي عنها بغرفة الولادة من أجل أن يحتفظ بطفل لم يره بعد إلا أنها ومع هذا لن تقوى على التصريح بكل ما بصدرها بصوت أعلى.

تجيد دور الحمقاء الضريرة بأمر العشق أمامه قبل الجميع، لن تجازف وتخسر الحياة التي تعيشها وتعود لصراع مع مجتمعها من جديد، إن كان ليس من أجله فمن أجل طفلها.

على الأقل هو يهتم به وبأمور المنزل ويعاملها برفق معظم الأوقات؛ لأنه يعشق تقمص دور الرجل المتكامل الذي تتمناه كل الفتيات، وأما عن خيبة أملها به فلتحتفظ بها، تكتبها بورقة في لحظة ضعف وبعدها تحرقها.

ابتسمت وابتلعت ريقها وتلبستها الحمقاء التي تعجبه من جديد، ذهبت نحوه وقامت بإمساك أزرار قميصه العلوية مخبرة إياه بدلال:

– ممكن بقا تسيبني أركز مع المطبخ بدل ما الأكل يتحرق.

اتسعت ابتسامته جراء كلماتها التي مسحت قلقه بشأن تغييرها عليه وتهتدت هي بعد رحيله. هو يكذب وهي تجيد الدور فتصدق. والدائرة تدور.

(غيابك يغتالي وحضورك يغتالي؛ لأنه عتبة لغياب

جديد)

–غادة السمان–

انتهى الزفاف وعادت لدائرة عقابه التي لا تتوقف عن الدوران خارج مداره، تبعته حتى باب المنزل وهي مغيبة، الزفاف مثل لها مرآة لزفافها ولكن خاصتها كانت بالكاد مجبورة. تشبهها، تنتظر أي صدمة جديدة وبعدها ستفتت بالكامل، سيصبح كيانها في خبر كان.

لقد شاهدت اليوم وضعها الطبيعي، رأت مصبرها المنتهي في بداية الآخرين، وهي وكأنها كتب على عاتقها الشقاء الأبدي فكما رأت؛ حتى المخطئون ممن حولها يبدوون من جديد.

نعم، تحب إيمان وتتمنى لها السعادة، بل وكانت تدعو لها بالأيام الماضية أن تجد مشكلتها مصيرًا أفضل منها، ولكن رغمًا عنها تشفق على حالها، تتمنى لو كان المحيطون بها يعاملونها بشكل أفضل مما يعاملونها. اليوم إيمان كانت كزهرة زنبق الياقوت، متألقة ولامعة وسعادتها لا تقدر أو توصف، وكيف لا تتألق وهي ترى في عيون من حولها أنها غالية، عظيمة، أنها الأهم والأولى!

وهي...

هي كانت تجلس في آخر الزفاف تراقب تلك السعادة من بعيد وكأن هذا مكانتها وذلك وضعها، والآن تتبعه، تسير خلفه وكان بسبب شعورها أنها ليست زوجته، لا شيء في وجوده أو غيابه.

تأكدت الليلة، هي الغائبة والجالسة على عتبة النسيان وليس هو. دخلت المنزل ونزعت حذاءها وحجابها في هدوء، ثم استلقت على الأريكة وأغمضت عيونها في حالة رغبة قصوى لاستجماع شتاتها المبعثر. نظر إليها وكان يبدو على ملامحها كل ما حجزته داخلها، يعلم بم تفكر ولماذا هي اليوم تحديداً غرقت في كل هذا الوهن، ولكن ومع كل خالص الأسف لا يملك ما يمنحه لها؛ فهي التي قد أخذت منه كل شيء مسبقًا وبسببها كلاهما في هذا العذاب.

حسنًا، لقد تشوش فكره بعد مشكلة إيمان الأخيرة، باتت الأزمة التي كانت ترومها ابنة خالتها عن الزواج والضغط والمعاناة في منزله. أصبح يتأرجح بين لومه على إلقاء كل أزماتنا على شَمَاعَةُ المجتمع والظروف، وبين تعاطفه مع ضعفهن، ولكن بمجرد أن يشعر بهذا التعاطف كان يتذكر كذباتها واحدة تلو الأخرى فيعود حنقه ليطفو على سطح مشاعره من جديد، ومن ثم وضع الأمور في مسارها الصحيح. الوضع لا يجب أن يقارن، ما فعلته هي إذا تم وضعه في ميزان الخطايا أمام فعلة إيمان سترجح كفتها عن استحقاق.

ذنبها أكبر، جرمها أعظم فإن كانت شقيقتها قد أخفت عن خاطئها معلومة ظنتها مصيرية؛ فبي كذبت وخذعت ومثلت وبكت وحتى هددت، استغلت وضعه لصالحها، وعندما ندمت كانت متأخرة.

هدمت تلال آماله وزلزلت حياته رأسًا على عقب، والسبب!
لا يخصه...

وكان لسانه تحرك لا إرادياً ليعبر عما يدور في رأسه، وجد نفسه يوجه الحديث إليها لأول مرة منذ فترة طويلة جداً:

– أنا عارف إنتي بتفكري في إيه.

وتنهدت بينما تسأله وعينها المغلقة على حالها:

– ده اتهام جديد؟

وإجابته كانت ساخرة منها:

– ليه هو إحنا كنا خلصنا من المصيبة الأولانية؟

ناشدته بصوت باهت يشبهها ويمثلها:

– سيف أرجوك أنا تعبانة ومش...

ليقاطعها، إن كانت هي قد أرهقها العقاب فهو قد دمره الذنب وعلما أن تتحمل. أخبرها:

– على فكرة محمود مش أحسن مني، عارفة ليه؟

فتحت عيونها المرهقة يأساً لتستمع إليه فأكمل:

– عشان اللي عملته إيمان ميحيش نقطة في بحر الخداع اللي

عاشتيني فيه.

ضغطت على عيونها لتسيل دموعها التي كلت التبرير وفقدت الأمل في أن يتفهمها يوماً. وجدته يكمل:

– تعرفي كام مرة حاولت أسامحك فيها ومعرفتش؟

وأردف:

– صعب، صعب انسى و اتعامل مع الموضوع بمثالية لإن اللي سرقتهما مني دي حياتي أنا واللي استغلتيه مكانش حد غيري.

نهضت وكان رد فعل منها أن يتوقف عن رشقها بكلمات لم تعد تحتلمها.

– عارفة، عارفة كل ده ومتأكدة إنه مهما اتكلمت مش هيتغير حاجة.

ثم أكملت باكية:

– عمرك ما هتصدق إن كل كلمة قولتلها لك صدقتها من كتر ما كان نفسي أعيشها بجد.

وأضافت مقهورة:

– أنا هربت من حياتي اللي مش عاوزاها ومش عارفة أغيرها لحكاية تانية كنت أنت بطلها، حكاية صدقتها وحيبتك فيها بجد.

صفق لها ساخرًا، الأداء رائع، الممثل عظيم ولكن الجمهور يمل التكرار ويفقده شغفه.

– بر افو، بجد امهرتيني، بس أداءك عمره ما هيدخل عليا تاني.

صرخت وكانت صرختها اكتفاء:

– كفاية يا سيف.

وأردفت بنحيب:

– متعلمش فيا كده، حرام عليك أنا مبقتش قادرة استحمل معاملتك دي.

وكان يخبرها بعينيه قبل لسانه:

– متوقعة إيه؟

وأضاف بعصبية بينما كان يشير لرأسه:

– لو تقدرني تشيلي اللي عملتية من راسي اللي مش قادر أوقفها
عن التفكير ليل نهار اتفضلي، ساعتها ممكن ابقى اتعامل معاكي
بطريقة أحسن من كده.

ناجته وكانت تتوسله:

– أنا أسفة، للمرة المليون بقولها لك وهفضل أقولها لك طول
عمري.

وبعد أن نطقها شعرت أنه لا فائدة من كل هذا، تحركت من أمامه
تقاوم عدم سقوطها، سارت في اتجاه غرفتها بخطوات بطيئة بائسة
عديمة الهوية، إنه لا يعلم أنها اليوم تمنّت إن كانت فقدته كزوج وحبیب
أن يكون لها كأخ يساند ويدعم مثلما كان وسيكون مع شقيقته في الخطأ
قبل الصواب.

تتساءل ربما لو كانت تمتلك أحًا مثله في حياتها لكان أبقى أمها
بعيدًا عن التحكم في حياتها وجنبا كل هذا، ربما كانت وقتها ستحيا كما
تريد وكما تتمنى، وهي لا تعلم أنه قد قرأ كل هذا الليلة في عينها، عادت
من جديد تسأله:

– سيف أرجوك لو ناوي نتطلق عرفني من دلوقت، أنا كل يوم
باعيشه على أمل إنك تسامحني بيموتني أكثر بعد ما يخلص.
وأردفت:

– أرجوك صارحني، حتى لو ما استاهلش ده بس أنا اتعاقبت كثير
قوي ولسه بتعاقب.

وأتمت كلماتها بقولها:

–أعتبرها أمنيّتي الأخيرة، عرفني وبعدها اقتلني لو حابب وقتها
مش هتفرق.

وأغمض عينيه هو الآخر ليخبرها:
- قريب هتعرفي، قريب قوي.

(إذا نظرت بعين التفاؤل إلى الوجود، لرأيت الجمال
شائعاً في كل ذراته)

-مصطفى السباعي-

عودة من المشفى، فرحة غمرتها برؤيتها. محبة تحملها لها في قلبها وتظهر بكل تصرفاتها، وسعادة اكتملت بعدما أخبرتها بأن العلاج الكيميائي بدأ يؤتي بثماره، وأنها تسير بخطوات جيدة نحو التعافي. ساعدتها على الوصول حتى فراشها وحينها أخبرتها بنبرة أقرب إلى الهمس:

- الكتاب اللي جبتهولي كان تحفة، هون عليا حبسة المستشفى والكيمائي، وصلت لنصفه في يومين ولولا إني تعبت إمبراح شوية كان زمانى خلصته.

ثم أمسكت يدها بامتنان:

- والإهداء كان أحلى وأحلى، أداني حماس ودفعة كبيرة شكراً بجد.

ابتسمت مهجة، فقد كانت خطت على مقدمة الكتاب بضع كلمات تؤازرها بها عن طريقها ألا وهي:

«إن المطرينهمردائماً بعد الرعد».

قالت لها مهجة:

- إنني بس إبقى كويسة وأنا هغرقك كتب.

ثم نهضت حتى تفرغ ما في حقيبتها من أغراض وحينها سألتها بتول:

– إنتي إيه الأخبار معاكي؟

أوضحت لها مهجة:

– الشغل تمام، يعني لم يجد جديد.

ولكن بتول عادت تسألها:

– مش بسأل عن الشغل، بسأل عنك، عاملة ايه وإنتي خطيبك

اللي كده وكده؟

وصمتت مهجة، إلا الآن لم تفهم كيف اعتادت على بتول لدرجة أن تزورها بمنزلها يوميًا، بل وتروى لها تفاصيل خاصة عنها على غير عادة. علاقتهم خليط من الصداقة والبنوة، أحيانًا تشعر مهجة أنها أمها، وأحيانًا تخاف عليها وتعاملها على أنها ابنتها. فكرت قليلًا ثم أجابتها:

– عادي، كلها 13 يوم بالظبط وينتهي الشهر وكل واحد هيروح لحاله.

داهمتها بتول بسؤال فاجأها حقًا:

– مش نفسك تكوني أم يا مهجة؟

وحينها توقفت ابتسامة مهجة وحلت محلها دمعة سجنحتها بمقلتيها، هي بخير ما دامت لن تقترب من منطقتها المحرمة، وبمجرد أن يمسه أي شخص يتملكها ضيق بالغ. لا تفهم نفسها في تلك اللحظات، يستبدلونها بأخرى، اعتذرت بتول عندما لاحظت توترها:

– لو ضايقتك كلامي بلاش.

وأردفت:

– أنا من يوم ما حكيتيلي وأنا دماغي مشغولة وخايفة عليكي.

قالت مهجة على الفور وكأنه تدفع الكلمات من حلقها:

– لأ، مش حابة أكون أم.

كاذبة، هي رأت بعينها كيف تهتم بالأطفال وكيف تتعامل معهم.
تتحول في غمضة عين لطفلة تكبرهم بالعمر، ومهجة قرأت كل هذا في
نظراتها إليها فأوضحت:

– أكيد أحيانًا بفكر بس.

وأتمت بقولها:

– بس حاسة إن مقابل ده هتنازل كتير قوي وعشان كده خلاص

مش عاوزه.

صمتت بتول لهنيهة ثم أخبرتها:

– مش هقولك طبعًا الكلام اللي بيتقال في المواقف اللي زي

دي، صوابك مش زي بعضها، وإن زي ما في الوحش فيه الحلو،

عارفاكي مش هتقتنعي.

وأشارت مهجة برأسها نافية:

– No way.

وأردفت:

– متحاوليش عمري ما هقتنع، حالي ميئوس من علاجها.

قالت بتول عوضًا عن ذلك:

– بس هقولك متغلطتيش غلطي.

وأضافت ليزداد ترقب الأخيرة:

– صعب قوي تعيشي كل ثانية في عمرك ندمانة إنك خدتي قرار

زي ده في يوم من الأيام.

وبعدها شرحت لها، الظروف والملابسات مختلفة ولكن
الجريمة واحدة، كلاهما قرر التنازل عن فطرة لم تُزرع بقلوب النساء
هباءً، وهي بدايتها كانت قصة حب قوية ترعرعت جذورها منذ الطفولة،
جيرة سنوات طويلة؛ فصدقة بالمراحل التعليمية وحتى الجامعة تلاها

خطبة واستعداد لأن يكمل هذا العشق بالارتباط الرسمي والزواج. أخبرها هو أنها الحبيبة، وأنها نصف روحه الآخر؛ فمئنته قلبها ومشاعرها فكانت الأم قبل الخطيبة والتي تعمل جاهدة على أدق تفاصيل سعادته.

كانت الأمور بينهما على خير ما يرام حتى حدث أول خلاف عائلي وتصادم بين العائلتين نتج عنه قسم مشدد بفسخ الخطبة من قبل أبويه، ووافق على الرغم من تعاسته وعدم رغبته الخاصة بتنفيذ هذا الفرمان.

وبعد عدة أشهر تزوج سريعاً وأخذ زوجته وهاجر نهائياً إلى بلدة أخرى في محاولة هروب من مشاعره لها. وهي...

هي عاشت صدمة الفراق بكل معانها، انقلبت حياتها رأساً على عقب واحتاجت فترة ليست بالهينة حتى تستطيع التأقلم مع عالمها من جديد.

كرهت الحب والزواج، ركزت كل مجهوداتها على دراساتها العليا، أخذت درجة الماجستير فالدكتوراة، وأصبحت أستاذة جامعية لها وضعها بين أسوار كلية الهندسة جامعة عين شمس، حتى إنه كان قد تبقى لها القليل على رئاسة القسم قبل أن تأخذ قراراً متهوراً في نظر الجميع ألا وهو التقاعد.

بين كل سنة وأخرى، وبين كل نجاح تحققه كانت هناك العديد من التفاصيل التي لا يعلمها سواها، مع كل فقد جديد لها بالعائلة كانت تفقد منها قطعة، باتت في وقت من الأوقات وحيدة تماماً، لم يعوضها نجاحاتها العلمية على تخطي رغباتها بالأمومة والتي كانت تزداد يوماً بعد يوم.

الوحدة قسمت روحها إلى نصفين؛ نصف قوي كامل ويرى الاحترام والتبجيل في مرآة عيون الجميع، ونصف آخر ضعيف مكسور لا يشتهي العودة للمنزل البارد حتى لا يفقد الصورة التي قد رسمها بتعب وجد واجتهاد.

قررت بعد فوات الأوان أن تترك كل شيء وتبحث عن الشيء الذي تريده، ولكن هذا الشيء لن تستطيع الحصول عليه أبدًا بعد أن ركض بها قطار العمر وفقدت كل فرصها بالأمومة.

وكان التبني حلًا خطرًا ببالها؛ منها تمارس أمومتها المتفجرة ومنها تقوم برعاية طفلًا مسكينًا قد يكون سببًا لها في دخول الجنة.

توقفت عن الحديث عندما انتهت أن مهجة قد فاضت في بكاء عميق، وكأنها رأت نفسها في المستقبل متجسدًا فيها، مخاوفها كلها تجمعت في حكاية حقيقية تسرد هي معاناتها لحظة بلحظة ودقيقة دقيقة، ولم تعد تعلم من أي شيء تخاف، أخاف الزواج بقصصه وحكاياته أم تخاف عدمه؟ أتهرب من الدمار إلى دمار جديد؟

إذا وافقت على فكرة الزواج ما الذي يضمن لها الراحة والسعادة، ويجنبها كسرة القلب والروح والمشاعر؟ وإذا رفضتها هل ستفتقد تلك الحياة بعد فوات الأوان مثلها وتركض باحثة عما فاتها أم أنها لن تفكر مثلها؟

وضعت يدها على رأسها بيأس وباتت تشعر بالندم لأنها هنا، هي تهرب من كل تلك الأفكار وتنجح بهذا وتلك تضع أمامها كل ما تهرب منه بلحظة.

لاحظت أن بتول قد توقفت عن الحديث؛ لا تدري هل لأنها أشفقت عليها أم أنها التي قد أجهدها الذكريات، ومع دقيقة زائدة من الصمت البالغ وجدت نفسها تسألها بفضول عن تنمة حكايتها:

– وبعدين اتبنيتي طفل؟

أشارت برأسها مبستمة وبعدها أقرت:

– علي، كان طفل عنده سنة، كان جميل قوي.

وأردفت:

– واحدة صحبتي كانت تعرف طفل أبوه وأمه اتوفوا في حادثة

عربية وكانوا ظروفهم على قدهم ومحدث رضي يأخده عنده ويربيه
إلا خالته.

وأكملت:

– ظروف خالته متفرقش كتير كانوا في الحضيض، وجوزها

مكانش قادر حتى على مصاريف عياله والحياة صعبت أكثر والمشاكل
بينهم كترت في وجود الولد أكثر.

وابتلعت ريقها ثم أضافت:

– نصحتني إني أخده أربييه وأهي الفلوس اللي هديهم لأهله كل

شهريسعفوهم في حياتهم الصعبة ويبقى الثواب مضاعف.

ثم أشارت لها نحو الحقيبة خاصتها التي لم تفرغ بالكامل بعد،
أخبرتها بأن تحضر ألبوم الصور الذي لا يفارقها بأي مكان، فتحته
وأشارت لها على الصور بسعادة أنارت ملامحها:

– ده كان يوم عيد ميلاده، شايفة كان عسول ازاي!

وأكملت مجاهدة رغبتها بالبكاء فاختلطت ابتسامتها بدموعها:

– هنا كانت البلونة فرقعت في إيدته، حبيبي اتخض وفضل يعيط

كتير.

وكان السؤال واجب:

– وهو فين دلوقت؟

سالت دموعها بسبب تذكرها لهذا اليوم تحديداً.

– خدوه.

وأكملت بصعوبة:

– خالته خدته بعد أربع شهور وقالت أنها مش مستحيلة تعيش مع احساس الذنب بإنها باعت لحم اختها وبتقبض تمنه، قالت هتاخده وتربيه حتى لو جوزها هيطلقها.

وأضافت بعدما سألت من عينها دمعة جديدة، فقط دمعة:

– خدوه بعد ما اتعودت عليه و اتعود عليا، خدوه بعد ما ملئ عليا حياتي ونور دنيتي، خدوه وخذوا معاه حته من قلبي.

أمسكت مہجة أصابعها في مساندة لم تقو عليها بالكامل بسبب دموعها التي تسقط تعاطفًا معها، رغم عدم قدرتها على الحديث إلا أنها أخبرتها:

– أنا أسفة.

التقطت بتول نفسًا عميقًا استعادت به بعض القوة ثم مسحت على شعرها بينما تقول لها:

– يا روي أنا مش بقولك كده عشان تعتذري، ولا معنى كلامي إنك تتجوزي أي حد وخلص وترمي نفسك لكارثة أكبر.

وأكملت مبتسمة وكان غرضها من الابتسامة دعمها:

– بس لو لقيتي حد مناسب وبيحبك وبتحبيه جربي، يمكن تكتشفي إن كل اللي في دماغك كان مجرد خوف وفوبيا من حاجات مش هتعيشها.

وأردفت:

– الحياة أكيد فيها صعوبات ومفيش حاجة سهلة، بس وازني دي قصاد إنك تجربي وتستقري وتبقي أم ولو الكفة دي مرجحتش يبقى إنتي لسه ملقتيش الشخص المناسب.

وأضافت بلهجة تحذير:

– ولولقتيه أوعى ترفضيه قبل ما تفكري كويس.

وشردت بحديثها لنقطة بعيدة:

– عارفة، لورجع بيا الزمن كنت هفكر قبل ما أرفض شخص
كان بيحبني ويقدرني لإني وقتها كنت مقررة مرتبطتس تاني بعد ما
دُقت وجع أول تجربة فشلت.

وأتمت كلماتها بقولها:

– ولحد دلوقت بفضل أسأل نفسي مش يمكن كان هو اللي
يعالجني ويشفيني من الوجع ده.

وتهدت قبل أن تتحدث:

– صدقيني يا مهجة الخوف من إنك تجري أوقات بيبقى أصعب
من التجربة نفسها.

وأكملت مبتسمة حتى تخفف عنها ما فعلته بها وما أخبرتها عنه
بسبب خوفها من ندمها بالمستقبل.

– اسمعي من واحدة عجوزة زي اللي شافته في الدنيا مش قليل،
ماشى يا روجي.

وأما عن مهجة فقد كانت تحرك رأسها نفيًا ورفضًا، بلا وعي تقريبًا.

الفصل السادس والعشرون

(الزواج قسمة، والحب نصيب)

توقفت أمام المرأة وشردت في أحوالها ثم استنشقت زفيرًا عميقًا وتقمصت المشهد الذي تريد أن تؤديه بإتقان وقررت موعده لليوم؛ فالיום نهاية الشهر، الشهر الأخير والموعد المتفق على فسخ اتفاق الخطبة. قالت وهي تنظر للمرأة بينما تحرك يديها تفاعلاً مع ما تنطقه شفاتها:

– ماما أنا وحليم فركشنا.

ولم يعجبها الأداء.

«إيه فركشنا دي!»

وعادت تصحح كلماتها:

«ماما هو كل شيء قسمة ونصيب بس...».

وبتلك اللحظة دخلت عليها أمها فأفزعتها:

– خضتيني يا ماما.

وسألها شيرين بتعجب:

– بتكلمي نفسك ليه على الصبح، خير يا محسن؟

شعرت مهجة أن هذا هو الوقت المناسب لتفاتحها بالموضوع وتأملت ملامحها، تجول في داخلها عدة أسئلة «هلامية». كيف ستكون ردة فعلها على فسخ الخطبة؟ هل ستقبل الأمر الواقع أم ستبذل أقصى مجهوداتها حتى تستمر؟ هل ستقتنع بمبرراتها أم ستحدث حلیم ككل مرة تشعر فيها أنهما على خلاف؟ والسؤال الأهم «ما هي تلك المبررات؟» متوقع أن تسألها عن سبب فسخ الخطبة، ومؤكداً لن تخبرها؛ لأنه نهاية الشهر والموعد الذي اتفق عليه كلاهما. كيف ستبرر لها الوضع؟

فحتمًا هي لن تكتفي بكلمات عامة عابرة وهي تعرفها حق المعرفة.
أغمضت عينها وقررت أن تنهي تلك المهزلة، ستحدث وبعدها
«يكش تولع». حتمًا لن تحيا طوال حياتها في تلك الدائرة المفرغة، دائرة
تستهلكها، ولا تفهم لم أصبح يحدث ذلك؟

وكانها من بعد حديثها مع بتول عن الزواج والأمومة والخوف من
الندم باتت تبذل أقصى مجهوداتها كي تقاوم أي احتمالية لانهايتها
وضعفها، وشيء ما بداخلها يهمس بخفوت أنها تقاومه هو بالذات.
ترفض تفهمه البالغ لها ولأفكارها، فكرة أنه يقرأ ما بداخلها من
تعايير ملامحها، شعور الاحتياج الذي بدأ ينمو رغمًا عنها منذ ولادة
شقيقتها وما تلاه من خلاف بينهما.

والخطوط الحمراء والحواجز التي بدأ يتخطاها دون علم منها.
زفرت بقوة حتى توقف سلسال أفكارها، وكي تبصق من داخلها الكلمات
دفعة واحدة وتنتهي كل تلك المعاناة:

— ماما أنا و...

وقاطعها صوت هاتفها، وذهبت لتلتقطه من فوق فراشها وفي
داخلها تشكر الشخص الذي أنقذها من اعترافها، وكأنها تعيش حالة
«شيزوفرينا».

تريد أن ينتهي كل شيء ولا تريد، وكان الرقم مجهول.

— أستاذة مهجة معايا؟

وقالت بدورها:

— خير؟

ولم يبدو كذلك.

— معاكي مروة ممرضة من مستشفى عين الحياة.

وأضافت بتعاطف معها:

– البشمةهندسة بتول تعبت شوية وطلبت تشوفك.

ولم تنتظر دقيقة زائدة، ارتدت سترتها وركضت بينما تجيب على تساؤلات أمها القلقة:

– بيقولوا بتول تعبت وكلموني من المستشفى بتاعتها، مش فاهمة حاجة.

والتمتة داخلها:

– ربنا يستر.

والأخرى أوصتها:

– كلميني طمئيني يا مهجة...

ركضت بين أروقة المشفى كالمغيبة، لم تكن على علم أنها قد تعلقت بها لتلك الدرجة. طوال الطريق كانت تراودها عدة أفكار مخيفة، احتمالية أنها لن تلحق وأنها قد خسرتها سيطرت على رأسها وسدت أذنيها وعينها عن الحياة فباتت في دُنيا أخرى.

ما الذي حدث فجأة؟ لقد تركتها البارحة وكانت على خير ما يرام، وحتى إنها كانت سعيدة؛ لأن علاجها الجديد كان يؤتي ثمارًا جيدة.

قالت لها إنها لو استمرت على هذا الحال ربما ستشفى نهائيًا من هذا المرض القاتل الذي يأكل أجساد ذويه يومًا بعد يوم.

هي المخبطة وكل الذنب عليها؛ فقد كان يجب ألا تتركها وحيدة وإن كانت تلك رغبتها. تلك المرة ستُصر ولن تتركها إلا بعد أن تقنعها بالذهاب معها لمنزلها، وتعلم أن أمها لن تمنع أبدًا، فقط لتطمئن عليها وبعدها سيتغير كل شيء.

طرقت باب الغرفة التي يخصصوها لها بكل مرة تذهب إلى المشفى فيها، وارتبطت بها نفسيًا، وذات مرة أخبرتها بتسامحها المعتاد مع

المرض أنه منزلها الثاني المؤقت.

دخلت للغرفة وتفاجأت؛ لأنها كانت مشغولة بغيرها، شعرت بالإحراج وسألت بصوت خافت:

– آسفة، كنت بدور على البشمهندسة بتول.
أكدت لها الممرضة:

– هتلاقيها في 809 آخر الدور.

ذهبت للغرفة المنشودة وتلك المرة دخلتها دون أن تطرق بابها؛ فلقد ازداد قلقها عليها حد الانفجار.

بمجرد أن رأتها مسحت على وشاحها المعقوص فوق رأسها وسألتها بهمس باكي:

– حصل إيه؟

وملامحها نطقت قبل لسانها:

– كويس إنك جيتي بسرعة.

أجابتها مهجة بابتسامة:

– أنا مقدرش أتأخر عليك.

وأزادت بقولها بعد أن أمسكت يديها:

– وبعد كده مش هسيبك تاني أبداً.

قالت بتول بعد أن أشارت برأسها نحو رجل كان يقعد على أريكة خلف مهجة، ولم تكن قد انتهت لوجوده بعد:

– الأستاذ منصور، موظف من الشهر العقاري.

وسعلت عدة مرات ثم أضافت:

– هو مجهز كل ورق نقل ملكية الحضانة، ليكي يا مهجة.

فتحت مهجة فمها على اتساعه:

– ليا أنا!

والسؤال قد خرج معه سيل من الدموع فكانت نبرة صوتها متحشجة:

– ليه؟

أخبرتها بتول بصوت قد أجهده المرض:

– مهجة إنتي عارفة الحضانة بالنسبة ليا إيه.

والأخرى أكدت لها:

– عارفة، وكل حاجة هتفضل زي ما هي وهتتحسني و...

قاطعها بتول ببطء:

– الحضانة مشروعي وحلمي، إنتي أكثر واحدة عارفة إني مش

بكسب منها والرسوم اللي بتتدفع بتكفل ناس تانية مش قادرة مادياً

ويدوب بتغطي مصاريها.

وأضافت بعد أن سعلت مجددًا:

– كنت حابة أبني مكان يكونوا فيه كل الأطفال واحد، اللي

مستواه المادي عالي واللي أهله ظروفهم على قدمهم يلعبوا سوا

واللاتين أهاليهم يطمنوا على أولادهم عندي.

ومع دموع مهجة أكملت:

– مش حابة حاجة تتغير، دلوقت أو بعد سنين، مضمنش لوحد

تاني كان مسئول عنها أنه ممكن يدمر كل ده ويحولها لمشروع تجاري

وممكن يبيعها أو يقفلها خالص.

قالت مهجة بشبه زعيق رافضة كل تلك الأفكار:

– إنتي هتتحسني واليوم الصعب ده هيعدي وكل ده ملوش لزمة.

أكدت لها بتول:

– حبيبتي أنا واثقة في رحمة ربنا، الموضوع ملوش أي علاقة بتعب أو مرض.

وأشارت لموظف الشهر العقاري كي يحضر أوراقه ودفتره وبعدها ناولت قلمًا:

– بس أنا كده هكون مرتاحة.

وأكملت متوسلة إليها:

– لوسمحت.

ومع إصرارها لم تستطع مهجة الاعتراض أكثر، وقعت على الأوراق ثم ركضت حتى تحتضنها، وبعدها ذهبت لطبيبها كي تستفهم عن سبب تدهور حالتها والذي أخبرها بكل أسف أن المرض قد هاجمها بضراوة، وأنه انتقل من القولون إلى الرئة أيضًا، والبقية ربما لم تسمعه؛ فكان ما قاله كافيًا لأن يصنع منها تمثالًا حجريًا لا روح فيه أو معالم للحياة.

– الوضع صعب بس هي زي كل مرة بتدهشني بقوتها، بقالها سنين بتقاوم، حد غيرها كان انهاروا انتهى من زمان.

وأكمل بعدما ربت على كتفها:

– ادعيلها.

ثم منحها ورقة مطوية:

– بلغوني إن الدوا ده ناقص عندنا، حاولي تجبيه بأسرع وقت لأنه ملوش بديل.

وخرجت من غرفة الطبيب وتحركت خطوتين، وبعدها استندت على الحائط في محاولة لإحضار القوة الغائبة التي بإمكانها أن تستوعب كل هذا.

– مهجة!

خرجت من شرودها على صوت حليم يناديها.
وأضاف متسائلاً:

– واقفة كده ليه؟

لم ينتظر تعجبها من معرفته بمكانها وهي أساساً لم تكن بحالة
تسمح لها على التركيز بأية تفاصيل.

– مامتك كلمتني، بتصل مش بتردي وقلقت.
وتبعها بالسؤال الأهم:

– هي عاملة إيه؟

رسمت ابتسامة على وجهها مرددة بقوة كانت لا تمتلكها حقيقة،
ولكنها وكأنها تعتمد إظهار ذلك لنفسها قبل أي شيء كي تُطمئن قلبها قبل
أن تجيبه:

– هتبقى كويسة.

أسندها حتى أوصلها لأقرب معقد وغاب دقيقة ومعه زجاجة ماء
وعندما وضعها بين أصابعها فقط انتهت للورقة التي كان قد أعطها
إياها الطبيب:

– العلاج ده ناقص والدكتور قال محتاجينه ضروري.

أخذ منها الورقة ووضعها في جيبه، سألها:

– هي ملهاش قراب نبلغهم؟

أشارت برأسها نافية:

– اللي أعرفه إن لها أخت مهاجرة وإنها مش معرفة حد
بمرضها عشان مش عاوزة حد يشيل همها، بقالها كذا سنة بتدخل
المستشفى وتروح لوحدها، حتى أنا أعتقد لولا الحضانة مكانتش
هتقولي أي حاجة عنها.

ثم دمعت عينها وكأنها تذكرت ما حدث بالغرفة منذ قليل:
– نقلتلي ملكية الحضانة، ليه عملت كده؟ مش قادرة أفكر غير
في...

وابتلعت بقية الكلمات، كانت أصعب من أن تقال، وهي شرد بها. لا
يريد أن يتركها وحيدة بتلك الحالة. كانت تبدو تائهة وضائعة و... خائفة.
أخبرها:

– ممكن تهدي شوية.

سالت دموعها وأجابته من عالمها الآخر:

– الست دي عظيمة، بالنسبة ليا حاجة كبيرة قوي، مع كل الألم
اللي بتعيشه إلا إنها عمرها ما ضعفت ولا فقدت إيمانها بالحياة.
وأردفت:

– عندها طاقة حب تكفي كل الناس، بتشيل مع كل اللي حوالها
همومهم وبتدعمهم من غير ما تمل مع إن اللي جواها واللي بتعانيه
أكبر بكثير، شبه الملائكة بجد مش تبع النبي آدمين.
وأضافت بنبرة باهتة كملامحها:

– خايفة قوي، حلیم لوهي جralها حاجة أنا ممكن أموت.
اقتربت أصابعه كي تضم أصابعها، ولكنه تراجع في النهاية واكتفى
بأن يربت على كتفها في محاولة طمأنة ثم أخبرها بيقين:
– أنا همشي ومش هرجع إلا ومعايا العلاج إن شاء الله.
واكتفت بإيماءة صامتة، ثم راقبت رحيله وبعدها استجمعت
شتاتها وذهبت إليها، وكانت عينها ترجوها بصمت أن تظل صامدة أمام
مرضها كما اعتادت متها.

كانت تشاهد الأسطوانة الخاصة بحفل الزفاف طوال اليوم، للمرة

الأولى تفعل وانتباها جنون.

في البداية كانت ترقص على الأغاني، بكل سعادة وبكل جهد وكأنها تعيد حفل الزفاف على طريقتها الآن.

وكان سيف معها، سعيد بها وهمس في أذنها كلمات تضحكها، ثم فجأة صمتت وارتمت على فراشها، ظلت تبكي وتبكي، بكت حتى أجهشت وتورمت عيونها. توقفت عندما شعورها بحركته بالخارج، خمنت أنه فتح باب غرفته وذهب إلى الحمام كي يستحم ويستعد للخروج، وعادت لتشرذ بحالها بقله حيلة فتسقط الدموع دون وعي، انتهت إلى طرق الباب، وعندما لم تستطع الإجابة اضطر لفتحه، سألها عندما لمح عيونها الباكية:

– فيه إيه؟

وهي مسحت دموعها بأسرع ما يمكن والتقطت ملابسها وقالت بينما تتحرك إلى الخارج:

– مفيش.

وأردفت:

– خمس دقائق وهبقى جاهزة مش هعطلك.

وبمجرد أن أغلقت باب الحمام استندت على حافته وأجهشت في البكاء، ولا يبدو أنه بإمكانها أن تسيطر على تلك الدموع هذا اليوم، لا قوة أو طاقة لديها لهذا.

كانت بالطريق شاردة، دموعها تكبتها بأعجوبة، تتأمل الشوارع ولا تراها، رأسها ملتصق بزجاج السيارة ولا تدري أين هي بالتحديد، وأما عنه فكان يتأملها، انهيارها بعد يومين كانت خلالها مزاجها رائقًا جذب انتباهه.

اليوم عندما جاء للمنزل كانت في أوج انطلاقها وسعادتها، لم يكن قد استوعب ذلك حتى فاجأته بانقلاب شامل بعد أن حلت الدموع محل الابتسامة، ما الذي تغير في ساعتى زمن؟!

لم يسألها رغم أن نظراته لها كانت تبحث عن إجابة، اكتفى بالصمت مع أن الفضول سيقبله.

تعاطف معها لن ينكر. وصلا للمنزل المنشود واستقبلتهما إيمان بكل ودّ وسعادة، كانت عروس كما الطبيعي، ابتسامتها أنارت وجهها وسعادتها كانت تقفز من عيونها، تفاهمها الواضح مع زوجها ومساعدته لها أثناء تحضير الطاولة رغمًا عنها قد جرح مشاعرها، هذا هو الزواج الطبيعي أما زواجها هي «عقاب مع الأشغال الشاقة».

بعد أن انتهى العشاء أخذتها إيمان للغرفة وكما قالت تريدتها من أجل جلسة نائمة نسائية، ولكن بمجرد أن انفردت بها سألتها سؤالاً لم تكن تمتلك له إجابة:

– ما لك؟

وهي أشارت برأسها نفيًا، تصنعت «أنه لا شيء بها» وفشلت. قالت لها إيمان بعفوية:

– سيف أحن حد في الدنيا.

ابتسمت ريم ولا تعلم إن كانت ابتسامتها توافقها أم ترفض ما تقول، أردفت إيمان:

– بس في الآخر الرجالة واحد، بيطلعوا وينزلوا على مفيش.

لم تجد ريم ما تقوله في البداية، ولكنها قالت أخيرًا:

– أخوكي أحسن واحد في الدنيا.

وبعدها أكملت بعدما ابتلعت ريقها:

– أنا اللي غلطت في حقه، ومش عارفة ممكن يجي يوم يسامحني

فيه ولا لأ.

تعجبت إيمان وعقدت حاجبها:

– إنّي!

وأزادت:

– مش مصدقة إنك ممكن تزعلي حد، إنتي بلسم يا بنتي.

ابتسمت ريم ساخرة ولم تعلق، لا توجد كلمات في الكون ستكفيها
إن عقلت، لا أحد يعلم أنها باتت تكره نفسها لا مجرد تصرفها.

هو محق، هي مخادعة وكاذبة ودمرت حياته وحياتها ولا شفيع أو
مبرر لها. وجدت إيمان تقول وكأنها تعطيها خلاصة تجاربها في الحياة
وحلها السحري:

– متكبريش المواضيع يا ريم، إنتي طول ما إنتي قدامه بالشكل
ده هو عمره ما هينسى.

ولا تعلم إيمان أن المواضيع أكبر من تضعها بهذا الإطار ولكن ريم
تركها تكمل ما تتحدث عنه.

– إنتي لازم تنسي الأول، اعتذري له، وكلميه عن إنكم تبدأوا من
جديد بس طبعًا في الوقت المناسب.

وبعدها غمزت لها بعيونها:

– يعني سهرة حلوة، جو رومانسي، لانجيري هو بيعبه عليكي
فهمني طبعًا.

وبعدها اضطرت ريم للصمت. تحت شعار «اللي مايعرفش يقول
عدس».

ثم قالت لها:

– والطريقة دي هتنفع؟

وأجابت إيمان بتأكيد:

— طبعًا.

فستبقى المرأة دائمًا وأبدًا نقطة ضعف الرجل ولا يمكنه مقاومتها لوقت طويل، تصنعت أنها اقتنعت بما تقول، وما كان لديها حل آخر.

انتهت السهرة، ولم يفرق معها في شيء، هي في حالة أن جميع الأشياء تشبه بعضها.

مرت السيارة بجانب المكان الذي قد تناولت فيه الطعام مع سيف أول مرة بعد عقد القران.

رغمًا عنها تعلقت عينها بالمكان كمن يودع مفارق، سجين. تذكرت ذلك اليوم بتفاصيله، كان تحديدًا اليوم التالي لعقد القران، يومها كان ينظر لها بحب، كان سعيدًا بها وكانت طائرة بسببه، يتعمد مشاكستها لتنفجر من الخجل، وفي نهاية الليلة منحها أول قبلة.

حرك فيها فطرة الأنثى واختبرت بفضلها مشاعرًا جديدة عليها، أحاسيس تسببت في قلب كيانها رأسًا على عقب.

نوع من الارتباك اللذيذ الذي لا تريد أن تنشق عنه، بل تجعله يتحكم بها حد التيه في تفاصيل لا تعلم أولها من آخرها، وذلك هو باختصار حالة عشق عاشتها بسببه، وجدت نفسها لا إرادياً تضع يدها على فمها ودموعها تتساقط؛ ترثي حالها وحاله معها. تتمنى لو بإمكانها أن تدفع حياتها ثمنًا لأن يعود إليها ولو يومًا واحدًا.

توقفت السيارة ومنه انتهت إلى وصولهم للمنزل، كانت ستخرج منها ولكنها أوقفها بقوله:

— يوم فرح إيمان، طلبتي مني طلب.

انتهت له بكل حواسها فأردف:

– حبيبت أطمئني، هانت خلاص.

ولم يطمئنها، بل العكس، حتى إنها لم تمتلك الشجاعة كي تتساءل عن مقصده.

ملاحظه بالأساس تكفي لإخبارها أنه سيتركها، سيبتعد عن حياتها ويتركها وحيدة. منحها مفتاح الشقة بينما يردد:

– اطلعي إنتي، أنا هتاخر النهارده.

وكان بحاجة لأن يستنشق المزيد من الهواء، وينفرد مع نفسه؛ كي يفكر من جديد، وربما هو يتهرب من مواجهتها بالأصل، من محاولاته الكثيرة للتراجع والتفكير ببدأ حياة سوية طبيعية وسوية معها.

ولا ينجح في هذا ولا يقوى على الآخر، وأما عنها فقد خرجت من السيارة لتركض على الدرج، أنفاسها تعلو وتهبط في حالة ترقب، وتساؤلات عدة تتحرك حية أمام عيونها. هل سيلقي عليها يمين الطلاق اليوم؟ وماذا سيحدث لها من بعده؟ هل بإمكانها أن تحتل أن تحيا بدون وجوده؟ والسؤال الأهم «هل هي حية من الأساس؟!»

بدت كالمجنونة، تنظر إلى المرأة لتشهد ميلاد دموعها ثم ترسم على شفيتها ابتسامة، تفتح خزانها وتغلقها، ترفع سماعة الهاتف في حاجة ماسة للحديث مع أي مخلوق ثم تتركها، ثم في النهاية تهاوت بياس على فراشها تبكي، وبعد أن هدأت نوبتها حاولت التقاط أنفاسها وبطرف عينها لمحت الغلالة السوداء القصيرة التي كان قد أهداها سيف لها بعد عقد القران، بل وقد طلب منها أن ترتديه ليلة الزفاف.

نهضت ببطء والتقطتها من الخزانة، وضعت طرفها على ملابسها وتأملت نفسها في المرأة، والعقل يفكر، وكلمات إيمان ترن بأذنها بشأن الرجال وطرق إرضائهم، وعقلها يخبرها أنه ربما تلك آخر فرصة.

فكرت في العشاء الرومانسي، الموسيقى والشموع. لم تجد سوى

شمعة يتيمة ولم يكن لديها بالمطبخ أي شيء يصلح لأن يكون مادة لمائدة طعام فاخرة، وهو بالأساس لا يأكل من يديها.

أخذت الشمعة ثم قبضت على طرف الغلالة وتحركت نحو غرفته، وضعت الشمعة على طاولة بغرفته ثم ذهبت نحو فراشه لتضع الغلالة بجانبها وتستلقي بجانبها، تتأملها من بعيد، لم تستطع ارتداءها، خجلها يمنعها. كانت تنظر إليها وتراقبها ومع ازدياد الأفكار وإنهاك عقلها غفت مكانها، واستيقظت على أصابعه التي توقظها.

لا تعلم أنه كان لعدة دقائق يراقبها، لمح الغلالة ولم يرد أن يفهم معنى وجودها معها في غرفته وفي هذا التوقيت؛ فالوضع مفهوم من نفسه. اكتفى بأن يتأمل وجهها المجهد وعيونها التي انتفخت بكاءً، تذكر حالتها خلال اليوم وازداد تعاطفه معها، فقط مجرد تعاطف لم يشفع لديه بشأن غفران يمنحه إياها. هو منك حد أنه لا يمتلك أي شيء قد يعطيها لها أو لأي شخص.

فتحت عيناها ببطء في محاولة استيعاب، كيف وكم من الوقت مضى وهي غافية على فراشه لا تدري بعد، جلست على حافة السرير لفترة استجمعت خلالها القليل من الشجاعة بينما كان يرمقها باستغراب، تعلق عيناها به في النهاية وهنا اتخذت قرارها بعد أن تذكرت أن تلك فرصتها الأخيرة، تحركت أمامه لتزداد قطبة حاجبيه، وجدها تتجه نحو الطاولة وتشعل الشمعة وتثبتها عليها، وكأنها كانت ترمز بأنها الأمل الوحيد الباقي لها في دنياها.

تحركت مرة أخرى لتتوقف أمامه وتلقائيًا نكست رأسها خجلًا. فركت أصابعها وكعادة الحمقى بكت؛ بكت لأنها لا تستطيع تنفيذ ما يردده الناس حولها، ولأنها كما تقول أمها لا تنفع بأي شيء، ودموعها اليوم كانت لها تأثير أقوى فيه؛ وربما لأنه قد توصل لقراره فيما يخصهما. سألهما:

– ما لك النهارده؟

ومع سؤاله اكتسبت بعض الشجاعة. اقتربت خطوة زائدة حتى تلاشت المسافات بينهما، ورغم ارتجاف أصابعها إلا أنها اقتربت في النهاية واحتضنت أصابعه بقوة.

برغبة قصوى ألا ينفذ ما قرأته في عينيه، ويتركها ومع حيرتها وخجلها كانت دموعها هي من تتحدث عنها. لا تعلم كيف تبادر وتتقرب منه وهو لم يقترب منها اقتراب الأزواج بعد، وكلمات إيمان تتردد على مسامعها وعقلها يؤكد مجددًا أنها آخر فرصة ومن بعدها لن تجده حولها، وبالنسبة إليه لم يكن بحاجة لفهم ما يصارعه عقلها.

قرأ من الوهلة الأولى ارتجافة شفيتها التي تناديه، علم ما تسعى إليه منذ دخل الغرفة ووجدتها على فراشها ومعها غلالتة، ومع استمرارها في تلك المحاولة كان ينزعج ويشتعل غضبه ناحيتها من جديد.

حاول التحكم في كلماته قدر المستطاع، طلب منها الذهاب لغرفتها ولم تتحرك، جامدة مكانها، تتوسله بعينها، ترجوه بدموعها.

أغمضت عينها ورفعته رأسها في محاولة اقتراب ولكنه قطعها بعد أن أخبرها بغضب:

– إنتي ليه مصرة تتصرفي بالشكل ده؟

لتنهد بتعب، ترى في عينيه أنها أحرق امرأة بالعالم، أزد بقوله:

– هتوصلي لحد فين في التنازلات؟

وأشار لها نحو الفراش والغلالة التي أحضرتها معها:

– تفتكري ده اللي هيقرينا من بعض؟

وأكمل بذهول:

– ونسى كل حاجة عن طريق علاقة؟!!

وضعت يدها على أذنيها وتهاوت لتجلس على الأرضية بينما تردد

بنبرة باكية:

– أنا تعبانة.

ولحقتها بالقول بدموعها قبل لسانها:

– عمرك ما هتصدق إني بحبك صح؟

لم يجد ما يقوله فأضافت:

– وعشان بحبك مقدرتش أكمل في إني أخدك للآخر.

وأما عنه فكان لا يريد أن تنفتح تلك السيرة مرة أخرى، إن فتحها فكلامه لن يعجبها، وبرأيه أنه لم يعد هناك أي جدوى من كل هذا. حركت أصابعها في توتر ودموعها تراكمت في عيونها مجددًا.

– أنا عملت كده من الأول لإني بحبك وإنت عمرك ما كنت

هت...

قاطعها بقوله:

– محدش بياخد نصيبه في الحياة بالعافية.

وأكد لها:

– ومفيش أي مبرر هيشفع ده.

تهمد واحتاج بعض الوقت كي يخبرها بما يجب أن تعلمه، لا يريد أن يمنحها المزيد من الأمل في شيء أصبح يراه انتهى من قبل أن يبدأ.

– أنا مسافر.

استندت على أصابعها كامرأة عجوز لتقف من جديد، توقفت دموعها في حالة تجمد، هي نفسها تجمدت، سألته بخفوت:

– وأنا؟

أخبرها بعد القليل من السكون:

– هنتطلق بس مش دلوقت.

وأردف بسخرية من الموقف ككل:

– مضطراستغلك أنا كمان.

عقدت حاجبيها؛ لا تفهم أي شيء ولا تريد أن تفهم، الفكرة المسيطرة عليها أنه راحل إلى الأبد، كان يخبرها:

– عرفت أمي إنك هتحصليني ونستقر في دبي.

وأكمل:

– وأما تتقبل فكرة الغربة ساعتها هنتطلق رسمي.

وأضاف بنبرة أهدأ:

– أنا مش هضغط عليك أكثر من كده، من النهارده ممكن تعتبري نفسك حرة.

وأوضح:

– تقدري تروحي لأهلك وتعرفهم الوضع والشغل لوحابة ترجعيه ارجعي، وكلها شهرين تلاتة وهتبقى حرة بالكامل.

لا إرادياً وجدت نفسها تركض لتتشبث بخصره كطفلة، لم تفكر في أي شيء سوى أنها ما دامت فقدته فقدت حياتها معه، سيذهب ولا تستطيع منعه، انتهى كل شيء ولا حول لها ولا قوة، وأما عنه فقد حرك ذراعيه كي يحتضن جسدها الذي يرتعد خوفاً وحزناً ولم ينجح.

قراره نهائي. لا يمكنهما الاستمرار بتلك الدوامة الصعبة، انتهت الحكاية، نقطة دون فاصل جديد.

الوقت تأخر، وهي لا تجيب.

أراد أن يطمئنها أنه قد عاد من المنصورة ومعه عبوة من الدواء، ولكنه فقد الاتصال بها منذ ساعتين، حارس المشفى سمح له بالمرور بعد أن أخبره عن الدواء وخطورة الحالة، ركض على الدرج ولم يصبر

على انتظار المصعد، التقط أنفاسه بأعجوبة وتحرك نحوها. كانت قاعدة على مقعد أمام غرفتها ويديها تحتضن رأسها، ناداها:

– مهجة.

وسألها عندما رفعت عيونها الباكية نحوه:

– حصل إيه؟

قالت بصوت غائب عن الحياة وبنفس الوقت رأسها يتحرك نفيًا:

– كنت بكلمها، وفجأة مردتش.

وكررت بذهول:

– مردتش عليا!

قال لها على الفور:

– هروح ادبهم العلاج، متخافيش.

وقبل أن يصل لباب الغرفة كان الطبيب قد خرج منها، ركضت هي قبله لتصل إليه ولم يسعفها لسانها لأن تسأله عن حالتها، ومع نبوته الأسفة وكلماته الجافة.

– البقاء لله.

فقدت وعيها.

الفصل السابع والعشرون

(سَلَامٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ حَاضِرٍ...)

دُنْيَا قَاتِمَةٌ، سَوَادٌ يَعْكَسُ مَشَاعِرَهَا الْحَالِيَةَ تَجَاهَ الْعَالَمِ، ظِلَامٌ يَخْبِرُ الْمُحِيطِينَ بِهَا أَنَّهَا فَاقِدَةٌ الْوَعْيِ وَالْحَقِيقَةَ هِيَ تَهْرَبُ مِنْ فِكْرَةِ الْفَقْدِ. مِنْذُ أَنْ فَقِدْتَ أَبِيهَا وَهِيَ طِفْلَةٌ قَرَرْتَ أَنْ تَجْمَدَ مَشَاعِرَهَا، أَلَا تَتَعَلَّقُ بِمَنْ حَوْلَهَا، تَتَأَقَلَمُ مَعَ الْمَوْتِ وَأَشْبَاهِهِ، تَصْبِحُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ مَخَافَتِهَا، وَلَكِنْ فِي النِّهَايَةِ أَدْرَكْتَ أَنَّ كُلَّ هَذَا مَا هُوَ إِلَّا طُمُوحَاتٌ وَأَمَانِي. رَغْمًا عَنْهَا ارْتَبَطْتَ، تَعَلَّقْتَ، خَافْتَ الْفِرَاقَ وَ... فَارَقْتَ!

لِلْقَدْرِ كَلِمَتُهُ الْعُلْيَا، بَنُو آدَمَ مَهْمَا كَانَتْ سَطُوتِهِمْ سَيُظَلُّونَ ضَعْفَاءَ أَمَامَ أَقْدَارِهِمْ وَمَا هُوَ مَسْجَلُ بَدْفَاتِهِمْ، وَحَلِيمٌ هُوَ الْآخَرُ فِي حَالَةٍ لَا يُرِثِي لَهَا، عَقْلُهُ بَيْنَ الْغَافِيَةِ كَمَدًّا، وَبَيْنَ تَعَامَلَاتِ الْمَشْفَى وَالْحَائِطِ السَّدِّ الْمُسَمَّى «الْإِجْرَاءَاتِ» وَبِمَا أَنَّهُمَا لَا يَقْرِبَانِ لِلْمُتَوَفِيَةِ أَوْ مِنَ الْمَقِيمِينَ مَعَهَا بِنَفْسِ الْمَنْزَلِ فَكُلُّ الْأُمُورِ مُتَوَقِّفَةٌ إِلَى إِشْعَارِ آخِرِ.

تَهْتَدُ بِكُلِّ عِنْدَمَا شَعَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَبْوَابِ مَغْلُوقَةٌ، بِتَوَلَّى لَمْ تَضَعِ أَيَّ بَيِّنَاتٍ تَخْصُ ذَوِيهَا فِي الْمَشْفَى كَيْ لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ مَا هِيَ مَرَضُهَا، وَمَهْجَةٌ مَا زَالَتْ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْمُهْدِيِّ، وَبِجَانِبِهَا أُمُّهَا وَقَدْ حَلَّ النَّهَارُ وَهُوَ عَلَيْهِ التَّصَرُّفُ؛ لِأَنَّ إِكْرَامَ الْمَيِّتِ دَفْنُهُ.

خَرَجَ مِنَ الْمَشْفَى يَرِاقِبُ خَيْوُطَ الشَّمْسِ الَّتِي تَحَاوُلُ أَنْ تَتَسَلَّلَ إِلَى السَّمَاءِ وَلَكِنْ فِي وُجُودِ تِلْكَ الْغَيُومِ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَفْرُضَ وَجُودَهَا، حَتَّى الشَّمْسُ الْيَوْمَ حَزِينَةٌ مِثْلَهَا وَكَأَنَّهَا تَشَاطَرُهَا مَشَاعِرَهَا، امْتَلَأَتْ السَّمَاءُ بِالْغَيُومِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَرَارَةِ الْجَوِّ؛ لِأَنَّهَا غَائِبَةٌ عَنِ الْوَعْيِ وَالْحَيَاةِ.

نَفْثَ دَخَانَ سِيَجَارَتِهِ فِي الْهَوَاءِ، هُوَ أَيْضًا قَدْ تَأَثَّرَ نَفْسِيًّا لِرَحِيلِهَا؛ بِسَبَبِ مَا كَانَتْ تَرْوِيهِ مَهْجَةٌ عَنِ قُوَّتِهَا، وَمَجَابَتِهَا لِلْمَرَضِ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ

لسنوات، وبسبب مرات قليلة التقيا خلالها.

الوضع بالغ التعقيد والمسئولية الآن على عاتقه ولن يرتاح قلبه سوى بعد أن يطمئن على مهجة وبعد أن تُحل مشاكل التصريح والدفن. أنهى سيجارته على عجال وألقاها ليعود لغرفة الطوارئ القاطنة بها مهجة، كانت أمها تغفو أمامها على مقعد قريب وبمجرد أن رآته استيقظت، شعر بالحرج فخرج وأمها تبعته، سألتها وسألته بنفس التوقيت:

– مفاقتش خالص؟

– عرفت توصل لقرابها؟

أجابها بنفي؛ فهو يعلم أنها ما زالت تحت تأثير المهدئ بعد ولكنه كان يتأمل:

– مفيش جديد، محدش يعرف هنا حاجة.

وكان السؤال حتميًا ضروريًا من شيرين:

– طب وبعدين؟

وأكملت:

– يعني هتفضل في المستشفى كده لحد ما ما أهلها يفكروا يدوروا عليها؟

والتتمة حزينة، غاضبة من الحال ككل:

– ده حتى ميرضيش ربنا.

أجابها بتهديد، ولم يكن يمتلك سواها:

– مش عارف بصراحة، بيقولوا انها أما حست بالتعب جت المستشفى لوحدها من غير شنطة أو حتى موبايل.

وأردف:

– أما تفوق مهجة نشوف، يمكن تعرف توصلنا لحاجة.

والأخيرة ربتت على كتفيه بامتنان وابتسامتها تخبره قبل لسانها:

– ربنا يخليك لها يا حبيبي وتفضلوا جنب بعض في الحلوة
والمرة.

وابتسم هو الآخر، توتر بفضل كلماتها لن ينكر، والنتيجة دقائق
أخرى خارج بوابة المشفى حرق خلالها المزيد من سجائره المتواضعة.

وبعد ساعة تقريباً استعادت الوعي ببطء، فتحت عينها الباكية،
وبمجرد أن أدركت أين هي وماذا حدث، وأنها فقدتها انكشمت ملامحها
وانقبضت روحها من جديد، أنين نبرتها كان هادئاً، وأنين قلبها كان لا
يحتمل.

اعتدلت في جلستها ومسحت ببيديها على وجهها ولم تكن تبكي،
كعادتها السيئة جداً، وكأنها تضغط على جراحها بسكين كي لا يراه من
حولها، وإن كان هذا السكين يمزق خلاياها ويترك آثاراً عميقة بعد ذلك
ولكنها هكذا، تلك طباعها، لا تحب أن يشهد أي شخص لحظات ضعفها
وميلاد دموعها.

سألها حليم في النهاية ليقطع عليها حرب الأنفاس الطويلة مع عقلها
وقلبها؛ قلبها الذي كان يشتهي البكاء بشدة وعقلها الذي يطالها بالقوة
والجلد والتحمل وكل تلك المرادفات التي يفرضها عليها غضباً واقترار.

– عاملة إيه؟

اكتفت بأن تشير برأسها بمعنى أو بلا معنى لم يعد هناك فارق،
وبعدها اضطر إخبارها عن الوضع، لم يكن هناك وقت يملكه كي ينتظر
تحسنها، شعرت بالأمسى، أهل من الممكن أن يصل المرء لتلك الدرجة
من الوحدة؟! أن يموت ويكون جسده بانتظار معرفة ذويه في ثلاجة

مشفى!

حاولت النزول من على السرير فدار رأسها وعادت استقرت مكانها،
أسرعت أمها نحوها كي تقوم بمساعدتها مرددة:

– على مهلك يا حبيبتي هتقعي.

وسألها حلیم:

– عاوزه تعملي إيه قولي؟

تهدت لتخبره بشيء من التعب:

– اروح البيت اشوف تليفونها، معايا المفتاح.

مد يديه إليها قائلاً لها:

– هاتيه، أنا هتعامل خليك إني هنا.

وما كانت ستوافق إلا بعدما أقنعها بطريقته الخاصة:

– لازم حد مننا يفضل في المستشفى.

أغمضت مہجۃ عينها، ثم وضعت مہجۃ في جيب سترتها، ومنحته
مفتاحاً من وسط سلسال مفاتيحها بينما تخبره:

– طيب دور على التليفون وكمان ممكن تسأل جيرانها يمكن
يعرفوا حد من أهلها.

وأخذ منها المفتاح وعيناه أخبرتہا أن تطمنن، برأيه هاتفها يكفي
لحل تلك المعضلة، وأما عنها فعاتت لتضع رأسها على الوسادة وتشرد
في ملامحها التي تفتقدہا من جديد.

(ثمة خسارات كبيرة إلى حد لا خسارة بعدها تستحق

(الحزن)

– أحلام مستغانمي –

وضعت الحقيبة على فراشها بعقل غائب بعد أن ارتدت ملابسها بالكاد، أبوها قد جاء في الصباح بعدما حادثته بعد خروج سيف للعمل بانهميار، لم يستطع فهم منها أي شيء على الهاتف فجاء إليها راکضاً وهي إلى الآن لم تستطع أن تخبره بسوى أن يأخذها من هنا والبقية هذيان عن انفصال بعد أشهر، وسفر وذنوب لا تسامح نفسها عليه، ومنها استطاع فهم الوضع بعد دقائق تمزق قلبه فيه عليها وعلى الحال الذي وصلت إليه، وهو شفق على حالتها ولم يتحدث كثيراً ويتساءل، فقط أخبرها أن تجمع حقيبة ملابسها، وبالأساس جميعهم كانوا يتوقعون تلك النهاية ولا مجال للاندھاش هنا.

انتهز فرصة دخولها للغرفة وحادث سيف واكتفى بإخباره بالكاد:

— ريم هتخرج معايا بيتها يا بني، وهنستناك تنهي الموضوع.

وبعدما أنهى المكالمة شعر وكأنه لا يقوى على التنفس، خرج للشرفة كي يملأ صدره ببعض ذرات الهواء الباردة. دقيقة وأخرى واستشعر تأخيرها.

طرق عليها باب الغرفة ولم تجب، فتحه في النهاية من خوفه وتهد وعاتد روجه عندما وجدها جالسة بجانب الحقيبة الفارغة المفتوحة، وشاردة، و فقط دموعها تؤكد أنها على قدر من الوعي، أمسك يديها كي تنهض معه وكان يخبرها ولا يعلم إن كانت تسمعه:

— تعالي نمشي دلوقت وأنا هبقى أجي بعدين.

تحركت معه كظل شريد فقد معالمه وهويته.

كانت مع كل حركة من قدميها تخطو بها بعيداً عنه وعن منزله تفقد منها جزءاً، ومع ابتعاد سيارة الأجرة وسيرها بالاتجاه المعاكس فقدت المتبقي منها، لا تصدق أنه قد انتهى كل شيء رغم أنه عليها أن تتأقلم مع الوضع والفكرة.

وشريط طويل وقاسٍ مر أمام عيونها.
بداية من لحظة التقائها به في أول يوم لها بالعمل ومرورًا بالمشاهد
التي جمعتهما.

شهدت ميلاد حبها أمام عينيها وكيف نعى وترعرع رغماً عنها وعن
معاملته الصعبة لها في البداية، رأت كيف كانت تحاول جذب نظره
بناءً على تعليمات وتوجيهات أمها، وبعدها الحادثة وكيف أحكمت عليه
خدعتها حتى تشربها ووصلا لمرحلة الزواج، وتحقق أمنيتهما فيه وفي
الحياة عامة.

وبعدها!

بعدها تذكرت البارحة عندما أخبرها بقراره النهائي، نظراته الكسيرة
وروحه المتعبة بفضلهما.

إحباطه الظاهر واللاحياة التي سيطرت على حواسه وملامحه وحتى
أنفاسه.

أدركت وإن كانت تحاول ألا تدرك أنها تلك النهاية وأنها من سطرتهما
من البداية وتستحق، وأنه لا يستحق.

توقفت سيارة الأجرة وحينها انتهت أنهما قد وصلا للمنزل، خرجت
من السيارة وظلت تتأمل شارعهم.

وكانه أصبح آخر مثله مثل البنائة والجيران و... مثلها!

شردت في البنائة ودموعها سالت من جديد، لم تكن تتمنى العودة
إلى هذا المنزل، لم يمثل لها السكن والأمان من قبل ولن يمثل الآن بعد
ما عانتها وعاشته وما زالت تعيشه.

شعرت بشيء ما يوخز صدرها، رغبة في الاختفاء من الوجود
تسيطر عليها، تمننت لو كانت سحابة حرة، طير يحلق في الأفق دون قيود
وشروط، أو حتى قطعة جماد لا حس فيها أو إدراك ولا يهتم لكينونتها

أحد. ارتاحت للفكرة ولكن أباهما قاطع جبال أفكارها بقوله:

– يلا يا ريم.

تحركت خطوة وبعدها توقفت لتسأله بتوجس:

– هي ماما فوق؟

قال ببديهية:

– هتروح فين؟ موجودة فوق.

ابتلعت ريقها، لا تقوى على رؤيتها الآن ولكنها مجبورة، صعدت الدرج، فتح أبوابها الباب وأدخلها قبله وكانت أمها واضعة يديها على رأسها وتقعدها على أريكة الصالون في انتظارهما.

أمها كانت تعلم أن هذا اليوم قريب، وكانت تنتظره منذ أن أخبرتها صباح الزفاف أن سيف بات على علم بكل شيء، واليوم بمجرد أن أخبرها زوجها أن ريم حادثته بانهييار كي يأتي كانت على يقين أنه سيجلها معه ومعها ورقة طلاقها، وها هي الآن أنت إليها من دون الورقة ولكنها أكدت لها أنها ستلحق بها بقولها بهذيان:

– هيطلقني.

وكررت بنبرة فاقدة للحياة:

– هيسافر وهيطلقني.

رفعت أمها يديها من على رأسها المُنكس عارًا وخزيًا وخزلًا وتحركت نحوها لتخبرها بعدما ظلت تضرب بكفها على وجهها بزعيق:

– متقوليش الكلمة دي تاني، إنتي عاوزه تجنيني.

وأردفت وكأنها تريد أن تنفي ما سمعت بأي شكل:

– مفيش طلاق ولا كلام من ده إنتي فاهمة؟

وحيثما برقت عيني ريم، ما المطلوب منها الآن! ما الذي تبقى كي

تفعله ولم تفعل؟

توسلته، التصقت به، ناجته بدموعها، وليس من أجل أن ترضي رغبات أمها ولكن من أجلها، من أجل حياة تمنيتها معه، من أجل عشق تحمله في قلبها له، تدخل أبوها بقوله:

– خلاص يا هناء الموضوع خلص.

وكانت الأخيرة تهلوس وكأنها استوعبت الأمر للتو

– يا خيبتك في بنتك يا هناء، يا مصيبتك السودا!

أرادت ريم الرحيل لولا أنها منعتها بعدما قبضت على يدها ولسانها

يردد:

– هوأنا عرفت أجوزك وإنتي بنت أما أجوزك وإنتي متطلقة بعد

3 شهور!

ورد فعل ريم كان شهقة، وضعت يدها على فمها تكتمها، عدم استيعاب تمكن منها لوهلة وبعدها انهارت حرفياً، ارتخت قدمها وشعرت أنها ستسقط فاستندت على أقرب عمود والدموع كانت تسقط منها دون سيطرة منها والقلب المنهك يصرخ قبل اللسان:

– لأ، مش عاوزه اتجوزيا ماما لأ.

ثم أخبرتها:

– اللي أنا كنت بحبه وبتمناه خلاص سابني ومش عاوزني.

وأردفت بتعجب من الحال ككل:

–.سيبوني في حالي، أنا مضايقاكم في إيه؟

وقالت بشبه وعي وكأنها تستعيد ما أرادت أن تنسأه، أساساً هي تحملت عقاب سيف وتجاهله لها لأشهر من أجل ألا تعود إلى تلك الحرب والحياة من جديد، ونظرت نحو أبيها ونادته بتوسل:

– بابا أرجوك كلمها، أنا مش عايزة عرسان.

وشرحت وكان الكلام يخرج من أعماق قلبها:
- هتعد تاني قدام راجل غصب عني ويقعد يقيمني وفي الآخر
يقولي كل شيء نصيب!
وأزادت بصعوبة:
- متخليهاش تعمل فيا كده.

واعدلت في وقفها لتنظر نحوهما، كلاهما صامت، ماذا يعني هذا
الصمت؟ ولم تجد سوى تبرير وحيد بأنه لا أحد يأبه لها في هذا العالم.
صمتت قليلاً كي تستوعب كل خيبة الأمل تلك ثم عادت تقسم نظراتها
بينهما وفي النهاية تساءلت:

- هو أنا ليه مش زي إيمان؟
وأردفت بياس:
- كان نفسي قوي أبقى زيه.
ونظرت لأبها وسألته وكانت عينها تلهث عن إجابة مقنعة حقاً:
- ليه يا بابا إنت مش زي سيف؟
وأما رفعت حاجبها باعتراض ظاهر فسألته هي الأخرى بهذيان:
- مامتها وقت أزمتها قالتلها إنتي غالية.
وأكملت بتساؤل:

- هو أنا ليه مش غالية؟
واقتربت منها لتواجه عيون أمها التي تهرب منها، أخبرتها:
- أنا في نظرك كنت قليلة قوي، لحد ما بقيت قليلة.
كانت أمها تفتح فمها كي تزعق بها وتنهاي وصلة الأدب تلك برأها
وملامحها الغاضبة خير دليل، ولكن أبها تدخل مخبراً إياها كي يوقفها:
- خلاص يا هناء، إنتي مش شايقة حالتها؟

حينها نظرت ريم نحوه بغضب ووجهت الحديث إليه بقولها:

– أنت ساعدتها بسكوتك.

وأردفت بألم:

– شوفت كل اللي بتعمله فيا وكنت ساكت.

ونظرت لكليهما وحينها فقط توقفت دموعها وكأنها وصلت لأقصى

درجات التألم:

– إنتو دمرتوني.

ورددت قبل أن تتحرك لغرفتها باكية:

– وأنا عمري ما هسامحكم، منكم لله.

في مساء اليوم التالي كان المنزل يضحج بالبشر، الأقارب والجيران

وكل من تعامل معها كان يبكيها، كانت وحيدة على أرض الواقع نعم،

ولكن يبدو أنها شغلت حيزاً في قلوب كل من جاء يأخذ واجب العزاء فيها.

كانت مشاعرهم واحترامهم وحبهم لها ظاهرين بقوة في دموعهم ونحيبهم.

تعجبت مهجة، كيف كانت تشعر بالوحدة مع أن كل هؤلاء في حياتها؟

والإجابة خرجت من فم ابنة خالها أو –خالتها– لا تتذكر، وقد

كانت تتحدث مع أخرى بجانبها مرددة بندم ورتاء للمرحومة:

«كان فيكي كل ده وشايلة لوحدك».

وأردفت بعدما كانت تمسح دموعها من على بزواؤ صورتها الموضوع

على قدميها منذ جاءت للمنزل:

«كلنا قصرنا معاكي يا حبييتي، سامحيننا، الدنيا شغلتنا عنك».

قالت مهجة بغضب داخل قرارة نفسها، شغلتهم الدنيا إذن؟! ألم

يكن هناك فقط القليل من الوقت من أجل محادثة هاتف يومية؟!

الوضع مزّر، مُخزٍ.

لماذا عادة بني البشر الندم بعد فوات الأوان؟ يتذكرون بعد أن «تخرب مالطة». سيكون فقيدهم بعد الدفن!

كانت تود أن تخبرها أن لا شيء من دموعك سيعوض فكرة أن بتول ذهبت للمشفى تستقبل الموت بمفردها، وبعد موتها لم تجد من يخرجها من المشفى وينقلها إلى مثاها الأخير!

ما كان سيحدث لو أنهم لم يجدوا الهاتف؟ كانت ستبقى أسيرة في تلك الثلجة الباردة حتى يتكرم أحدهم ويتذكرها ويتفضل بالسؤال عنها.

ازداد اختناقها، ضاقت رؤيتها، شعرت وكأن هذا المنزل الذي كانت تأتيه قبلاً بحثاً عن الراحة والهروب من ضجيج العالم لم يعد كما هو. بعد رحيلها لم يعد مكانها وربما لأنها تشعر بنفس ذنبهم في الأخرى قد تركتها لسويغات انتهى فيها كل شيء. قالت لأمها بصوت خفيض:

– عاوزه أروح البيت.

تعجبت أمها، ألن تنتظر انتهاء العزاء! وما الفارق ما دام عزاؤها وراثؤها بقلها فسيذهب معها أينما رحلت.

أومات برأسها موافقة إياها على الفكرة فربما هذا أفضل لها حتى تلملم نفسها المجهدة المبعثرة. حمل حليم الأغراض عنها وأوقف سيارة أجرة كانت مارة بالطريق وأوصلهما إلى المنزل، ومع مرور بعض الأيام كان الحال يسوء. العالم يزداد قبحاً في عينيها، لا يطاق دونها يا الله.

(ما أجمل أن يصبح الحلم واقعا، وما أفسى أن يكون

الواقع مجرد حلم)

– أحلام مستغاني –

دموعها لا تنفك عن مخيلته، غريب!

منذ أن أخبرها ليلة البارحة بقرار السفر وهو يحيا بين شقي رحي.
بقايا إنسانيته المدمرة توخره وتخبره أنه ربما ظلمها وكرامته التي أهانتها
تؤكد له بكل يقين أنها هي من ظلمته وظلمت نفسها معه.

ما كان يتوقع أن تلك نهاية الحكاية!

حكاية بدايتها رجل استيقظ من غفوته على عامين قد سلبا من
ذاكرته فجأة، كان الوضع صعبًا ثقيلًا لا يحتمل، فقد كل توازنه في ليلة
وضحاها وشعر بالنقص في كل شيء وأولهم نفسه. كان يضع احتمالية
في كل شيء، ربما قد تعرف إلى ذلك الرجل الذي يسير بجانبه في الطريق
صدفة من قبل، ربما لم يعد صديقه المقرب كما هو وقد اختلفا، ربما
تغير كل شيء يظنه ثابتًا وحقيقية!

كان قد شعر أنه على وشك الجنون، حتى ظهرت. لا يعلم كيف
ومتي، لا يدري كيف تقرب منها رغمًا عنه.

أجبرته هو الظاهر نعم، ولكنه من جهة أخرى تشبث بها حتى
تخرجه من دوامته وإن أظهر غير ذلك.

تمسك بها رغمًا عن طوفانه حتى يصل معها لبر الأمان والاستقرار،
أذاقته السعادة معها وبدأ يستعد لبناء عشهما الدافئ.

تسللت بعض المشاعر ونبض قلبيهما بنبتة حب ترعرعت مع
شعور الراحة والأمان، حلم معها بحياة جديدة أفضل وبداية ينسى بها
كل شيء، حتى انتهى كل شيء.

كان يريد منها أن تنتشله من دوامة نقصه واكتشف أنه لم ينل
سوى الغرق في بحر من الزيف والخديعة، انتهى قتلها مرارًا ولا يدري
كيف تماسك عن فعلها، علم أساس مشكلتها وأسبابها ورغم التعاطف
لم يستطع تقبلها، تمنى مسامحتها وماطل في المدة من أجل محاولاته

التي كانت لا تنتهي وفي النهاية أطلق سراحها عندما تيقن أنه قد ماتت حواسه في خضم كل الصراعات. على الأقل يتوقف عذابه وعذابها وكان يتأمل.

في الليلة التي أخبرها بقرار السفر والانفصال أنهكتها، تمسكها به أوجعه، أعادته بدموعها وانهارها إلى دوامة الحيرة مرة ثانية، ولكن لم يعد هناك ما يمكن إنقاذه.

ماتت الروح فبهما وما تبقى ما هو إلا أشباحًا منهما تتحرك عوضًا عنهما، لم يملك سوى وعد أعطاه لأبيها البارحة بعدما طلب التقاءه في أحد المقاهي القريبة من منزله، أكد له بقلة حيلة بأنه سيبدل قصارى جهده في إنهاء كل شيء وفاجأه الآخر بأن منحه اعتذارًا عن كل ما عاشه بسبب كذبة ابنته.

«إحنا آسفين يا بني على كل حاجة وأبسط حق ليك إننا نستنى لحد ما تظبط ظروفك وحياتك اللي اتلخبطت بسببنا».

ووقتها عينيه سألت عن حالتها رغم تلجم لسانه، وأبوها قرأ سؤاله في كل ملامحه ولم يجد إجابة يمنحها إياها فتهرب.

وصباح اليوم حمل أغراضه وأغلق المنزل وكله أمل أن يغلق تلك الصفحة من حياته، وضع أغراضه بالسيارة وقعد على مقعد القيادة بينما كان يتأمل جواز السفر وتذكرة الطيران الموضوعة داخله.

خطوة كان يتمناها دومًا ويسعى إليها بكل جوارحه، ورغم شعور الدمار الذي ملأ داخله إلا أنه تشبث بتلك الفرصة كأخر سبيل ينتهجه كي يحيا ويتنفس ويعيش.

قاد السيارة وحاول التركيز، وصل لمنزل أهله وقام بتوديعهم، أكد لأمه التي كانت تحتضنه بدموعها وتخبره أن يعيد التفكير مرة أخرى أن هذا هو الخيار الأفضل وعندما سألت عن ريم أخبرها بأنه أوصلها لمنزل عائلتها وأنها ستلحق به عن قريب، وأساسًا لولا علمها أن ريم ستلحق به

ما كانت ستسمح له بالابتعاد عنها.

على الأقل هي ستهتم بأموره ويقل انشغالها بها عليه في تلك البلد الغريبة البعيدة؛ وربما لأنها تمننت من كل قلبها أن يبدأ معها هناك صفحة جديدة لحياة مستقرة، ولأنها كانت تشعر ببعض الذنب في حقه؛ فهي دفعته للزواج هي الأخرى، وكان لم يتزن بعد، وهي بعينها رأت أنه بعد الزواج قد كان تعييسًا على كل ما توقعت.

أبعدته عنها وقلبي يتمزق وكل جوارحها تنمى له السعادة التي لم ينلها بعد، وأما عنه فكان يشعر وهو يستقل سيارته أن الوضع بالغ الصعوبة.

الغربة قاسية على نفس تمتلكها من دون شيء، وعقله اللعين كان كلما يحاول أن يبعد صورتها عن عينيه يعيده للتفكير بها من جديد.

جنون متكرر يفقده عقله رويدًا رويدًا ولا مجال أو ملامح لأي راحة بال في نهاية هذا الطريق، أو حتى هروب مستحق!

حاولت التأقلم، خرجت للعمل رغم انطفاء لمعة عينها، ظلت تقضى معظم يومها في الحضانة وشغب الأطفال كي تنساها، ولكنها تتذكرها في كل بسملة كانت تنجح بوضعها على شفاههم، في كل ركن عبقها وورقي روحها كان لا يزول منه، في كل تفصيلة أضافتها دعمًا لأزدهار مشروعها الخيري ورواجه.

تعمدت أن تضع صورتها في كل مكان بالروضة حي يتعرفها كل طفل جديد ينضم للمكان، كانت تتحدث عنها بفخر واضح، تؤكد للأطفال أن تلك الغائبة الحاضرة تحبهم من قبل حتى رؤيتهم.

تصفها كأنها ملاك لم يتحمل واقعية الأرض فهرب إلى السماء مع من يشبهه، وفي نهاية اليوم تعود للمنزل بتعب وهروب من الواقع عن

طريق النوم، وإن كانت راضية بالقدر، تعلم أنها بمكان آخر أجمل وأفضل وأنه قد انتهت آلامها ولكن لوجع الفقد والافتقاد سطر آخر يحسم النهاية.

وصباح اليوم قامت بحسبتها فلقد مر على وفاتها اثنان وعشرون يومًا بالتمام.

قررت، لن تذهب للعمل اليوم لم يعد لديها طاقة للهروب أكثر، اليوم ستظل تتذكرها، هي بالأساس تشعر بها حولها ومعها وكأن روحها تطيف حولها في أرجاء غرفتها.

شعرت بحنين بالغ إليها، تذكرت أحاديثهما معًا، ابتسامتها الحانية وروح الأمومة الطاغية التي غمرتها بها.

كانت قد استأذنت من أقاربها في العزاء أن تأخذ أشياء بتول الخاصة كالألبوم الصور وكتبها وقطعة من ملابسها وهم سمحوا لها مشكورين وودعوها ممتنين لها وقفتم معها في لحظاتها الأخيرة بالمشفى.

مدت يديها تلمس كتبها فقد خصصت لهم ركنًا بغرفتها، كان معظمها يخص الفلسفة والتاريخ وخاصة الروماني منها، يليق هذا العصر، يشبه تفاصيلها الرقيقة.

وهناك أيضًا روايات انتقائية مختلفة تخص العظام، العقاد، المنفلوطي وتوفيق الحكيم وغيرهم.

ظلت أكثر من ساعة واقفة بين الكتب، تتقلب بينهم وتشم أوراقهم حتى أمسكت كتاب الفلسفة الذي كانت قد أهدتها إياه مرة حتى ترفع معنوياتها أثناء تلقي العلاج الكيماوي، قرأت إهداءها عليه بابتسامة وكان...

«إن المطر ينهمر دائمًا بعد الرعد».

ولمحت بالقرب منه تعليق منها.

«الحياة فيض من الذكريات تصب في بحر النسيان، أما الموت فهو الحقيقة الراسخة».

تعجبت، لم تفهم إن كانت تلك رسالتها إليها حتى تتأقلم مع فراقها أم أنها هي التي كانت تصارع نهايتها بالتنازل عن غريزة البقاء فيها؟ تحركت بالكتاب حتى تقعد به على فراشها، وهنا وجدت رسالة مطوية سقطت منه، التقطتها بأصابع مرتجفة، ففتحها بفضول حارب شعور الخوف الذي اعتلاها، بدأت في قراءة فحواها:

«مهجة، بنتي اللي مخلفتهاش والحاجة الحلوة الوحيدة اللي حصلت في حياتي آخر فترة، بيقولوا اللي بيموت بيبقى حاسس وأنا حاسة إن خلاص كلها مسألة وقت، مش عارفة نصيبك هتقري الرسالة دي وأنا في الدنيا ولا بعد ما ربنا ياخذ أمانته، أي كان اسمعيني كويس، أنا قلقانة عليك، مش قادرة أمشي وأسيبك وأنا مرتاحة وإنتي بتدمري حياتك وبتكرري كل اللي عملته وندمت عليه بعد العمر ما فات، فكري مرة ثانية في كلامنا، لو سمحت، أعتقد حياتك تستحق إنني تفكري فيها كويس وتحسي حساب أي قرار ممكن تاخديه، بتمناللك السعادة والراحة من كل قلبي».

سالت دموعها، لأول مرة منذ وفاتها، تلك العظيمة لن تتكرر، تتذكرها وهي راحلة وتتألم من نوبات مرضها القاسي، نهضت من على فراشها وتركت الرسالة، فتحت نافذة غرفتها كي تستقبل المزيد من ذرات الهواء ثم عادت لمكتبها الصغيرة من جديد. مدت أصابعها تمسك ألبوم الصور، تذكرت حديثها مع بتول عن الزواج ومخاوفها ورفضها القاطع لمجرد التفكير يومها.

وشرود في صورة لحليم وهو يقف بجانبها ويدعمها في أحزانها تظهر بتشوش بسبب دموعها، وكان قلقه عليها واضحًا ورغبته بأن تستعيد الرغبة في الحياة مرة أخرى كان همه الأكبر آخر فترة.

وعندما وصلت لتلك النقطة حاولت نفض تلك الأفكار فبسبب اهتمام عيونه رغمًا عنها ينبض قلبها له ومشكلتها الأزلية أنها تهرب من تلك الفكرة وليس الآن بل منذ أشهر طويلة. تهدت ونظرت لألبوم بتول الذي بين أصابعها، تأملت صورها، هناك صور قديمة جدًا تخص شبابها بالأبيض والأسود، كانت جميلة عن حق فلقد أنهكها الألم وعوامل الزمن.

كانت هناك صور مبتورة فهمت أنه هذا خطيها الذي تركها وتحدثت عنه معها، وكان هناك المزيد، صورة مع والديها في يوم التخرج، وأخرى بحفل زفاف شقيقتها المهاجرة على ما يبدو؛ لأنها كانت تشبهها، دمعت عيناها عندما تذكرت أنها لم تستطع أخذ واجب العزاء فيها؛ بسبب البعد وطول المسافة.

ظلت تقلب بين الصور حتى وصلت لصور عيد ميلاد علي، هذا الطفل الذي تبنته لفترة قصيرة وبعدها نزوه من وسط أحضانها. ازدادت دموعها غزارة، لا تستطيع حتى تخيل حالتها وقتها.

كان يبدو على الطفل أنه تعلق بها هو الآخر من صورهما وابتسامتهما والسعادة التي كانت تقفز من ملامح كلاهما.

ارتفع مندوب دموعها حد النحيب، الشهقات، أمسكت مذكراتها الخاصة بعدها، لم تستطع الاقتراب من قبل ولكن ربما اليوم هو يوم المواجهة، ربما بعد أن تتصادم مع أوجاعها يهدأ داخلها المضطرب، يا ليت يحدث!

بدأت تقرأ كلماتها، كانت عبارة عن رسائل لم تستقبل؛ لأنها لم ترسل قط ولن ترسل.

الآن علمت اسم خاطيها القديم -عامر- كانت تهبره في رسالة بكل غضب وفي أخرى تشتاقه بمنتهى الحب.

«لقد قرأت في رواية يا عامر أن الحب قاتل ولم أصدق وكأنني

كنت أقاوم الفكرة، بفضلك تحققت نبوءة الكاتب في».

تعلن تمردها ثم تعلن استسلامها، وبعدها في رسالة أخرى أخبرته أنها سامحته بعد أن دخل «علي» لحياتها، فكما أخبرته أن وجهه الجميل الصغير يبث السلام والتسامح، ومنحها بداية جديدة في كل شيء، ولم تتحدث عن إن كانت عادت بلعناتها وغضبها من جديد بعد رحيل الصغير، وكأنه فصل وانتهى من حكايتها أو شخصية أدت دورها المومج، وحن وقت نسيانها؛ لأن هناك أحداً أقوى وأهم من رثاء الحب والحبيب الضائع، ولم تنس أن تتحدث مع وليد، ذلك الرجل الذي كان يحبها فأبعدته بكل قوتها؛ لأنها قد عزمت أن تحذف كلمات الحب والزواج من قاموسها.

اعترفت له بعد ثلاثين عاماً من عرض زواجه أنها اكتشفت خطأها الفادح في حقها، وصفته أنه شخص جيد، مذاق، رزانتة تذكرها بأحمد مظهر.

كان سيصبح أباً عظيماً، وكانت ترى العشق في عينيه ولكنه النصيب.

«النصيب لم يختارنا وأنا على علم ولكني نادمة على عدم إعطائك فرصة، أعتذر على أنايتي معك».

وحن دور علي، هذا الطفل الذي أوجعها بفراقه وعاشت الحزن معه وكأنها لم تحزن.

كانت تخبره أنها اضطرت على الذهاب لطبيب نفسي؛ لأنها كانت قد تناست برحيله كيف تكون الحياة وكيف يعيشونها، فكما وصفتها شقيقتها كانت جثة تتحرك بينهم بلا وعي.

كانت في رسالة أخرى تعتذر منه، تقسم له أنها لم تتنازل عنه، ولكنهم أخذوه منها بالقوة، إنها تتمنى أن تراه الآن بعد أن أصبح شاباً يافعاً، ولكنها مشفقة عليه من حدث لا تظن أنه يعلم عنه شيئاً.

«علي، سأظل أناديك بطفلي الفاتن حتى ولو أصبحت رجلاً ذا هيبة وتمتلك حفدة، أنا أعلم أنني لا أشكل أي شيء في ذاكرتك أو حياتك ولكن أنت، كل حياتي».

عمر وعُمير، كما فهمت في الرسالة أنهما توأمها الخيالي، حلمت بهما أياماً وليالي، شردت في العالم من خلال ابتسامتهم وكان رائع بوجودهم حقاً.

«توأمي الغاليان، لقد عشت في ذاكرتي مواقف كثيرة تخصكما، حملتكما في قلبي واستودعتكما أمانة، لا تتوقفا عن الشغب؛ فضجيجكما حياة».

وأخرى كانت لفرح، طفلتها الروحية التي أسمتها أسوة لأخرى كانت من أطفال الروضة وارتبطت بها.

كانت تشبهها في التفاصيل ولكن خاصتها كانت أجمل، ابنتها هي أجمل وأروع فتاة على سطح الكوكب.

«فرح، مدلتني وآخر العنقود، ابنتي صاحبة السنّة المفقودة والراء الضائعة، لا تظلين تغارين من أخوتك، سأخبرك سرّاً، هما قد وقعوا بغرامك مثلي وأكثر ولكنهم يحبون مشاكستك».

ووصلت إلى آخر الصفحة بأعجوبة، التقطت بعض الأنفاس وكأنها كانت تركض في سباق رياضي، مسحت بعضاً من دموعها التي أغرقت المذكرات التي بين يديها.

وقرأت الرسالة الأخيرة وكانت لمرض السرطان ويبدو أنها خطتها حديثاً:

«ربما لن أنجح بهزيمتك، ولكني أعدك أنك لن تفعل».

أيقنت مهجة وقتها أنه حتى لو تعذرت سطورها ستظل حروفها ومحبتها باقية...

لن تصمت أبدًا.

(الحب ليس في الآخر، إنه موجود داخلنا، ونحن من
نوقظه من غفوته، لكننا ولكي نوقظه نحتاج إلى الآخر.
ليس للكون من معنى لحين يكون لدينا أحد يشاطرنا
انفعالاتنا)

—باولو كويلو—

هل جريت إحساس الصدمة؟ أن تدخل مشاعرك داخل خلاط كهربائي متعدد السرعات وتخرج منه وأنت لا تفهم أي شيء. كانت بين اثنين، تقعد بجانبه، تود قربه، تشعر بقلبي ينبض له بخفوت وعلى استحياء وبين مخاوفها وأفكارها بشأن الرجال عامة. واجهت نفسها.

قلبي ينبض له منذ فترة، منذ أن اقتريا بدافع الصداقة، منذ شاركتها مشاكلها وانتظرت آراءه، وحتى شجاراتها معه كانت بسبب شعورها أنها تنجرف نحوه وأرغمت نفسها كي تقاوم.

وقاومت، ظلت تقاوم حتى آخر نفس وآخر قطرة.

مقاومتها ناتجة عن عقدها وأفكارها، عن حكايات تسمعه، أشياء مقززة عاشتها مع مقربين منها وكانت على علم ويقين أن مقاومتها تلك ستحميها، ستنقذها من هوة سحيقة سقط فيها غيرها، حتى وفاة بتول، كانت الأمور بينهما أكثر استقرارًا، وكأنها جاءت خصبًا كي تشجعها على التقرب منه!

رأت فيها نفسها بعد أعوام طويلة، عاشت مع تفاصيل حكايتها نتاج قرارها بالوحدة.

مال قلبها للأطفال رغمًا عنها وارتبطت بهم بدرجة زائدة، ضغطت على زر أمومتها حتى فاضت منها وأريكتها، أثر فيها موتها واختل توازنها

وهو فعل كل ما بوسعه حتى يخرجها من عزلتها وأحزانها، ظل يسأل عنها باستمرار، يقلبها يوميًا من العمل إلى الروضة حتى لا يتركها وحيدة مع أفكارها، يمر عليها في المساء حتى يأخذها إلى المنزل، ويظنان يثرثران تحت العقار لأكثر من ساعة تحت أنظار أمها الفرحة بتحسّن حالتها النفسية، وقتها شعرت وكأن العالم فارغ من الحياة إلا في مقلتيه وهو قطع مسافات طويلة لشعوره بأن تلك رغبته وما تريد. لا تصدق أنها قد وصلت إلى هنا، اقتربت منه لدرجة أنها فكرت فيه بجدية، زوج وزوجة ومنزل وضجيج أطفال، مجرد أنها تفكر في الأمر معجزة بحد ذاته.

فركت أصابعها من التوتر، لقد طلبت أن تلتقيه حتى تفضفض له كعادتها مؤخرًا عما بداخلها، ولكن تلك المرة الوضع أصعب؛ فتلك المعارك الآن تخصه، ولا تعلم أن هو الآخر في قلب المعركة، والمعركة خاصته بدأت بعد أشهر قليلة من الخطبة، انتصرت فيها مشاعره ونال هزيمة مشرفة بكل سرور، ولم يمنعه عنها سوى شعوره برفضها. دائرة يتحركون فيها منذ أشهر، ولا أحد يعترف ولا أحد يصدق ما يقرأه بوضوح في عين الآخر.

«لف» و«دوران» والطريق مرسوم بوضوح في خريطة النصيب ولا مهرب.

منذ رحيل بتول وهو لم يفارقها تقريبًا بدعوى مساندة وصدّاقة، وحتى إنه يرتاب الآن من طلبها بالتقائه، فإن كان يشعر أنها تبادله بعض المشاعر هي الأخرى، فهو ليس واثقًا من فكرة أنها على استعداد بأن ترتبط به ارتباط حقيقي كما الخلق والأناس الطبيعيين، وتلك العيون لا تمت للطبيعية بصلة؛ فعيونها امتصت جنون العالم واحتفظت به لنفسها.

سعل عندما شعر أنه انجرف مع عيونها اليوم أكثر من اللازم لدرجة أنها توترت، سألته بابتسامة خجلت من الموقف:

- بتبصلي كده ليه؟
وهو أجابها بسخريته المعتادة ولا تفهم أي شيء:
– إنتي كويسة يا جيرمين.
ثم صحح مسار كلماته وسألها:
– بقيتي أحسن؟
وأجابته بعدما أشارت برأسها نفيًا:
– مش عارفة، يوم كده ويوم كده.
وأردفت بشجاعة:
– بس الأكيد إن دماغي وحياتي كلها اتلخبطت.
وأضافت بعدم توازن:
– اللي عشته مع بتول خلاني خايفة من الوحدة.
وأكملت بشيء من اليأس من عدم الوصول لنتيجة:
– واللي عشته مع أختي خلاني خايفة أرتبط.
وعينها تسأله بشكل خاص، راسلته بإشارات وعيناه وحدها من
يمكنها استقبالها.
– أعمل إيه يا حلیم؟
وبثقل وإجهاد واضحين أخبرته:
– أنا واقعة بين اختيارين مش عايزة أعيش حاجة منهم.
ومسحت بيديها على وجهها وأردفت:
– أنا حاسة إنني قربت أتجنن.
أخبرها بيقين من الفكرة:
– مفيش حاجة مضمونة في الحياة.

وأكد لها وعيناه تتحدث بوضوح عن لسانه:

– مش يمكن السعادة تستاهل مغامرة؟

وبالنسبة إليه مجرد حديثها كان ضوء الأمان. نبرتها الخاصة وكل ما تحمله له في عينها من مشاعر تنشد أمانه!

ونظراتها تلك أفنت مقاومته هو الآخر وأوقعته صريعاً في شباك هواها، وتلك الأغنية تليق كخلفية للمشهد خاصتهم كصراع يدور بين المشاعر والخوف والجمهور يصفق منتظراً انتصار الحب بعد لكمة النهاية.

خايف أقول اللي في قلبي تتقل وتعدن وياي

خايف أقول اللي في قلبي تتقل وتعدن وياي

ولو داريت عنك حي تفضحني عيني في هوايا

بدايته معها كان اتفاق مسبق مدفوع الأجر، استفزه دلالتها ولن ينكر جمالها. كان يشعر بأن عرضها يمثل مرآة لإحباطه من الواقع، وافق نعم، وبرأيه أنه عمل، عرض وطلب وقبول ورفض، ثم لا يعلم كيف لفت خيوطها حوله فوقع في شباكها عاشقاً!

والوضع خرج عن السيطرة؛ فالعيون تفضح ما تظن القلوب أنها بإمكانها ستره، والغبية ما زالت تسأله رأيه، هل الزواج يستحق التجربة؟ هل الأمومة تستحق مجازفة؟ أين الصواب وما هو الخطأ؟

وهو غارق في انفعالاتها، يراقب توترها كلما كانت تفرك أصابعها بالتوازي مع حركة لسانها، وأما مقلتها فقد كانت تبحث عن إجابات لأئلة أخرى لم تفصح عنها؟

ومن لا شيء وجد نفسه يخبرها، تحرك القطار من المحطة ولا مجال لأي عودة محتملة.

– أنا بحبك!

وليكتمل جنون اللحظة سألها بكل رغبة واهتمام:

– تتجوزيني يا مهجة؟

وتلألأت بعض قطرات الدموع في عينيها، لا تعلم حتى ماهية مشاعرها، أتلئ السعادة؟ أم أنه الجنون؟ أم أنها سقطت في الحب؟ والسعادة لا بد أن يلازمها خوف، خوف من الخسارة والندم...

وكأنها اعتادت الخوف فبات صديقًا مقربًا منها في كل لحظة، سألها عن سبب دموعها فأكتفت بإجابته:

– خائفة.

– مني؟

أومأت برأسها نفيًا؛ فربما لأنه الوحيد الذي طمأنها نال قلبها:

– من الفكرة.

وأوضحت:

– مش يمكن تتغير أو تتجوز عليا؟

وأكملت بعدم فهم للوضع ككل:

– الواحد كل يوم بيسمع حكايات مرعبة.

وحينها مازحها:

– لو خائفة اتجوز عليك متخافيش.

وبرقت عيناها باهتمام فأردف:

– أنا مش لاقى اتجوزك إنتي الأول.

وضحكت، فنال مراده، ومن هنا بدأت المغامرة.

الفصل الثامن والعشرون، والأخير

(سنين وممرت، زي الثواني)

«بعد خمسة أعوام».

وقوف مشرف جدًّا بالمطبخ، امرأة «سترونج» وحسبي الله ونعم الوكيل، طعام كاد يحترق بسبب «زن» عُمر وفقرة الرضاعة، والأخرى تقود الدراجة خاصتها داخل المنزل لتتحول هي للأم المجنونة التي تصرخ بأطفالها الملائكيين كل دقيقتين وبعدها تراضهم. كادت تتوسل إليهما، كل ما تتمناه وتندسه نصف ساعة يتركونها خلالها حتى تنتهي من تجهيز طعامهما. زعقت بابنتها الكبرى وفي سرها تلعن حليم واليوم الذي تزوجت به:

– يا فرح قلنا للعب براحة عشان أخوكي ما يتخضش.

والصغيرة رفعت حاجبها باعتراض:

– على فكرة هو امبارح ضربني على وشي.

وعندما لم تجد منها إجابة نادت عليها:

– يا مامي!

وحينها تلبست مهجة الوجه «الكبوت» وتدنت من مستوى ابنتها مخبرة إياها:

– يا روجي أخوكي صبغنون مش فاهم.

ولم يعجبها الرد بالطبع فقررت مهاودتها:

– حاضر، هبقى أقوله متضربش فرح تاني.

وعادت الطفلة تعترض من جديد:

– مش إنتي قولتي إنه صبغن ومش بي فهم هتقوليله أزاى!

«الصبر يا رب».

وجاء حليم من العمل، وفي وقته تمامًا.

– حليم خد بنتك شوية أنا دماغي ورمتم.

والطفلة ركضت كما المتعاد نحو أبيها وأثارت غيظها وأحقادها

الدفينة، ارتمت في أحضانه وهو قبلها.

ابنته تشبه عمها فاطمة للغاية، وتعشقها ومتعلقة بها لهذا

السبب، وفي كل زيارة له بالبلدة لا تركهم يرحلوا بسهولة بفضلها.

شرد بسعادة، ملامحها تذكرها به وتذكره بأن شقيقته قد حررت

من ذنبه في حقها بيوم زفافه وأمام الجميع، واعترفت له بدموع سخية

أنها سامحته منذ زمن بعيد، ولكنها كانت تكابر وتعاقد ولا تفهم السبب،

بل وطلبت مسامحته هو الآخر؛ لأنها كانت تخرج غيظها في تعذيبه

بكلماتها الجارحة وهو اكتفى بأن يحتضنها يومها لتعود إليه الحياة

وتستقر الروح المجهدة بعد عناء.

عاد من شروده على ابنته التي تتساءل عن حلواها ومنحها إياها،

ومهجة اعترضت بكل تأكيد وقررت أن تواجه طفلتها بما في قلبها من

تراكمات:

– يا سلام، طلعت أنا الساحرة الشريرة في وسطكم!

وحينها قالت لابنتها بلوم:

– يا حبيبي هو أنا بعدنك مثلاً.

وسألها بنبرة تبغى تعاطفها:

– مش أنا مامي اللي بتاخذ بالها منك وشالتك جوة بطنها وإنتي

نونو صبغتن جميل كدهون.

والطفلة أجابت بعد ثوان من التفكير:

– مامي حبيبي.

وقبل أن تنفجر أساريرها ابتهاً وفرحاً وجدتها تكمل كلماتها:

— بس بابا هو اللي معاه الجنيمات والحاجات الحلوة.

«أين الجيمية؟! أنا لا أراها!»

رفعت حاجبيها بذهول، طفلة مادية عقلانية «بسم الله ما شاء الله» ومن شابه أباه فما ظلم، وابتسم كاتمًا ضحكته متأماً قبل جيمتها المقصوفة بينما هي عادت للمطبخ راكضة حتى تلحق الحليب قبل انسكابها، ولحظتها قرر اتخاذ خطة الهروب التكتيكي من الدب المكسيكي واتجه بخطوات هادئة نحو غرفة الجلوس حيث التلفاز ومباراة ريال مدريد وبرشلونة واستديو التحليل كل تلك الأشياء الرائعة.

نادته من المطبخ بعد دقائق مرردة وتعلم أنه لن يفعل:

— حلیم بص على عمر.

ولا حياة لمن تنادي؛ صمت تام رهيب، لا صوت ولا همس ولا نفس، انتابها القلق والفضول؛ فهذا الصمت شيء نادر الحدوث بمنزل المجانين هذا.

خرجت من المطبخ ومعها سكين التقطيع، وبحثت عنه بالمنزل حتى وصلت إلى غرفة التلفاز. الطفلة صامتة؛ لأنه أعطاها هاتفه فانسجمت مع لعبتها المفضلة، وهو لم يبدل ملابسه حتى وركض نحو التلفاز كي يتابع مباراة كروية. تفوهت بغيظ والسكين ما زال بين أصابعها:

— الله عليكم بجد.

وعندما لمح للسكين الذي بحوزتها قال لها مازحاً:

— استهدي بالله يا جوجو، السلاح يطول.

انتهت لصوت المذيع يفصح عن هدف لفريق برشلونة، قفز حلیم من مكانه وحمل فرح وظل يدور بها بالغرفة، سألته ومن صياحه لم يسمع، كل تلك الأسئلة المهمة الوجودية ستخرج بتلك اللحظة؛

فالشياطين تتحرك أمام عيناها بتلك اللحظة.

– هو إنت ليه مش بتغير لعمر؟

وأردفت:

– ولا هو ابني لوحدي!

«أهلاً بالهرمونات والموود الشراني وجنون حواء».

أخبرها بينما كان تركيزه مع المباراة:

– حاضر، إن شاء الله وألف ألف مبروك.

حركت السكين بغيظ؛ وكانت بين أن تقتله أو أن تقتله، ولم ينقذه سوى صوت بكاء الصغير الذي يتجدد، يبدو أنها كانت مجرد هدنة ولم يعد للنوم كما توقعته.

مؤامرة عائلية، الطفلة وأخوها في صف أبيهما ولم تعد تطمح سوى بأن يكبر عمر ويأخذ صفها ويدافع عنها فتستمتع بإغاضته كما يفعل هو، حملت طفلها وشرعت بتغيير حفوضته، قامت بإرضاعه ثم داعبته وقبلته حتى الشبع.

وكعادة أي زوجة مصرية نكدية قامت بصب اللعنات على رأس زوجها وتناست كل مميزاته؛ لأنه أبدى اهتماماً بالمباراة أكثر منها ومن طفله. وضعت عمر في مهده وتوقفت أمام المرأة تتأمل حالتها، شعرها تضاءلت كثافته بدرجة كافية لتقهرها، استبدلت حمرة وجهها ببعض الهالات السوداء ومع فقدان الوزن أصبحت «جلد على عضم» كما تصفها أمها.

«يا صغيرة على الهم يا لوزة».

وقتها حان الموعد الرسمي للسؤال المعتاد المتكرر.

«هو أنا أتدبست ولا بيتيهأي؟»

ولم تعجبها الفكرة، تذكرت حالها السابق، كانت تفعل ما تريد دون

أن تأبه للعالم، كانت حرة.

وقتما تزعج تأخذ دراجتها الوردية وتتحرك بها في وسط الشوارع حتى تهدأ وإن أزعجها أحدهم تثق في مطواتها «البنك» كونها ستحميها، كانت أكبر من كل التفاصيل والآن، الآن هي تعيش التفاصيل، زوجة وأم ومسئوليات لا تنتهي وحياة مكررة منهكة وصعبة.

لن تنكر، هناك لحظات جميلة، ذكريات خاصة مع حليم، سعادة يقتطفونها من بين زحام المسئوليات وأطفالها بالنسبة إليها بالدنيا ولكن شعورها بأنها تغرق بتلك الدوامه يزعجها.

لقد أخذت إجازة من العمل بالبنك دون راتب لمدة سنة حتى يكبر عمر ويكتف من الرضاعة، وروضة بتول بالكاد تمر عليها كل يومين، ورغم أن أمور العمل هناك تسير على خير ما يرام خاصة بعد أن افتتحت العام الماضي فرعًا آخر للروضة، وبعد أن نجحت بتعيين مشرفًا مسئولًا وأمينًا يتابع الأوضاع، ويقوم بحل المشاكل الطارئة يوميًا إلا أن هذا الشعور بالتقصير يملأ داخلها.

عادت للمطبخ وهي على حالتها، قامت بتحضير الطعام، جلست تطعم ابنتها بصمت وبعدها نهضت تحت أنظار تعجبه، ماذا حدث وأزعجها؟ النساء نكديات غريبات الأطوار.

ذهب وأخذ حمامه، ارتدى ملبسه واستعد للنزول لعمله الإضافي، وعندما وصل للباب توقف، عاد إليها وكانت تقوم بغسل الأواني وهي على نفس حالة الصمت سألتها:

– هو فيه إيه؟

– مفيش.

وفكر في المزاح معها وقرص وجنتيها ولسانه يردد:

– أومال إيه التكشيرة دي؟

زعقت مرددة:

– حليم بطل حركاتك دي لو سمحت عشان مش طايقة نفسي.

كرر سؤاله:

– أيوة، ليه بقى؟

ألقت الملعقة التي بيديها بالحوض ثم قالت له بعدما استدارت له:

– كده، تقدر تعتبرني متخلفة.

عقد حاجبيه وتذكر، هو من البداية وقع في غرام هذا التخلف العقلي واختاره، وعلى كل شخص أن يتحمل نتاج اختياراته، أعاد سؤاله وحاول أن يخرج بمنتهى الهدوء:

– فيه إيه يا مهجة؟

وأجابته بكلمات غارقة بالعمق:

– أنا خلاص مش لاقية نفسي، تهت في الزحمة.

نظر لها عميقًا، توترها الزائد اليوم مع انتفاخ أنفها ذكره بالليلة التي علمت فيها أنها تحمل عُمر بين أحشائها.

كان شجارًا صاخبًا بدأ بسبب شعورها بفقدان نفسها وانتهى بأن قامت بإخراج بعض الأطباق الصيني من «النيش» وتحطيمها في حالة هياج، وكان يبدو في عينيها أنها على وشك الوصول لتلك المرحلة فقط تنتظر إشعال الفتيل.

– إنتي حامل ولا إيه؟

برقت عيناها تفكر وقالت له نافية:

– لأ طبعًا مش حامل.

ثم أزدادت بصوت مخنوق:

– أنا تعبت، كل يوم بأكل وأرضع وأنضف وأذاكر وألف في

الساقية ويا ريته عايب!

أشار نحو نفسه:

– مش عايبني أنا؟

– أهو مش عايب وخلص.

اقترب منها وقد بدأ صبره ينفد:

– هو أنا يعني الساعتين اللي بقعدهم في البيت قبل ما أنزل أروح

الشغل الثاني هقضمهم في خناقة على حاجة معرفهاش؟

وأردف:

– ولا هو أنا قاعد جنبك طول اليوم وشايفك تعبانة وبقر قلب.

وأكمل:

– ولا كأنه طالع عين أبويا عشان أكفي مصاريف البيت و أقساط

الشقة ومدرسة وكورسات طفلة يدوبك كملت أربع سنين من أسبوع!

سألته مهجة بذهول:

– انت تقصد إني ست مش مسئولة ومحملاك فوق طاقتك؟

– أنا مقولتتش كده.

ثم أشار بيده بمعنى «لا فائدة من كل هذا على ما يبدو» وأخبرها:

– بقولك إيه أنا نازل، سلام.

وتركها صافقًا الباب خلفه وهي ركضت نحو غرفتها وألقت بنفسها

على فراشها، ظلت تفكر وتفكر وتفكر وفي النهاية قررت، ستقطع إجازتها

وستعود لنفسها وستنجح في أن توازن بين المنزل والعمل، وستكون

«اندبندت وومن» كما اعتادت أن ترى نفسها، ورغم أنها اتخذت هذا

القرار إلا أنها لم تهدأ سريرتها، ما زالت تشعر بالرغبة في تحطيم المنزل

على رأسها ورأسه.

(الأعوام تغير الكثير، إنها تبدل تضاريس الجبال،
فكيف لا تبدل شخصيتك؟)

— أحمد خالد توفيق —

عادت إلى منزلها والسعادة تكاد تنفجر من ثغرها المتباسم، دخلت لغرفتها في حالة استجمام قصوى تتأمل ملامحها وهيئتها على غير عاداتها، تضبط ياقة قميصها وتعدّد حاجبها وتتقمص شخصية المدير الجاد العابس الذي لا يعجبه أي شيء ويقوم بتوبيخ موظفيه على أتفه الأمور قبل أعظمها، وتذكرته.

كالعادة طيفه يقترحها في أقصى أوقاتها سعادة أو أشدها كآبة ويأس، وكأنه يتسلل إليها عندما تصل حالة مشاعرها للقمّة أو ربما هي تنجح في مقاومتها فقط فيما عدا النقيضين، وتهار مقاومتها أمام قطار ذكرياتها معه.

هي تعلم أخباره من خلال حديثها العابر مع إيمان والتي لم تنقطع علاقتها معها منذ الطلاق ومستمرة إلى الآن.

علمت أنه منذ أربعة أعوام قد ارتبط بفتاة، وعندما شاهدت صورتها على الانستجرام شعرت أنها تليق به ربما أكثر منها.

ورغم أن تلك الصورة جددت آلامها وأثارت الوجع الدفين إلا أنها تمنّت له السعادة، وحتى عندما تم فسخ الخطبة بعد مدة قصيرة ودون أسباب واضحة حزنّت وتمنّت من كل قلبها أن يجد شريكته، وتستقر حياته، ويسعد مع غيرها، ويحقق كل طموحاته لأنه يستحق.

يكفيها أنها كانت آمنة في منزله رغم انتزاعها لحياته، تهتدت هروبًا منه، ووقتها دخل أبوها عليها الغرفة وبرأيها أنه جاء في وقته تمامًا حتى

يهرب طيف الماضي من أمامها.

ذهبت نحوه، أمسكت يده، رقصت معه على موسيقا من خيالها وهو اندمج معها ولسانه يردد لها بسعادة غير مسببة انتقلت إليه بالتبعية:

– يا سيدي على الروقان.

وحينها كانت أمها مارة من أمامهما فتوقفت تراقبهما بتعجب متسائلة:

– ده خير إن شاء اللهن ما لكم؟

توقفت عن الرقص مع أبيها وتنحنحت وأخذت نفسًا عميقًا، وكأنها على وشك إلقاء خطبة جماهيرية ونطقت في النهاية بعدما وضعت يديها على حافة ثغرها:

– أنا اترقيت، بقيت السيدة مديرة قسم المشتريات في الشركة. لم ينل الحدث اهتمام أمها وكان ظاهرًا في صمتها، ولكن على العكس احتضنتها أبوها وأخبرها:

– بنتي أشطرواحدة في الدنيا كلها.

وهي أقرت:

– مش قوي كده، هو بعد ما المدير اللي كان موجود ساب الشغل هما عرضوا على نوال وهي مش حابة الفكرة فرشحتني لهم بما إني الأقدم في القسم بعدها.

أمسك وجنتيها وأخبرها:

– برده أشطرواحدة، إنتي تعبتي قوي في الشغل السنين اللي فاتت وهما أكيد شايفين.

– يا رب بس أكون قدها.

– هتكوني، قدها وقدود متخافيش.

– كلام فاضي والله.

وتلك كانت كلمات أمها الممتعضة والتي حاولت كتم انفعالاتها قدر الإمكان ولم تنجح، برأيها أنه لا فائدة من كل هذا، بل وأنها تعمل وتريد أن تنجح كي تنفي حقيقة أنها خائبة الرجا وكل فتيات العالم تزوجن سواها، حتى ابنة خالتها المعقدة لديها طفلان وتحيا مع زوجها بسعادة. وقرأت ريم كل هذا في عينها قبل أن ترحل وتتركهما وتذهب للمطبخ تخرج فيه طاقتها المكبوتة، تلاشت ابتسامتها وشردت في الكثير من الأشياء المزعجة، وحينها ربت أبيها على كتفها وأخبرها بحنو:

– متحطيش في دماغك يا بنتي، افرحي ولا يهملك.

ولن تهتم، لن تبالي بالفعل، أساسًا هي أصبحت لا تبالي منذ زمن طويل.

منذ أن كانت ستخسر حياتها قريبًا لإرضائهم على حسابها، وهي قررت أنها ستضع نفسها وأمورها ومشاعرها وما تريد في مقدمة أولوياتها؛ لأن النهاية لن أحد سيحيا حياتها سواها.

باتت تلقي كل ما تراه وكل ما لا يعجبها خلف ظهرها، أقسمت أنها لن تضعف أمام رغباتهم مجددًا ولن تكون محل تقييم الجميع وتنتظر رأيهم فيها بشغف. سترضي نفسها بنفسها وتهتم بأمورها، وتربت على كتفها وتحضن روحها إن لزم الأمر.

تركها أبوها حتى تبدل ملابسها وهي عوضًا عن ذلك ارتمت على فراشها تعبت بهاتفها؛ فالיום هي جاءت بحدث عظيم يستحق التأمل والعودة لما فات.

خمسة أعوام قد مروا على طلاقها، عُمر كامل أضيف إليها وعاشت خلالهم الكثير والعظيم.

لقد صارحت أهلها بما في قلبها من مشاعر سلبية تجاههما كونهما

السبب في الدمار الذي آلت إليه.

لم تتأثر أمها كثيرًا، ولكن الثقل ازداد على أبيها وأصيب بداء السكري وقتها لإحساسه البالغ بالعجز ومن حزنه على حالتها.

وقتما علمت اعتذرت منه، ذهبت وبكت أمامه طوال الليل، أخبرته أنه أفضل أب، وأن سلامته ووجوده بالدنيا وما فيها.

وبعدها استقرت الأمور لثلاثة أشهر وعادت الزواجع تغزو حياتها من جديد، عريس متيسر الحال، يقرب لزميلة خالتها بالعمل، أرمل ويعول ثلاثة أطفال ويبحث عن الاستقرار والجميع وجده لديها.

مانعت، لا تريد الزواج، هي لم تكن قد خرجت من تجربتها الأولى بعد ولن تتخيل نفسها مع أي شخص سواه.

كانت حطام، أشلاء تتحرك على الأرض، كارهة لنفسها ولحياتها فأى حياة ومستقبل يتحدثون عنه؟

لم يجبرها أي شخص على شيء هو الظاهر ولكن كلماتهم فعلت، حديثهم عن قلة فرصها كونها مطلقة، وعن حديث الناس الذي سيظل يلازمها قام بواجبه بأكمل صورة.

أمها من جهة وخالتها من جهة ومع ضعفها وافقت على الجلوس معه، وافقت وغضبت على نفسها لأنها فعلت، سبتها ولعنتمها على تخاذلها المعتاد أمام رغباتهم وهوانها.

لن تنسى هذا اليوم طيلة حياتها، حددوا موعد زيارة العريس المبجل لمنزلهم على التاسعة مساءً وأخبروها، ومنذ أن علمت وهي كانت أخرى.

توترها انفجر عليها، ازداد وجعها ومع آلام افتقادها له كان الأمر لا يحتمل. كانت تمسك زجاجة المياه بين أصابعها وبلا وعي تلتقط حبة من مهدئها الذي احتاجت استخدامه أيامها ولم يتغير شيء.

خُفي عنها أن آلام الروح لا يخففها مسكن أو يعالجها دواء. تتذكر مقابلة صالونات فتيبلع أخرى، تشرذ في تهكم أحدهم فتحتاج جرعة زائدة، تتذكر سيف وما فعلته بحياته فتبكي فتيبلع أخرى فأخرى.

يرتفع توترها للقامة، تغضب على سلبيتها وتناشد نفسها بأن تخرج لأمها وتخبرها بشجاعة بأنها لا تريد الزواج، ولن تقابل هذا الشخص، وعندما وجدت نفسها لم تتحرك ابتلعت حبة زائدة.

لم تعلم بالضبط كم قرصًا ابتلعت وهي أساسًا لم تكن واعية لأي تصرف وفعل، بدلت ملابسها رغم دوران رأسها، صداع بالغ كاد يفتك برأسها فاحتاجت قرصًا مسكنًا حتى يمكنها من فتح عيونها، خرجت من الغرفة وزينتها كانت شحوب وجهها، خطوة فأخرى فسقطت، هبوط حاد، غسيل معدة وحالة انتحار ظاهرية.

وربما لولا تفاوت الوقت بين الأقراص ولولا رحمة الخالق لكانت في خبر كان.

اعترفت لمهجة فيما بينهما أنها لم تكن متعمدة بالانتحار، ولكنها لم تنكر أن وجودها بالحياة من عدمه لم يشكل فارقًا لديها وقتها، وسخرت داخلها، كلاهما انتحار، استغلّت مهجة الفرصة ولامت خالتها كونها المسئولة الأولى عن خسارة وحيدتها في رحلة البحث عن عريس الغفلة، بل وأخبرتها بأنها لو ظلت تجبرها على تلك الأشياء ستكرر تلك المحاولات، ومن يدري إلى متى سيكون الحظ حليفها.

قالت لها أشياء كثيرة لم تقو ريم على النطق بها، ولكن دموعها كانت تؤيدها، وكأي أم خافت على صغيرتها.

لم تفتح معها تلك السيرة مجددًا والحمد لله وبسبب مهجة ونوال تخطت تلك المرحلة الصعبة وتحسنت علاقتها مع نفسها قبل الجميع. فتشت عن ريم بكل الأماكن حتى وجدتها، حبّتها، فهمتها واهتمت بالتفاصيل التي تسعدها. رحلة طويلة وصعبة واليوم أضافت خطوة

جديدة ناجحة لسجلها، وصلت، وضعت يديها على فمها بعدم تصديق.
هي مريئة وفعالة وصاحبة كيان ووجود، هي ليست فاشلة أو خائبة
الرجاء.

ناجحة.

ناجحة.

ناجحة.

لم تكن تتخيل قط أنها ستحرز مثل هذا التقدم في العمل يوماً ما
ولم يكن ببالها.
الحمد لله.

استيقظت من غفوتها بغرفة الأطفال بسبب رنين هاتفها وكانت
أماها، قررت أن تحادثها لاحقاً ونظرت للساعة ووجدتها الثانية عشرة
ظهراً، اتجهت بعينها نحو عمر وكان لم يستيقظ بعد فحمدت ربها.
أنهكها طوال الليل وهي بعد أن ذهبت فرح مع أبيها لمدرستها تقريباً
فقدت الوعي. لقد فضلت المبيت في تلك الغرفة؛ لأنها لم تضمن إن
كانت ستكمل شجارها مع حليم في حالة رؤيتها له وربما لشعورها الدفين
في تلك الأيام أنها لا تطيقه، ولأنها تريد أن تخبره بقرارها بشأن العودة
للعمل وهي مستعدة ذهنياً ونفسياً للرد على أي اعتراض قد يبدر منه.
من يدري؟

فهو الآخر ردود أفعاله غير متوقعة وكحال الرجال يتصرف حسب
«الغزاة».

تساءلت، ما بالها متوترة هكذا وتحمل الأمور أكبر من قدرها؟ هل
نفدت طاقتها أم أن هناك أسباباً أخرى!
شردت قليلاً وأمسكت هاتفها تنظر للتقويم، برقت عيناها وتذكرت

كلمات حلیم بشأن الحمل!

هل ممكن؟ لا لا لا يمكن.

قامت بالاتصال بالصيدلية وجاءها مندوبها للمنزل في نصف ساعة باختبار حمل منزلي، إيجابي النتيجة.

دمعت عينها، لا تعلم ماهية شعورها، سعيدة أم حزينة وربما متفاجئة.

طفلها ذو السبعة أشهر ما زال صغيرًا وبحاجة لرعايتها، والمسؤوليات تزداد على عاتقها بدرجة مثيرة لجميع المشاعر، والرغبة بالبكاء.

أمسكت هاتفها وحادت أمها بكلمات مقتضبة بعد أن ألقى عليها عبارات السلام.

– ماما ممكن تعدي تجيبي فرح من المدرسة وتيجي تقعدي بالولاد شوية.

وأما اعترضت في البداية:

– مش هقدر أسيب منال وهي كده.

وكان اعتراضها أقوى:

– منال هتولد بعد بكرة وهما كام ساعة وارجعيلها.

ثم أكملت بنبرة تملك الضيق منها:

– أنا كمان محتاجالك يا ماما.

– ما لك؟

وأخبرتها مهجة على عجال:

– ورايا حاجات ومش عارفة أخلصها بسبب الولاد.

ثم تفوهت بنفاد صبر:

– هتيجي؟

– هاجي يا حبيبي حاضر مسافة الطريق.

وعندما جاءت مع الطفلة وجدتها مرتدية ملابسها، قبلتها وقبلت فرح بطريقة مريبة وبعدها ذهبت لعمر وقبلته هو الآخر عدة مرات وتلك المرة بكت، وكأنه وداع!

– هو إنتي رايحة فين؟

واكتفت مهجة بإجابتها وهربت سريعاً من أمامها:

– ورايا شغل.

وحاولت أمها إسكات هذا الصوت الذي يشكك بعودتها، لا تبدو في حالة طبيعية.

«استريا لي بتستر».

أمها ترى أمامها «محسن» لا «مهجة» والفارق كبير، والأخرى اتجهت إلى أقرب معمل تحاليل طبية، حملت النتيجة وشردت في وجهتها. كانت تمشي بلا تخطيط، تتخيل نفسها على دراجتها وهي تسير بين الشوارع بأقصى سرعة، تبحث عن حريتها في خيالها وتتأمل نفسها بعد أن قيدها المسؤولية وضغطت عليها مصاعبها.

سخرت داخلها؛ لقد انتوت العودة للعمل، وجدت فيه الحل وبداية طريق استعادتها لنفسها، ولكن مع الوضع الجديد كان هذا الاقتراح ما هو إلا درب من دروب الخيال.

ذهبت إلى حديقة الأزهر، أغلقت هاتفها ثم قعدت على مقعد تراقب العائلات، وعندها تيقنت أن تفاصيل الحياة متشابهة.

شجار بين الأطفال على بالون وزعيق من الأب وانشغال الأم بما يخص الطعام، وهناك على الجهة الأخرى عاشقان، يمنحها وردة فتمنحه ابتسامة بلهاء، وكان في عينيه المكر وهي لا تراه؛ لأن حبه

أعماها.

تريد أن تخبرها بما استشعرته حاستها السادسة، إن هذا الرجل كاذب حتى النخاع، يتلاعب بك أيتها «الهيبة» وسيسرق قلبك ومشاعرك وأشياءً أخرى، وبعدها يتحدث عن النصيب الذي لم يجمعكما.

يتحدثون دومًا عن مكر ودهاء النساء وهي موعودة لا تقابل سوى الحمقاوات منهن، ظلت مكانها لفترة لا بأس بها، تهرب من واقعها لحكايات أخرى حولها، ساعة جرت خلفها أخرى ثم انتهت لصوت الأذان، الشمس تغرب وماذا تفعل هل ستعود؟

بدا لها القرار مشوشًا، لم تصل لتلك المرحلة من نفاذ الطاقة سابقًا. أسئلة كثيرة حية تحركت أمام عيونها متلهفة في البحث عن جواب.

هل تناولت فرح طعامها أم أنها راوغت وانتهزت انشغال جدتها وألقته في سلة المهملات كعادتها؟

وعمر، هل هو بخير؟ أم أن من المحتمل أن ترتفع حرارته مجددًا بسبب تلك السيئة التي تزعجه بخروجها بمقدمة فمه منذ أيام.

وحليم، هل يشتاها؟ هل ما زال يحبها أم أن حبه زال بعد أن امتلكها كزوجة؟

خرجت من الحديقة وأمومتها قادتها باتجاه العودة وإن كانت قدماها تكبلها كل تلك الأعباء، قلبها يخفق لهفة لأطفالها وتلك هي الأمومة ببساطة.

مسحت بيديها على بطنها، تتواصل مع جنينها، تتخيل ملامحه، لو يأخذ سمار حليم وعيونه ومنها الفم والأنف سيكون أروع طفل بالعالم. اعترفت بابتسامة خرجت رغماً عن رغبتها البكاء، تتمناه ذكرًا وحينها ستسميه «عمير» وقلها يشتهي أمنيته ويخفق لأجلها، وكأنها

تسعى بكل ما تملك لتحقيق أمنيات بتول على أرض الواقع فيها.
استقلت «الأوبر» بعد أن شعرت أنها ابتعدت عن المنزل وقد
أنهكها التفكير أكثر من المشي والحركة.

وجدت حليم ينتظر على بوابة العقار ولا تعلم أنه يبحث عنها منذ
ساعات وكل مرة يتوقف عند البوابة ولا يصعد، اقترب منها وسألها
بملامح ثابتة:

– كنتي فين؟

ولم تجب، نكست رأسها وتهدت ونسيت الأحرف طريقها إليها.

– طب اطلعي نتكلم في البيت.

وعندما لم تتحرك زعق بها:

– اطلعي يلا.

تحركت خلفه بصمت، دخل للمنزل وهي خلفها، سألتها أمها
هي الأخرى أين كانت ولم تجد ما تجيبه، والصغيرة ركضت ناحيتها
والتصقت بها تسألها ببيكاء هستيري أين ذهبت وتركتها بالمنزل، والكل
يبحث عن إجابة عداه، يعلم أنها تلك نوبة جنون أصابتها، ولأنها تأخرت
عن العودة لأول مرة أزعجه فكرة أنها ربما لن تعود.

كان ينظر نحوها بغضب، لوم، حنق وغضب ترى بنفسها أنه
يتحكم فيه قدر الإمكان بسبب وجود ابنتها وأمها.

حينها بكت، سألت الدموع من عينها تلقائياً دون أي مجهود من
ناحيتها، أنزلت ابنتها من بين أحضانها وتهاوت على أول مقعد قريب منها
تحتضن دموعها بأصابعها، كانت اليوم غريبة ومريبة.

تأملها، ظل يتساءل هل أهملها؟ هل أخلف وعده معها؟ هل ضايقها
البارحة بكلماته وهل أخطأ عندما لم يسع لمصالححتها لأنه بالأساس
غاضب منها؟

ولا يهم كل هذا وسط تلك الدموع؛ مهما فعلت ينسى غضبه إذا بكت عينها الجميلتين، يعلم أن بكاءها مقابله ثمين ولا تصل لتلك المرحلة إلا إذا كانت في قمة ضيقها، وهي اليوم في قمة التعب والتوتر وخالية الطاقة.

دخل للغرفة وأخذ بعض الأوراق وخرج، أمسك يديها ولسانه يردد بشيء من الحماس.

– قومي.

رفعت رأسها وتساءلت بنبرة متحشجة:

– هنروح فين؟

وعندما لم ينطق أكملت:

– والولاد هنسيهم؟

نظر نحو أمها ونطق:

– مامتك هتبات معانا النهارده.

وشيرين بدورها ربتت على كتفيه وطمأنته بعينها:

– أنا هنا متقلقوش.

وحتمها بقولها:

– انزلي مع جوزك يا حبيبتي.

وكعادتها المستفزة ما زالت تتساءل:

– هنروح فين؟

طرق على رأسها مازحًا وأخبرها:

– اخلصي يا فصيلة.

وتبعته، تبعته بقلها سلقًا ولهذا هي هنا إلى الآن، ركب على دراجته النارية وأشار لها بأن تركب خلفه، وابتسمت، تذكرت الأيام الخوالي

وذكرياتهما المجنونة على ظهره، هو وهي وهذا الموتور، حدث عظيم لم يحدث منذ زمن.

صعدت خلفه، مالت برأسها واستندت على ظهره، تمسكت به رغم أنه قد تعقل في قيادته وأصبح يستخدم سرعة أمنة متوسطة بعد أن أصبح رجلاً متزوجاً ويعول، انطلق بها إلى وجهة لا تعلمها ولم يعد يهتمها، توقفت أمام عقار في منطقة تبدو حديثة البناء، تجمعت الأسئلة على لسانها ولم تنطق بها بعد، وهو استغل تفاجأها وصعد بها، ثم أمرها أن تغمض عينيها وبعدها أدخلها. تركها تتأمل المكان بعيون دامعة ثم أخبرها:

– كنت عازرة أعملها لك مفاجأة في نصف الشهر عشان عيد جوازنا بس...

وأكمل ناظرًا لها:

– خفت تهربي لحد يومها بصراحة.

ضحكت باندهاش، وضعت يديها على فمها وقدمها تتجولان بالشقة تتأمل جدرانها ولسانها يردد وكأنه يعتاد على الكلمة:

– شقتنا!

قالتها وصاحبيتها تهيدة طويلة متعبة، أخيرًا! سيكون لها منزل يخصها، لن تضطر للتنقل من شقة لأخرى بسبب جشع الملاك، ولن تحزن بسبب ذكريات تتركها في كل مكان رغمًا عنها. وإن كان المنزل يحتاج الكثير من المجهود والأموال حتى يصلح للاستخدام الآدمي.

ولكن لا يهم، يكفي أنه يخصهم وأنهم سيستقروا في النهاية!

صحح لها كلمتها بعدما منحها حفنة من الأوراق.

– شقتك.

فتحت الأوراق بتعجب ثم رددت:

— باسسي!

وأخبرته:

— بس ده تعبك ومجهودك وشغلك ليل نهار السنين الي فاتت.

وأكملت:

— كنت بتدخل من الجمعية للتانية عشان تجمع تمنها و...

وقاطعها هو بنبرة لا تأبه لتلك التفاصيل المملة:

— إنتي شقايا وتعبي ومجهودي.

وشرع بمسح دموعها ثم أخبرها:

— عشانك إنتي بس أنا فكرت اتجوز واستقر وبسببك عندي

أجمل ولاد.

واقترب منها ليحتضنها وكان يشعر بتلك الجملة حقًا:

— مفتكرش إنني محتاج حاجة تاني من الدنيا.

وهي من بين عاطفتها المتثارة لم تستطع النطق، فقط تتساقط

دموعها وكأنها كانت تكبتها وانفجرت بفضل تصرفاته معها، احتضنها

وكان يؤكد لها:

— متزعليش من الكلمتين الي قولتهم في ساعة عصبية، إنتي

أحسن زوجة وأم في الدنيا.

وأرادت الاعتذار منه هي الأخرى لما بدر منها اليوم، وكانت ستخبره

عن السبب والطفل الجديد الذي يلعب بهرموناتها ويغير في حالتها

النفسية، ولم تستطع؛ لأنه ببساطة أعلن اشتياقه إليها.

قبلها وتعمق وكان سيقوم بفعل فاضح في الشقة الجديدة البريئة

لولا حارس العقار اللعين الذي رن جرس الباب في غير وقته تمامًا.

– معلش يا استاذ عبد الحليم، لقيت النور من نور ومشوفتكوش
وانتو داخلين.

وأخبره على الرغم من لعناته الداخلية التي يحملها في قلبه نحوه:

– ولا يهيمك يا راجل يا طيب.

ثم أمسكها من يديها وخرجا من العقار بينما يهمس لها:

– قطع مزاج الواحد الله يحرقه.

وابتسمت، ركبت خلفه وتلك المرة كانت مرتاحة، سعيدة،
وتناست كل شيء وكأنها لم تحيا هذا النهار الثقيل، كعادته يمنحها
مخزون الطاقة كلما ينفد ويساعدها على البدء من جديد.

يفهمها ويستوعبها ويقف بجانبها دومًا وهي كعادة أي امرأة أصيلة
عندما ترضى عن زوجها تمنحه كل الامتيازات الممكنة وغير الممكنة.

بمجرد أن دخلت للشقة واطمأنت أمها علمها أصرت على المبيت
لدى منال وحليم أوصلها، لبث احتياجات أطفالها المعتادة وشرعت
بتحضير العشاء الفخيم حتى عودته، وبالمطبخ بينما هو كعادته يلتقط
قطعة بطاطس محمرة ساخنة نهرته:

– اصبر لما اخلص الأكل.

والرد جاهز:

– جعان.

أطفأت الموقد ثم قتلها الانتظار فقررت الاعتراف له بما لم يعلمه
بعد.

– حليم عاوزه اقولك حاجة.

– خير.

– احم احم، أصل يعني...

– اخلصي.

– بصراحة أنا حامل.

ورده أذهلها:

– بامبرز تاني!

وبمعنى «حرام والله».

وهي كادت تقذفه بالمقلاة في وجهه بزيتها الساخن.

– يا سلام! هو أنا يعني كنت بجيهم لوحدي؟!

ودخلت فرح للمطبخ بسبب أصواتهما العالية وتحاول أن تفهم ما تتفوه به ألسنتهم.

أشارت مهجة لابنتها حتى تقرب منها:

– أقولك على سر وما تقوليش لحد؟

والصغيرة انتبهت لما ستقول بكل حواسها، وضعت مهجة يديها على بطنها وأخبرتها بابتسامه:

– هنا فيه نونو صغنن جميل زيك.

وانتزعت الفيشة فجأة بعد اعتراضها الصريح فهي قد استمعت لتلك الكلمات نفسها من قبل ولم يعجبها الوضع الجديد بعدها:

– يووووه بقى، تاني.

«ورحلت غاضبة وتشعر بالغيرة».

ومع انفراج ثغرها المصدوم من رد فعل «الفصعونة» كان حلیم قد سقط حرفيًا على الأرض من كثرة الضحك، وبعد ثوان استوعبت خلالهما ما حدث ضحكت هي الأخرى، وتيقنت أن الجنون في تلك العائلة سمة ووراثه... «وحسبي الله»!

(الحياة لا تعطي دروسًا مجانية لأحد، فحين أقول
الحياة علمتني تأكد أنني دفعت الثمن)

- نجيب محفوظ -

وهي تعلمت، وبنفسها ترى النتيجة، باختصار لم يعد يهمها أمره،
ولم تصل لتلك النتيجة من فراغ، بعد صدمتها الأولى به لم يكتف
ومنحها المزيد منها.

بعد أن أخبره الطبيب رسميًا أنه لا يفضل لها أن تكرر الحمل؛
بسبب وهنها الصحي لم يعجبه، بل واتهمها أنها على اتفاق مسبق معه،
ومن بعدها تبدل إلى حد لا يطاق.

أصبح لا يهتم بإظهار الحب لها في كل فرصة كما كان يفعل بل ولمح
لها ذات مرة عن حقوقه الزوجية في أن يحقق رغباته وينجب أطفالًا من
امرأة غيرها أقوى صحة وأصغر سنًا.

وهي من بعد تلك الجملة تبدلت هي الأخرى، حتى لم تفتش عن
كونه تزوج بالفعل أو خانها.

بات وجوده كعدمه، ينفق عليها وعلى طفله وهي تقدم له الطعام
صباحًا والواجبات الزوجية مساءً، وبعد أن حملت بالطفل تخلت عن
الأخيرة بدافع التعب، ولم تحمل لأجله، ولكن من أجلها،
تغيرت حقًا!

لم تعد تلك المرأة المعطاءة، نفذ مخزون العطاء وأغلقت البوابة.
اشتهت الإنجاب بسبب عمر ابن شقيقتهما، بسببه رقص قلبها لتلك
المرحلة من جديد واستعادت تفاصيلها معها.

واليوم كان يوم ولادتها الصاخب، من وسط مخاوف الجميع عليها
كانت تتواصل هي معها سرًا.

تستقوى بها وتشد دمعها، تشبثت بيد شقيقتها قبل أن تدخل غرفة الولادة وهو لاحظ ولم تبال.

تمسكت بيده مرة في نفس المكان وتنازل عنها ولن تكررهما لأي سبب كان وحتى لو من أجل المنظر العام، وبعد عدة ساعات نسيت كل شيء وتعب الحمل وكل آلام الجراحة بسبب ابتسامتها،

تلك المرة اشتهت فتاة ويفضل كرم الخالق نالتها.

شعرت أن حياتها تغيرت بمجرد وصولها إليها، تعلقت بها وفرحت وكأنها تنجب للمرة الأولى؛ وربما لأنها تحتاجها أكثر من أي وقت مضى.

أقسمت منذ أن شهدت ابتسامتها أنها ستعمل على إسعادها بكل طاقتها.

ستمحها قلبها وعاطفتها، ستجعل من خالتها أسوة لها وتخبرها عن أشياء تفتقدها في نفسها.

لا تكوني ضعيفة يا صغيرتي، كوني فوق الأشياء تأتيك تحت قدميك، وستخبرها سرها الخاص كون الأمان أهم من المشاعر، ستدللها كونها الملكة والأميرة والسند والعاطفة التي لا تنتظر أي مقابل.

تاليا، أجمل فتاة بالعالم وابنة منال.

كانت معه بالسيارة بطريق المطار وهو منشغل بالحديث على الهاتف، جاء للعاصمة ورأسه هناك،

حقه؛ فمنصبه كونه رئيس قطاع بالشركة يحرمه العديد من الامتيازات كإجازاته غير المحسوبة مثلاً.

أخبرها بعض الملحوظات الزائدة وهي ضجرت بعد أن قامت بتسجيلها:

– كفاية شغل بجد، إحنا في إجازة يا ناس.

وبرر لها:

– أكيد يا تسنيم الشغل مش هيتعطل شهر بسببنا، لازم نمشيه بالتليفون ولا إيه؟

واعترضت:

– بس مش من أول كام ساعة، على الأقل الهارده.

وأشارت بإصابعها في الجوار:

– موحشتكتش البلد يا اخي انت بقالك 3 سنين منزلتتش.

وتنهد، لن ينكر يفتقد البلدة، عائلته، أصدقاءه وذكرياته، حتى العامين المفقودين من عمره كانوا أهون من هذا الحنين ولم يعد يفكر بهما، فقد الرغبة في التذكر وأصبح لا يهتم بالموضوع. وللحق، كان يفكر فيها أكثر.

شرد بعض الشيء في أشياء كثيرة ولم ينتبه سوى على صوت المذياع الذي قامت تسنيم بتشغيله ولحظه السيئ كانت أغنية لأم كلثوم أعادت في ذهنه الكثير من التفاصيل التي يهرب منها يوميًا.

سنين ومرت... زي الثواني... في حبك إنت.

وإن كنت أقدر... أحب ثاني... أحبك إنت.

كل العواطف الحلوة بيّنا.

كانت معانا حتى في خصامنا.

وازاي تقول انساك و اتحول.

و أنا حبي لك... أكثر من الأول.

شعور غريب أعادته الأغنية على مسامعها، وشعر وكأنها تجسدت أمامه بهيئتها الباكية الأخيرة!

أغلق سيف المذياع فواجهته الأخرى:

– فكرتك بيها؟

وأضافت متعمدة:

– بس إنت أصلًا منستهاش عشان تفتكرها.

نظر لها مطولًا ونفى ما تقول فقالت بصراحة معتادة منها:

– بأمانة الورد اللي خلتي ابعته على مكتبيها من يومين عشان

الترقية الجديدة؟

قال لها سريعًا:

– دي مجرد مجاملة.

أعادت تشغيل المذياع مرة أخرى بعناد:

– متكابرش ياسيف، إنت عمرك ما نسيتهها حتى أما كنا سوا.

غضب عليها:

– تسنيم!

وبمعنى أن تغلق على تلك السيرة المزعجة، وتسنيم هي صديقة مقربة برتبة خطيبة سابقة، تعرف إليها بسبب العمل، جميلة وأنيقة وذكية وطموحة بالعمل وتحمل كل المواصفات التي كان يضعها في فتاة الأحلام، وبعد خطبة دامت ثلاثة أشهر اعترف كلاهما أنهما ما يربطهما لم يتخط علاقة الصداقة، ومن بعدها لم يحاول الارتباط مجددًا، نزع الفكرة من رأسه نهائيًا وغرق بالعمل والطموح حتى الشبع.

وفي قرارة نفسه يعلم أنه ما زال لم يخرج من دائرة زواجه الأول وكأنه سجن مدى الحياة، وربما لعنته بها وظلت تطارده في كل مكان وزمان وأحيانًا بدنيا الأحلام.

تهد وقاد سيارته بصمت حتى أوصلها وبعدها ذهب لعائلته واللقاء المنتظر، وتاه في تفاصيل يفتقدها في غربته، حضن أبيه وقبلة يد أمه، شجار أخوته ومدلته بسنت والتي على الرغم من أنها اكتسبت بعض

الأعوام إلا أنها معه هو بالذات تفقد كل النضج وتعود لطفولتها، من اشتياقها إليه.

قعدت على مكتبها الحديث نوعاً ما، شردت في باقة الورد المجهولة الهوية ككل يوم منذ أن استلمتها.

أخرجت البطاقة من درج مكتبها وشرعت بقراءتها للمرة المليون.
«ألف مبروك، تستحقها يا حضرة المديرية».

حاولت الوصول لأي معلومات من محل الورد، ولكنهم أخبروها أن من هاتفهم فتاة ولم تعطهم أي معلومات، شرعت بالافتناع بتلك الفكرة، ولكن نوع الورد المميز وهذا الغموض يشعرها بعدم الراحة، وشيء ما بداخلها يهمس أنها تخصه.

سألت إيمان بشيء من الخجل عندما انفجر فضولها وما كان لديها أي فكرة، وبعدها ندمت؛ لأنها سألتها وأخجلت نفسها.

تهددت وخرجت من شرودها بسبب طرقات باب مكتبها، ألقّت البطاقة في درج جانبي وكأنه جريمة ثم استعادت الهيئة الجادة.

– ميس ريم، فيه إنترفيو.

أشارت لها بثقة مديرة:

– دخليه.

وكان شاباً صغيراً خجولاً وحديث التخرج.. سألتها الكثير من الأسئلة وتركته يتحدث عن نفسه، وبعد أن انتهى من حديثه سألتها وكأن الزمان يعود للقاءها العاصف بصفيق العمر.

– مش هكذب عليك يا أستاذ يوسف، موضوع تعيينك صعب وإنّ عارف السبب.

«إنّتي جاية تقدمي على وظيفة إيه؟!»

وأخبرها هو ببساطة:

— أنا بتعلم بسرعة وممكن أشتغل في أي حته.

«أنا ممكن أشتغل أي حاجة حضرتك.»

— بس برده، تربية قسم جفر افيا! إيه اللي ممكن تقدمهولنا.

«تفتكري الفلسفة ممكن تشغلك إيه عندنا؟!»

وتفاصيل أخرى شردت فيها ولم تنتبه لما يقوله وقتها.

«حضرتك حكمت عليا بسبب واسطة وماشي ده حقك بس إنك

تتعامل معايا على إني متأخرة عقليًا وكإني مش هنجح من غير واسطة

وتعتبره أمر واقع ده منتهى الإجحاف الصراحة.»

«قدامك شهرين تحت التدريب ووريني هتقدري تستحملي

الشغل معايا كام يوم.»

ولأنها شردت به في ساعات العمل الرسمية قررت بتحدٍ أن تقبل

تعيين هذا اليوسف على مسئوليتها الشخصية؛ وربما لأنها رأت نفسها

فيه، ولأنها رأت نفسها في صفيقها، لم تقسُ على نفسها وعليه.

وسخرت داخلها، اعترفت أن سيف صفاقته بالعمل لن تتكرر،

وإن كانت تحاول تقمص إدارته الناجحة إلا أنها لن تصل لمستواه

الحازم، وتذكرت أشياءً أخرى اكتسبتها منه كالفصل بين العمل والأمور

الشخصية، وأن الجديدة في العمل مطلوبة وخارجه غير مرغوبة؛ فلا

أحد سيصدق أن حضرة المديرية تخرج من العمل لممارسة الزومبا على

أغاني مكسيكية! سبحان الله.

الخاتمة

لقاء يتجدد كل فترة، تقابلها بأحد المطاعم يتناولون الطعام مع القليل من الثثرة، علاقة دامت سنوات ولم يقطعها خلاف وانفصال، وتلك المرة كان لقاؤهم بمطعم يقرب لعملها.

وظفها الشقي المتشرد سيتسبب مرة في طردهم وككل مرة أخبرته:

– إياد أنا مش هاخذك معايا تاني وهسيبك في البيت لوحدك مع الأشباح ياكلوك.

وصارحتها ريم:

– على فكرة إنتي كل مرة بتقوليله كده.

– بجد؟ مش باخد بالي.

ولاحقتها بالقول:

– طب يلا هتاكلي إيه؟

وتوقعت أن تطلب حساء «سي فوود» وسلطة ككل مرة بسبب الحمية الغذائية ولكن تلك المرة تمهورت!

– هجيب شاورما.

سألها بهمكم:

– والدايت يا مسعدة.

وحينها شعرت بتأنيب الضمير وشرعت بالكتابة على جوجل.

«كم هي السعرات الحرارية بالشاورما؟»

وعندما لم يمنحها إجابة محددة فرحت وقررت المخاطرة وليذهب الدايت إلى الجحيم.

لاحظت ريم أنها اليوم تنظر لها تفهما كل ثانية وأخرى، ولم تتناول ربع ما طلبته من طعام بعد.

سألتهما:

– ما لك النهارده؟

ابتسمت لتجيبها:

– عادي مفيش.

ثم صدمتها بقولها:

– عرفتي مين صاحب البوكيه الغامض؟

– لأ.

– بصي بصراحة.

وتلهفت ريم للاستماع إليها وتركت الساندويتش الرائع لأجلها
فأضافت:

– بيتهيألي كده هو من سيف.

توترت من الصدمة وازدادت وجنتيها سخونة وشرعت في شرب
كوب الماء البارد كي يطفأ النار التي اندلعت في حلقها، قالت بعد ثوان
استعادت فيها توازنها المختل بفضل سيرته:

– ليه بتقولي كده؟

– أخويا بقا وحافظاه وعارفة حركاته. أنا مش حاسة أنا متأكدة.
وأضافت:

– إنتو الاتنين لسه بتحبوا بعض ومش عارفة أخرتها إيه وهو
عنيذ قوي و...

قاطعتها ريم وكانت صارمة:

– ممكن تقفلي على السيرة.

وأردفت:

– هو قالها لي وكان عنده حق، كل شيء قسمة ونصيب.

وبعد دقيقة من الصمت رن هاتف إيمان، استأذنت منها للذهاب لدورة المياه وبعد دقائق وجدته أمامها عوضاً عنها، كان يبدو متفاجئاً هو الآخر بوجودها.

علق داخله ووصلتها كلماته، ولو لم ينطق بها.

«إيمان وحركات إيمان».

جلس أمامها ورمقها بنظرة مشتاق وسألها:

– إزيك؟

وكانت خجولة أكثر مما ينبغي.

– الحمد لله.

وبعدها داهم هاتفه رسالة صوتية من شقيقته العزيزة أخبرته فيها أن نصيبه أمامه وتلك المرة القرار في يده و «إيموشن» عاشق، وكان رد فعله ابتسامة، ابتسامة أثارت تعجبها وفسرتها بحساسية.

– مبروك الترقية.

– مبروك ترقيةك إنت كمان.

وحينها هو نظر لها مطولاً وهي الأخرى. هو متابع جيد لأخبارها وهي أيضاً. تجمدت شفتمها وراقبها، عجيب، تغيرت وتغير والقلوب ازدادت تألفها!

طال الصمت وتحدثت المشاعر، استعادت أشواقها وسامحتها عيونها.

– مبروك إنك لقيتي نفسك.

وبسبب كبرياءها الذي مهما حدث لن تمسه مجددًا قالت له بتلعثم أحمق:

– أنا مش عايزاك تفهم غلط.

وعقد حاجبيه بعدم فهم فأكملت:

– إيمان مقالتيش حتى إنك رجعت مصر.

وأضافت وكانت تقصد الوصول لتلك النقطة:

– لتكون فاكراني متفقة معاها وبدبسك.

وحينها خرجت الكلمة التي يحتجزها داخل فمه لسنوات طويلة:

– تعرفي إنك وحشتيني قوي!

ورد فعلها كان البكاء.

دموع سخية خرجت من جحيم مقلتها وسنوات طويلة مرت أمام

عيونها.

ليالٍ سهرتها بفضله، وروح تتمرد عليها وتحنو إليه، وذنب يحضر في ذهنها ويقتل فيها كل دقيقة. حملت حقيبتها وهربت وهو تأخر في اللحاق بسبب دفع الحساب.

لمحها تسير نحو موقف الميكروباصات ولحقها، جلس في المقعد الذي خلفها رغم ذهولها، وكان لا يعلم أين سيذهب وماذا سيفعل، ولكنه تلك العنان لقلبه تلك المرة باحثاً عن المرسى، والمرسى في عينها والحب بين شفقتها.

وبعد خمس دقائق انقلبت الأوضاع وكأنها سخرية القدر من كلاهما.

صرخات، حادثة طفيفة، كدمات في جسدها وهو لم يصبه شيء! استعادت وعيها في سيارة الإسعاف وعندما وجدته أمامها سألته بنظرة وحده من يستطيع تفسيرها...

– أنت مين؟

وأخبرها هو غامزًا:
- أنا أبو عيالك يا ريم.



تمت بحمد الله

2018-03-16

عن الكاتبة

(أحلام سعد)

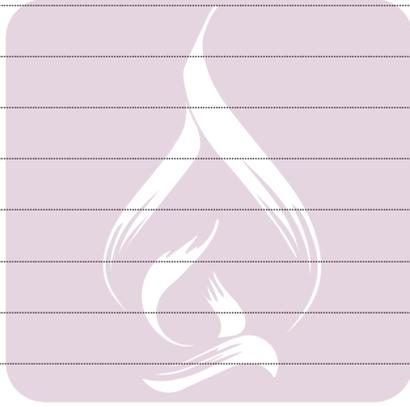
- روائية مصرية مواليد 1988.
- كيميائية، تخرجت في جامعة الإسكندرية كلية العلوم قسم كيمياء – ميكروبيولوجي عام 2010.
- نُشر لها ورقياً رواية «داليدا» – رواية مشتركة – مع كاتبة أخرى.
- قامت بكتابة عدة أعمال أدبية وقد تم نشرها بشكل إلكتروني على بعض المواقع الأدبية وجروب شخايبط وردية وعصير الكتب ثم أنشأت مدونتها الخاصة.
- مؤلفات تم نشرها إلكترونياً:
 - لأنها أنثى «رواية».
 - سحر الفيروز «رواية».
 - ألوان العشق «مجموعة قصصية».
 - حلم اليمامة «نوفيل».
 - اغتصاب دوت كوم «نوفيل».
 - عروسة تفصيل «نوفيل».
 - همسات 100.6 fm «نوفيل».

للتواصل مع الكاتب

الإيميل: mahy_s454@yahoo.com

حساب الفيس بوك: <https://www.facebook.com/ahlamnegm>

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!



الصالحة للنشر والتوزيع

AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION



تواصل معنا، ونحن نسمعك!

<https://www.facebook.com/alhalapublishing>

info@alhalapublishing.com

